نسرين ستموت الليلة

رواية

خديجة نمري

مكتبة 431

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مكتبة | 431

نسرين ستموت الليلة

مكتبة ٢٠١٩٥٥

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص. ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ ـ ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩
ISBN: 978-9948-03-920-4

صدرت هذه الطبعة باتفاقية نشر خاصة بين الناشر
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم.

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم غير مسؤولة
عن آراء المؤلّف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة
في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف وليس بالضرورة عن رأي المؤسسة.

مراجعة: فؤاد زعيتر
الغلاف: نور طويل
الإخراج الفني: بسمة تقي

خديجة نمري

نسرين ستموت الليلة

- رواية بوليسية -

431 | مكتبة

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مكتبة

telegram @ktabpdf

telegram @ktabrwaya

جديد الكتب والروايات

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

فهرس المحتويات

الفصل الأول: أشباح الهواجس ٧

الفصل الثاني: الآلام الخانقة ٣٧

الفصل الثالث: الظنون المكبوتة ٥٥

الفصل الرابع: عينا الصقر ٩٥

الفصل الخامس: الأحقاد ١٠٣

الفصل السادس: ليلة الرعب ١٢١

الفصل السابع: التحقيق الابتدائي ١٧٩

الفصل الثامن: الثلج يذوب عن المرج ٢١٥

الفصل التاسع: قصاصة الورق ٢٣٩

الفصل العاشر: الفطر القاتل ٢٦٧

الفصل الحادي عشر: السيد كمال سناري ٣١٩

الفصل الثاني عشر: الألغاز القديمة ٣٦٧

الفصل الثالث عشر: سر القبو ٣٩١
الفصل الرابع عشر: الورقة الأخيرة ٤٠٣
الفصل الخامس عشر: القناع يسقط ٤١٧

الفصل الأول

أشباح الهواجس

ـ ستغادرين اليوم؟

كان المتحدث رجلاً طويلاً إلى حد ما، في الحادية والأربعين من عمره، ذا عينين بنيتين فاتحتين، وجاحظتين قليلاً، توحيان بالشك. كان منتفخ الخدين، أما نطقه فبطيء، يشدد على مخارج الألفاظ وصحة نطقها. وكانت المستمعة إليه سيدة أنيقة ورشيقة، ترتدي تنورة سوداء تغطي حتى ركبتيها، وقميصاً من الحرير، يتلاءم مع دراعة الصوف المزرّرة، ويتدلى على رقبتها الشاحبة عقد من اللآلئ اللامعة.

كان حليم، ذو البشرة البرونزية، ملّاحاً. سر لون بشرته القاتم، هو عمله قبل التحاقه بدار النشر في السلاح البحري. لم يكن الأمر يتعلق ببناء مستقبل يطمح إلى أن يكون مشرقاً، ولا استقرار في مهنة معينة للوصول إلى منصب عال. كان الأمر يخرج عن هذا الإطار، ويكمن في

كل شيء يربطه بالبحر. فلطالما شعر بأن في عروقه تسري دماء البحار الجزائري، الريس حميدو. ولطالما اعتقدَ أن علاقة روحانية بينه وبين الريس حميدو تجعله ينجذب تلقائياً نحو البحر. لكن العمل خيب آماله، فلم يكن كما طالما تخيّله: البقاء ستة أشهر فوق ظهر السفينة، وفي عرض المحيط، عرضة لدوران البحر، والغثيان... البحر! كان شيئاً آخر، كان بعيداً كل البعد عما كان يجري في تصوراته. لم يكن يدري أن عصر الريس حميدو قد انقضى، واندثرت معه الأساطيل، التي كانت تفرض سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط. لقد انطفأ ذلك العصر في معركة نافرين التي حطمت الأسطول الجزائري.

كانت عودة حليم إلى الواقع نكسة حقيقية، فأحلامه التي كانت تنتظر البحر، غرقت قبل أن تصل إلى الشاطئ. ولم يجد شيئاً يجسد به عشقه واهتمامه بالأساطيل الجزائرية إبان الحكم العثماني، إلا عن طريق تدوين التاريخ. وكانت هذه خطوة نحو ميدان التأليف والتاريخ.

وبعكس البحر، وجد حليم هذا العالم مرحباً، واستقر في هذه المهنة منذ ذلك الحين، وكون صداقات جديدة، من بينها ممثلة المسرح نسرين غزلان، التي جعلت من خشبة المسرح طلتها الدائمة وإشراقتها المتواصلة.

وها هو الموعد يجمعهما في مدينة تونسية تدعى صفاقس، في معرض لكتاب الطفل. دُعي إليه كما دُعيت نسرين غزلان لتشارك في إحدى مسرحياتها التي لقيت صيتاً كبيراً.

ها هي الآن أمامه. شفتاها ترتعشان كأنما تريدان البوح بشيء بدون أن تجد الحروف مخرجاً من فمها، فدسّت يديها في جيب حقيبتها، وأخرجت ورقة مجعدة، وقالت له:

ـ لقد وصلني هذا الفاكس صباح اليوم، في الفندق الذي أقيم فيه.

فتح حليم الورقة، ومسّدها حتى استوت:

«عزيزتي نسرين،

لقد وصل. علمت من ابنة خالتي نريمان. إنها تعمل في المطار، وقد قرأتْ اسمه في قائمة الركاب الذين وصلوا البارحة على الطائرة القادمة من ألمانيا. أشعر بأنه من واجبي إخبارك.

اعتني بنفسك

صديقتك نهاد».

عندما انتهى من قراءة الرسالة، قالت نسرين بعدما تأوهت:

ـ سأغادر اليوم... لقد غيّرت موعد تذكرة الطائرة، وقدّمته إلى اليوم... إنها فرصتي الوحيدة...

لم يُعلق حليم، بل ظل صامتاً برهة، وهو مقطب الجبين كما لو كان يفكر، ثم رفع بصره نحو نسرين، وانفجر:

ـ أنتِ تمزحين بدون شك!

انتفضت نسرين، وأجابت بصوت خافت متلعثم بعض الشيء:

ـ أنتَ أكثر علماً بأنه عليّ أن أضع حلاً لكل هذا الغموض الذي يلف كياني بدون أن أعرف عنه شيئاً... لا أريد أن أعيش إلى الأبد في هذا العذاب، تباً لهذه الآلام التي تعكر صفو حياتي!

زفر حليم بقوة، ثم نزع معطفه وطواه على ذراعه، ورفع كمَّي قميصه إلى أعلى مرفقيه، حتى يقلل من حرارة الجو على جسده، ثم قال وهو يحاول جاهداً كبح توتره:

ـ أعتقد أنك حسمت أمرك منذ البداية، ولم تأتي إلا كي...

قاطعته، وقالت بصوت متلعثم:

ـ لقد جئت لأطلب منك أن تتحدث مع رئيس الجمعية، وتشرح له أنني لن أؤدي المسرحية.

علت الدهشة على ملامحه:

ـ هل فقدت عقلك؟

ـ لم أفقده.

ـ أنا سعيد لسماع هذا، لأن ما تفوهت به للتو هو عين الجنون.

حاول حليم تلطيف الجو بابتسامة رسمها على وجهه، إلا أنها سرعان ما ذابت بين ملامحه، عندما رأى أمارات الجدية والقلق تنهش وجه نسرين، وأدرك أن الأمر أكثر تعقيداً بكثير مما كان يتصور.

ـ هذا أمر مستحيل. لقد وزعت بطاقات الدعوة، والمسرحية تُعتبر نشاطاً مهماً في هذا المعرض، ولا أظن أن رئيس الجمعية سيتقبل تبريرك مهما كانت أهميته.

أشاحت بوجهها للحظة عنه، تستجمع قواها، ثم قالت بعدما استشعرت قوة كافية لمتابعة الحديث بأسى:

ـ إنني كعصفور مهيض الجناح، لا أستطيع أن أفعل شيئاً لتغيير الأمر... سلكتُ كل الطرق، ومشيتُ في كل الدروب. لقد استنزف الطريق قوتي. أرجوك دعني أذهب وراء هذا الأمل الأخير... إني لا أعرف أين سينتهي بي الطريق، لكني أعلم إلى أين سأصل، إن بقيتُ واقفة هكذا، جامدة فوق حافة واد سحيق.

صمتت للحظة، تحدّ من قوة المشاعر التي اجتاحت كيانها فجأة وبقوة، وتابعت بعد برهة:

ـ أرجوك بلّغه اعتذاري... أخبره أنني لا أستطيع أن أبقى... فربما يكون هذا آخر درب سأمر فيه.

أنصت حليم إليها حتى أنهت حديثها. شعر بالشفقة نحوها أكثر من العتاب، ولم يجد ما يفعله إلا أن يطأطئ رأسه، ويُخرج من صدره حمم الزفير.

ـ شكراً... كنتُ أعلم بأنك ستكون دائماً الكتف التي أتكئ عليها.

كانت قد همّت بالرحيل، لكنها قبل أن تخطو خطوة

واحدة، ترنحت في مشيتها، وكادت تسقط، لولا أن حليم مد إليها ذراعه وأسندها.

ـ هل أنتِ بخير؟

اغرورقت عيناها بالدموع، بدون أن تدري كيف خرجت العَبَرات من مقلتيّها، وانفجرت في نوبة نشيج وشهيق طويلة، وقالت بصوت مخنوق:

ـ إني أشعر بقلبي ينفطر... لا أعرف ماذا يحدث لي.

كانت في عينيها نظرات حزن وكآبة عميقة. لم تستطع أن تمكث أكثر في مكانها، وغادرت بدون أن تضيف كلمة أخرى.

كانت قد جففتْ عينيها، عندما وصلت إلى فندق «الأقواس»، إلا أن خديّها بقيا رطبين، وآثار الدموع واضحة عليهما. أحضرت مفتاح غرفتها من عامل الاستقبال بدون أن تبالي بنظراته الفضولية، ثم استقلت المصعد إلى الطابق الثاني.

دخلت غرفتها. كانت رطبة، وهادئة. رمت حقيبتها على سريرها، ثم أصلحت ماكياجها بسرعة، وتفقدت أغراضها، وجلست بعد ذلك على حافة السرير تنتظر قدوم السيارة التي

ستقلها إلى تونس العاصمة. ترقرقت الدموع في عينيها، ثم انحدرت نزولاً على خدها الأيمن، وتصاعدت غصة ملتهبة في داخلها. أصبح الألم لا يُقاوَم، فمددتْ جسمها على طول السرير، ورطّبت غطاءه بدموعها. شعرت بأن فؤادها لم يُخلق لتحمل هذه الآلام كلها، التي تنخر داخلها، ولم تجد فريسة إلا جسدها. فجأة قفزت هلعاً عندما سمعت رنين هاتف الغرفة، فتقدمت مسرعة إليه. حملت السماعة، وسرعان ما هدأ روعها عندما سمعت صوت موظف الاستقبال:

ـ سيدتي، السيارة تنتظرك في الأسفل. هل أرسل شخصاً يُنزل معك الأمتعة؟

ـ لا، لا... شكراً، ليست لدي إلا حقيبة واحدة.

وضعت السماعة، وحملت حقيبتها، ثم نزلت مسرعة إلى الطابق الأرضي. لم يكن الوقت حليفها، وكان الخوف يعصر قلبها، فقد يظهر رئيس الجمعية في أي لحظة، ويمنعها من السفر.

سلمت المفتاح إلى عامل الاستقبال، وهرولت بدون أن تضيف كلمة واحدة، إلى السيارة التي كانت تنتظرها أمام بوابة الفندق. ولشدة اضطرابها، استقلتها بدون أن تنتظر السائق لينزل ويفتح لها الباب.

أشارت إليه أن ينطلق بسرعة. أخذت السيارة تشق طريقها بين شوارع صفاقس، حتى بدأت الأبنية تتوارى، وحلّت مكانها سهول صفراء تغطي مدى الأفق.

ما إن شعرت بأنها أصبحت بعيدة عن المدينة، حتى طرحت رأسها إلى الوراء، ونظرت إلى السائق من خلال عينيها نصف المغمضتين. كانت تتمنى لو يزيد من سرعته، فتطير السيارة إلى العاصمة بأسرع من ذلك.

لم تدر كيف تسلل النوم إليها برغم جميع مشاكلها التي تنخر رأسها، ولم تفق إلا مذعورة على رنين هاتفها المحمول. أخرجته بتأفف. كان المتصل رئيس جمعية صفاقس لكتاب الطفل. لقد تأخر كثيراً لأنها وصلت إلى مشارف العاصمة، ولن يجعلها أحد تغير قرارها...

فتحت النافذة. شعرت بنسمات دافئة تداعب وجهها، وأخذت تحدق إلى أضواء العاصمة، كأنها ابتسامات أطفال. تابعت السيارة طريقها نحو المطار. كان المساء منعشاً. ومع انخفاض الشمس عن كبد السماء، أصبح الجو أكثر لطفاً.

مكتبة

كانت تونس جميلة، هادئة. الناس يتحركون بنظام. الترام يمر كأنه يزحف. تابعت استمتاعها برؤية المدينة،

وتمنت ألا تصل السيارة إلى المطار، لا لأنها ألغت فكرة السفر من رأسها، بل لجمال المنظر. لقد شدتها تونس بسحرها.

لم يمر إلا ربع ساعة، حتى توقفت السيارة أمام المطار. ها هي الآن قريبة أكثر مما تتصور من هدفها. أنقدت السائق، ثم ترّجلت.

لم تستغرق إجراءات ركوب الطائرة إلا نصف ساعة. لكن داخل حجرتها. أعلنت المضيفة أنهم سينتظرون قليلاً لأن أحد الركاب ـ ويبدو أنه شخص مهم ـ لم يصل بعد. شعرت فجأة بالخوف، وتملكتها أفكار طفولية أخذت تملأ مخيلتها: «ربما يكون رئيس الجمعية قد أخّر الطائرة حتى يتمكن من الوصول وإقناعها بالعدول عن رأيها. وربما اتصل بالمطار، وطلب منهم تأخير الرحلة».

حاولت عبثاً أن تطرد هذه الأفكار الصبيانية. وبينما كانت مشغولة في إقصاء هواجسها السوداء من رأسها، صعد إلى الطائرة رجل طويل، يرتدي بذلة أنيقة، ويحمل حقيبة بنية جلدية. كان يبدو ذا هيئة دبلوماسية، أو رجل أعمال. ملامحه تعبر عن الصرامة والجدية، دنا منه المضيف بخفة، وساعده على الجلوس في مقعد الدرجة الأولى، ووضع حقيبته في درج فوق مقعده.

كان هذا الرجل على ما يبدو، هو الشخص الذي تعطلت الطائرة من أجله. فما إن استراح في مقعده، وتأكد المضيف من ذلك، حتى أعلن أن الطائرة ستنطلق بعد لحظات بعد أن غمغم بعبارات الاعتذار عن التأخر.

أقلعت الطائرة، فاستندت نسرين إلى المقعد واسترخت. شعرت بأن سحابة الغم التي كانت ترافقها قد اندثرت. ها قد مر نصف الساعة الأول من الرحلة بسلام. قامت المضيفات بتقديم العصير البارد إلى الركاب، ثم بتوزيع الجرائد وبعض المجلات.

شعرت فجأة بانقباض، وداهمتها تلك الرغبة في البكاء. حاولت أن تكبح دموعها، لكن عبراتها كانت كالقدر، لا أحد يستطيع العبث به.

سحبت منديلاً من حقيبتها. كانت تجهل سبب انسكاب هذه الدموع. هي لا تشعر بالحزن ولا بالكآبة. أتبكي من أجل المتعة؟ أهي دموع فرح التي تملأ وجهها الآن؟ أخذت تبكي بكاءً مكتوماً، وغطت وجهها بكفيها. كان مظهرها يثير الشفقة. التفتت إليها الراكبة الجالسة إلى يمينها، وسألتها:

ـ هل أنت على ما يرام؟

لكن نسرين نهضت وهرولت إلى الحمام. غسلتْ وجهها بعجلة، وتطلعت إلى صورتها في المرآة. كان وجهها شاحباً، مُبزراً بوضوح هالات عينيها. أطبقت جفنيها وقالت لنفسها بحرقة رهيبة:

ـ يا إلهي! لم يعد في مقدوري التحمل.

تأملت دموعها، ومررت إصبعها عليها: «إنها عبرات حقيقية».

شعرت بالضعف. لم تكن أول مرة تبكي فيها بدون سبب، لكن منذ فترة طويلة وهي أسيرة دموعها المفاجئة، تهطل بدون إنذار. وكم من مرة وجدت نفسها في مواقف محرجة: ذات يوم، عندما استدعتها معلمة ابنها لتحدثها عن نقاط ضعفه، أخذت تبكي أمامها، حتى اعتقدت المعلمة أنها امرأة مقهورة، تعاني الويل من ابنها. ومنذ ذلك الحين، ساءت حالها، وكاد الأمر يتحول إلى عقدة حقيقية.

لم يخرجها من دهاليز تفكيرها إلا صوت المضيفة وهي تعلن عن بدء هبوط الطائرة على مدرج مطار «هواري بومدين»، وتأمر الركاب بربط أحزمة الأمان، والبقاء جالسين حتى تحط الطائرة.

مسحت نسرين دموعها، وخففت بالماء البارد احمرار عينيها، ثم عادت إلى مكانها، متجاهلة الراكبة الفضولية. ربطت حزامها، وبقيت مسندة رأسها إلى ظهر المقعد. كان عليها أن تتجلد قليلاً، فلم يبق على وصولها إلى الجزائر إلا بضع لحظات... وهناك سيتغير كل شيء.

بدأت الطائرة تنخفض، وأخذت معالم الأرض تتضح، وأبعاد الأجسام تأخذ صوراً واضحة. ومع السرعة التي كانت تنزل بها الطائرة، شعرت نسرين بالغثيان. كانت عينا الراكبة إلى يمينها تراقبانها كالصقر، وترصدان حركاتها كلها.

حطت الطائرة أخيراً. كان الانتظار إلى أن يُفتح بابها رهيبا. بقيت نسرين ترتجف وهي تشعر بحبات العرق تنزلق من رأسها، وتنحدر على جبهتها... وظلت على هذه الحالة من الرعب والتوتر، حتى عندما استقلت سيارة أجرة لتقلها إلى شارع ديدوش مراد. لكن، ما إن غرقت السيارة في ازدحام الطريق السريع، وعلى إيقاع الموسيقى الشعبية، التي كانت تنبعث من مذياع السيارة، حتى غفت كطفل صغير، ولم تفق إلا على صوت فظ، يوقظها:

ـ استيقظي أيتها السيدة، لقد وصلنا إلى شارع ديدوش مراد.

أفاقت مذعورة، وشدت بقوة حقيبتها إليها. نظرت من حولها، وبقيت للحظات تائهة، وعندما استعادت تركيزها، دفعت الأجرة إلى السائق الذي ما إن ترّجلت زبونته حتى انطلق متذمراً.

كانت نسرين واقفة على الرصيف المكتظ بالمشاة. أخذت تحدق في المباني، وهي تحاول أن تتذكر مكان عيادة الطبيب النفسي أمين موسى، لكنها كانت مشوشة الذهن. اختلطت عليها الأمكنة، فأخذت تمشي بلا وجهة محددة. كانت تشعر بأنها لا تتحرك، بل تلك الحشود المجتمعة من حولها هي التي تدفعها. وفجأة تراءى لها المبنى الذي تقع فيه العيادة، ورأت أسفله أمين وهو يهم بركوب سيارته. ركضت نحوه كظامئة لاحت لها من بعيد واحة، وأخذت تدفع الناس ليفسحوا لها الطريق. كان الطبيب قد انطلق، لكنها قفزت أمام سيارته. توقف مذعوراً، وترجل من سيارته وهو يغلي من الغضب، وصرخ في وجهها:

ـ هل أنتِ مجنونة؟

كانت تشعر بالاختناق، وأصبح تنفسها صعباً. شعرت كما لو أن الهواء سيقتلع رئتيها.

ـ إذا أردتِ الانتحار، فالمدينة تعج بالجسور.

قالت نسرين بمشقة وتعب:

ـ أرجوك... لقد ألغيت مواعيدي كلها لرؤيتك.

زفر أمين باستهجان، وقال لها بصوت يعبر عن مدى تذمره:

ـ سكرتيرتي ما زالت في العيادة، اصعدي إليها وخذي منها موعداً في أيلول/سبتمبر، وعندما أعود من برلين سأكشف عليك.

ـ لا يمكن، إن الأمر مهم... لا أستطيع الانتظار إلى غاية أيلول/سبتمبر. أنتَ لا تفهم شيئاً.

دمدم متذمراً:

ـ سيدتي، يجب عليك انتظار عودتي، أنا في عجلة من أمري الآن.

همّ بركوب سيارته، لكنها صرخت متوسلة:

ـ أرجوك... أنتَ هو أملي الأخير.

وكرر في لهجة صارمة غير مبالٍ بتعابير الشفقة التي اكتسحت وجهها فجأة:

ـ أنا مستعجل أريد مساعدتكِ، لكني مستعجل، أنا حقاً لا يمكنني الانتظار. أرجوكِ ابتعدي عن طريقي.

لكن نسرين بقيتْ منتصبة أمام سيارته. شعر بالانزعاج، وفقد معها كل لباقته، وصاح وهو يدفعها بعيداً عن سيارته.

ـ ابتعدي عن السيارة، تباً! لقد تأخرت عن موعد الطائرة.

شعرت نسرين فجأة بالدوار، وأحست بأن كل شيء تضيع ملامحه أمامها، وبالضوضاء حولها كأنها صرخات الشياطين. فقدت إدراكها بالمكان والزمان، فتراجعت إلى الوراء، وغدا جسم الطبيب غائماً بالنسبة إليها، ثم غدا أكبر. كان العالم كله يغدو أكبر، ثم سقطتْ وغابت عن الوعي.

٢

عندما فتحت نسرين عينيها، بدا لها أن وقتاً طويلاً قد انقضى. وجدت نفسها مستلقية على كنبة دافئة بيضاء اللون. لم تعرف المرأة كم مرّ عليها من الوقت قبل أن تستعيد

وعيها. كانت تشعر بالصداع، فاستندت إلى ذراع الكنبة لتنهض، وأخذت تجول ببصرها في أرجاء المكان. الغرفة التي توجد فيها مألوفة بالنسبة إليها: المكتب المصنوع من خشب الجوز، باللون البني العسلي؛ وتلك الستائر الثقيلة التي تتدلى على النافذة الكبيرة كجفون مرهقة؛ والمكتبة الطويلة المركونة إلى يمين المكتب... كل هذا شاهدته من قبل، لكنها لم تكن قادرة على تحديد مكان تواجدها. وفجأة فُتح الباب، وما إن رأت الشخص الداخل حتى انتعشت ذاكرتها. لقد كانت في مكتب الطبيب أمين موسى. كانت قد زارته من قبل من أجل استشارة طبية، لكن سكرتيرته الفظة أخبرتها بأنه ليس موجوداً في الجزائر. كان هو الداخل، ومن ورائه سكرتيرته القصيرة ذات النظرات الغليظة.

كانت ملامح الغضب واضحة على محياه، فلقد فاته وقت الطائرة، ولن يتمكن من الحصول على مقعد في قوائم المسافرين إلا الشهر القادم، وهو الذي كان يعول على مؤتمر برلين لدراسة نوع جديد من الأمراض العصبية.

تقدم منها، وقال لها بحنق قاتم:

ـ لقد تسببتِ لي في فضيحة في الشارع، واحتشد الناس

حولك، ولو لم أحملك إلى العيادة لدخلت في مشاحنة معهم.

جلست نسرين على الكنبة، وقالت وهي تشعر بأنها مجبرة على التوضيح.

ـ أنا آسفة، لقد ألغيت أنا أيضاً مسرحية لي في صفاقس عندما أعلمتني صديقة بأنك في الجزائر.

همهم باستهجان، ونظر إليها من تحت نظارته، ثم قال لها بعد هنيهة من التفكير:

ـ لقد عدت إلى الجزائر لآخذ بعض الأوراق والأغراض التي سأحتاج إليها في برلين.

قاطعته قائلة بعدما شعرت بأن الوقت يمر بسرعة:

ـ لكن الأمر الذي أتيت من أجله، مهم للغاية... إنها مسألة حيرتني لفترة طويلة... وأخشى أنني لا أملك وقتاً كي أنتظرك حتى أيلول/ سبتمبر.

كان صوتها يسيل توسلاً وحزناً. تجهم أمين، ثم سحب علبة جلدية من الجيب الداخلي لمعطفه، وأخرج منها سيجارة وأشعلها، وأخذ يذرع أرض الحجرة جيئة وذهاباً، وهو يلوح بالسيجارة بين أصابعه بدون أن يضعها مرة واحدة في فمه.

نظرت نسرين إليه نظرات مستغيثة:

ـ لقد انتظرت كثيراً حتى استطعت رؤيتك... إن المسألة خطيرة.

توقف عن المشي، ونظر إليها نظرة طبيب ذي خبرة طويلة وعميقة، ثم قال لها بعد أن أشار إلى سكرتيرته بالانصراف:

ـ حسناً...

ألقى بثقله على الكرسي بالقرب من الكنبة، وطلب من نسرين الاسترخاء عليها، ثم قال بصوت خافت واثق النبرات:

ـ ما الذي يزعجك؟

تحدثت بنبرة مضطربة، وبدا على ملامحها الشجن:

ـ مشكلتي أنني أبكي بدون سبب... للحظة أشعر بغصة تحرق فؤادي، ثم سرعان ما تتدفق دموعي على خديّ بدون أن أعرف ما يُبكيني.

كان يصغي بانتباه شديد ويقظة تامة، ثم سألها:

ـ متى بدأت هذه الحالة معك؟

تريثت قليلاً. بدت في عينيها علامات التفكير ثم أجابته:

ـ منذ سنتين. وهذه الرغبة في البكاء تتزايد في داخلي يوما بعد يوم... حتى أنني أصبحت أتحاشى الناس، أو إطالة الجلوس معهم...

حكّ الطبيب ذقنه بإمعان، وقال لها:

ـ هل تبكين لرؤية شيء معين، أو سماع صوت محدد؟

حركت رأسها نافية، وأضافت منكسة الجفنين:

ـ لا يحرك دموعي أي شيء مما ذكرت... وهذا ما يحيرني.

ـ هل تعيشين مع عائلتك... أقصد هل أنت متزوجة؟ أم تعيشين مع والديك؟.

أرخت قبضة يدها اليمنى، عندما أخذ الحديث مجرى آخر:

ـ لا، أنا متزوجة منذ ثماني سنوات، ولدي طفلان.

ـ هل والداك على قيد الحياة؟

ـ لا، ماتا منذ سنتين.

ـ هل كنت متعلقة بهما، أو بأحدهما؟

تريثت قليلاً قبل أن تجيب:

ـ لقد عشت حياة مستقلة وبعيدة عن والدَيّ. تربيت عند جدتي في العاصمة. أما والداي فكانا يعيشان في تلمسان، ولهذا لم أرتبط بهما كثيراً...

ـ وماذا عن إخوتك؟

ـ كانت لدي أخت توأم... ماتت منذ عشر سنوات، لم ألتق بها إلا عندما بلغت الرابعة والعشرين، أي قبل عام على وفاتها. فلقد صادف أن حصلت على ترقية للعمل في صحيفة في العاصمة، انتقلت بعدها إلى السكن فيها، وأقامتْ معي في بيت جدتي.

ـ أي أن شقيقتك كانت تسكن مع والديك؟

ـ أجل.

سجل بعض الملاحظات في دفتره، ثم قال: كيف كانت

علاقتك بها؟ هل كنتما دائماً على وفاق؟ أم مثل أي شقيقتين تتشاجران، وتوجد دائماً سحابة سوداء بينهما.

ـ لا أدري، لا أتذكر... إن هذه النقطة مشوشة، لقد توطدت علاقتنا في العام ١٩٩٤، وماتت في ١٩٩٥. وفي هذه الفترة، جرت أحداث كثيرة ومختلفة، لكن كل شيء مشوش، كأن ثمة ضباباً كثيفاً يُطبق بجناحيه على كل شيء. لا أستطيع تذكر شيء...

وأضافت بتوتر:

ـ كأن شيئاً في داخلي يمنعني من استحضار هذه الذكريات.

هدأها الطبيب، وقال لها:

ـ لا تُتعبي نفسك. لنغير الموضوع. حدثيني عن طفليك وزوجك؟

ـ زوجي يعمل مخرجاً مسرحياً. تعرفت إليه في المسرح. كان ذلك العام ١٩٩٧. كان عمري آنذاك سبعة وعشرين، وتزوجنا في العام ذاته.

ـ أي بعد عامين من وفاة شقيقتك؟

قطبت حاجبيها، وأغمضت عينيها، وقالت:

ـ أجل، أتذكر أن تلك الحقبة كان فيها الإرهابيون في أشد قوتهم... أوه، يا إلهي، تلك العجوز الشمطاء... ما أحبتني قط!

ـ من هي تلك العجوز الشمطاء؟

ـ هل ذَكرتُ ذلك، لا أدري، كل شيء يعوم في فوضى...

ضغطت بقوة على صدغيها، وتابعت تقول:

ـ هو أيضاً كان مخادعاً... لكني سامحته.

وتوقفت عن الحديث. شعرت بغصة ملتهبة تحرق قلبها، وأخذت تبكي.

دنا منها الطبيب أكثر، وقال لها:

ـ بماذا تفكرين الآن؟

اشتد بكاؤها، وقالت وهي تقاوم الدموع:

ـ لا أدري... لكني خائفة كثيراً... عندما أتذكر شقيقتي

مريم أشعر بشيء مؤلم يلتهب بين عضلات قلبي، لكني لا أعرف ما هو؟

ـ هل اسم مريم هو الذي يجعلك تخافين؟

ـ لا أدري، كل شيء مبهم.

أخذت تبكي بشدة، وغطت وجهها بكفيها، بينما استقام الطبيب، ودلف إلى النافذة، ثم نظر إليها وقال لها:

ـ هل تسمحين لي بالتدخين؟

أومأت برأسها إيجاباً.

أشعل سيجارة، وأخذ يدخن وهو يتأمل في ما وراء النافذة. وما هي إلا دقائق حتى التفت إليها، وكانت قد هدأت قليلاً، وقال كأنه يحدث نفسه:

ـ إن الأمر مبهم كما قلتِ. لكن يا سيدتي، يمكن أن نجرب شيئاً، قد يساعدنا على إنارة بعض هذا الغموض... سنجرب التنويم المغناطيسي.

رفعت عينيها المبللتين كطفلة صغيرة نحوه، وسألته بقلق:

ـ وهل تعتقد أنه سيحل مشكلتي؟

ـ أعتقد ذلك يا سيدتي. ثمة فترة من حياتك قد أثرت فيك بشكل حساس...

جلس ثانية على الكرسي، وشبك أصابعه، وتابع حديثه:

ـ نواجه في الحياة تجارب كثيرة، ومتنوعة، وقد نتعرض أحيانا لموقفين يتعين علينا أن نختار موقفا واحدا منهما، واختياراً واحداً. لكن هنا يتوقف الأمر على ماذا نريد، أو ما نحتاج إليه. سأسهّل عليك الأمور: مثلاً، شاب استُدعي إلى الخدمة العسكرية، وهو لا يريد الالتحاق بها، فهنا هو مخير بين الالتحاق أو المحاكمة، وكلا الأمرين لا يريده، لكنه مجبر على أن يختار. أما الحالة الثانية، فهي أن نواجه أمرين، نرغب في كليهما: مثلاً شخص حاصل على شهادة البكالوريا يريد الالتحاق بجامعة الطب وجامعة الصيدلة في آن واحد، لكن شهادته لا تسمح له إلا بالتسجيل في فرع واحد، فهو في هذه الحالة مجبر على أن يختار واحدة منهما. أما الحالة الثالثة، فهي عندما نواجه شيئاً مرغوباً وأمراً مكروهاً، لكنهما مقترنان ببعضهما البعض، كشاب يريد الزواج بفتاة يحبها، لكن لا يتفق مع عائلتها... كل هذه المواقف التي ذكرتها في الحالات الثلاث، تولّد داخل

الإنسان صراعات داخلية، وهنا يتوقف على شخصية الانسان المتعرض لهذا الموقف، فثمة من يتجاوز الأمر ببساطة، ويوجد من لا يستطيع أن يتحمل فيفضل الابتعاد، أو بالأحرى الهروب. وثمة من يصاب بفقد الذاكرة جزئياً أو كلياً، فالضغط الذي يولده هذا الصراع يجعل عقل الإنسان يلجأ إلى هذه الطريقة حتى يخفف من توتر الضغوطات التي يواجهها، وحدتها...

توقف لحظة يجس النبض. كان يبدو أن نسرين ضاعت بين متاهات كلامه، وكان يقرأ في عينيها طلبها أن يربط ما ينطق به بحالتها. وأومأ برأسه، كأنه يجيب على نظراتها.

نفض سيجارته، وتابع:

ـ أعتقد أن ثمة حقبة في حياتك جعلتك تعيشين صراعاً داخلياً، وأظن أن هذه الفترة هي ذاتها الفترة التي ماتت فيها شقيقتك... أي ١٩٩٥.

توقف فجأة، كي يرى رد فعلها، لكنها بقيت تحدق فيه، كأنها كانت ترفض التفكير في أحداث تلك السنة.

ـ لا أريد إحياء تلك الأحداث... إن الأمر يتطلب جهداً مضنياً، وفي النهاية لا تظهر لي إلا صور مشوشة...

ـ سنجرب التنويم المغناطيسي... لا تخشي شيئاً يا سيدتي. في البداية كان التنويم المغناطيسي طريقة تُستعمل في طب الأمراض العقلية، وتمكّننا من الوصول بكل سهولة إلى منطقة اللاوعي. وهذا كان يسمح بإعادة استخراج بعض المشاكل، أو العقد المتصلة بالطفولة... والآن، أصبحت أكثر استعمالاً في الطب، وكذلك في العلاج النفسي. التنويم المغناطيسي له فائدة كبرى في محاربة الآلام، والتحرر من بعض القيود، أو العادات السيئة، مثل التدخين، أو الأكل بدون انتظام... القلق، الرهاب... الحقيقة أن كثيراً من العلماء حاول أن يجد البديل، لكن التنويم المغناطيسي أثبت نجاحه في كثير من الأمور، مثلاً، بالنسبة إلى الآلام. ففي حالة التنويم، يكون إنتاج الأندورفين في قمته، وهو يُعتبر مسكناً حقيقياً وطبيعياً للآلام، ما يترتب عنه تقليص جرعات الدواء في حالة آلام الظهر، أو الصداع.

أحس بما سببته كلماته من خوف وقلق لدى مريضته. سألته نسرين بارتياب:

ـ هل أنت متأكد من نجاح التنويم في حالتي، أم أنك ستجرب؟

أجابها بصوت حازم:

ـ إن شاء الله، فستكون نتيجة إيجابية.

ـ إن أعصابي محطمة، ولا أعتقد أني أحتمل إحياء الكثير من الذكريات.

قال وهو يهز كتفيه:

ـ حسناً، أقترح أن تعودي بعد أسبوع، إنها مدة كافية لتستريح أعصابك.

اعترضت نسرين بشدة:

ـ لا... لا يمكن. إن أسبوعاً كاملاً فترة طويلة، وقد تحدث فيها أشياء كثيرة، قد لا أكون ربما على قيد الحياة... سآتي غداً إليك...

حدق أمين فيها وهو يفكر كم هي مأساوية هذه المرأة! ثم أخذ يبحث عن مكان يلقي فيه سيجارته، فاهتدى إلى أصيص نبتة بلاستيكي، ثم قال:

ـ حسناً، إن كان هذا ما يلائمك.

عندما ركبت سيارة الأجرة لتعيدها إلى المنزل، أسندت

ظهرها إلى المقعد. وفكرت وهي تنظر عبر النافذة: «بقيت خمسة أيام. يا إلهي، ساعدني، أتوسل إليك، فأنا لم أعد أستطيع تحمل المزيد»!

الفصل الثاني

الآلام الخانقة

١

كان المنزل الذي تعيش فيه من أروع البيوت الحديثة المحاطة بسلسلة من أعمدة النور، ووراءه حديقة غناء تترامى ببهاء خلفه، وأحواض الزهور الرائعة تتراءى من بعيد، بالإضافة إلى أشجار الصنوبر المقلمة بعناية، تتوسطها نافورة جميلة تتفرع منها ممرات عدة مغطاة بالحصى.

عندما فتحت مونية باب المنزل، وقفت في مكانها كالصنم... ثم بدون أن تضبط مشاعرها، أطلقت صرخة مكتومة:

ـ نسرين، ألستِ في تونس؟ هل حدث شيء سيئ؟ أين ولداك؟

وقبل أن تواصل هستيريتها المزعجة، سألتها نسرين، وهي تنسل كالسمكة من تحت ذراعها داخلة المنزل:

ـ هل القهوة جاهزة يا مونية؟

بقيت مونية تحدق في نسرين. ظلت لوهلة جامدة، حائرة، ثم أغلقت الباب، وذهبت إلى المطبخ لتعد القهوة.

كانت مونية امرأة بسيطة، عادية المظهر ومحدودة الأفق. لها وجه ذو تعابير بليدة، توحي بأنها شخصية مملة وساذجة. وكانت تعاني بطء الاستيعاب. وأسلوبها في اللباس يعبر بشكل فاضح عن الفراغ الذي تحياه.

كانت نسرين تُدخل حقيبتها في ردهة ممتلئة بأثاث فاخر، حين ظهرت من أعلى السلالم سيدة أنيقة ترتدي طقماً قرنفلي اللون. شعرها أصهب تلفه في قطعة قماش تكفي لستر الجزء العلوي. صاحت بقوة وهي تشد على درابزين السلم. كانت العتمة في ردهة المدخل تمنعها من رؤية نسرين في أسفل الدرج.

ـ من كان يقرع جرس الباب يا مونية؟

وضعت نسرين حقيبتها على الأرض، وأجابت وهي تلهث من التعب:

ـ أنا نسرين يا ليلى...

تشنجت ليلى لسماع صوت نسرين.

دنت نسرين من المرآة المعلقة في الردهة، ونزعت رباط شعرها، فتدلى أسودَ متموجاً على كتفيها. وخاطبت ليلى وهي تسرح ضفائره:

ـ ما بك واقفة هناك؟ كأنك رأيت شبحاً... لقد مللت الجو في تونس. إنها مدينة هادئة، ولا أستطيع أن أبقى في ذلك الجو... ها أنا معكم الآن، تعالي وشاركينا القهوة، فمونية ذهبت تعدها.

لم تفارق نظرات الحيرة والدهشة تقاطيع وجه ليلى. نزلت ولحقت بنسرين إلى حجرة الجلوس. كانت الحجرة فسيحة، فيها طقم من الآرائك المغربية ذات اللون الأخضر القاتم، وسجاد إيراني يتربع على الأرضية كسهل أخضر، وطاولة من خشب الجوز تتوسط الحجرة.

دخلت مونية. وضعت القهوة على الطاولة، وسكبتها في الفناجين، ثم عادت إلى المطبخ لتحضر صحن البقلاوة.

جلست ليلى إلى الطاولة. وثمة كلام كثير يتزاحم بين شدقيها. وكان أول ما قالته بعد تردد:

ـ لا أفهم يا نسرين... لماذا لم تتصلي وتخبرينا

بقدومك؟ ثم انظري إلى ملابسك. إنها تبدو قذرة. هل ركبت في شاحنة القمامات، أم في طائرة؟

ارتجف فنجان القهوة في يد نسرين، ولم تستطع أن تتجرع جرعة أخرى. تذكرت أن ملابسها اتسخت بسبب سقوطها على الأرض عندما فقدت وعيها أمام سيارة الطبيب أمين موسى، ولم ينقذها من الموقف إلا دخول مونية ومعها صحن الحلوى.

جلست مونية في مواجهة نسرين، وقالت:

ـ لقد اتصلت العجوز ياسمين وأخبرتها بقدومك. انزعجتْ كثيراً، وسألتني من أحضرها من المطار؟ فقلت لها لا أحد، وقد أغضبها ذلك كثيراً...

قاطعت ليلى مونية باستهجان، وهي تحرك الملعقة بتوتر:

ـ لماذا أخبرتها؟ ألا تعلمين بأن صحتها سيئة؟ أم أنك تريدين إدخالها المستشفى؟ إن خبراً مثل هذا سيؤدي حتماً إلى ارتفاع ضغط دمها...

تغير مزاج مونية فجأة، وتجهم وجهها، واتخذ سمة ذوي الخبرة الواسعة:

ـ أتريدين أن تعود إلى المنزل وتجدها هنا. لا شك في أنها ستصاب بسكتة قلبية. كان عليّ إخبارها.

وضعت نسرين الفنجان بقوة على الطاولة حتى يصمتا، ثم نهضت وقالت بصوت يخنقه الضجر:

ـ سأصعد إلى غرفتي وأستريح. أنا متعبة ومجهدة كثيراً. أرجو ألا تزعجاني مهما كان السبب.

وما كادت تتوارى عن أنظارهما، حتى قالت ليلى لمونية بصوت خفيض، لكنه واضح:

ـ أرأيت ملابسها؟ إنها قذرة جداً. إني أشك في أن تكون حقاً ذهبت إلى تونس، فهي مثل أختها تحب المغامرات التي لا تأتي من ورائها إلا المشاكل.

ثم سكتت وتناولت قليلاً من الحلوى، واستطردت بالارتياب ذاته:

ـ إني أشك في أنها ذهبت إلى تونس... أقطع يدي إن لم يكن كلامها على الجو الذي لم يلائمها، مجرد كذبة.

دنت مونية من ليلى، وسألتها بحذر:

ـ هل تعتقدين أنها تخفي شيئاً؟ لقد بدت لي متوترة كثيراً...

أومأت ليلى برأسها، وقالت وهي واثقة من كلامها:

ـ الأمر واضح: إذاً، لماذا جاءت هكذا بدون سابق إنذار؟ ألم تكن ستعرض مسرحية لها في صفاقس في السادس من آذار/ مارس؟

ارتفع حاجبا مونية قلقاً، وأعادت السؤال ذاته بصياغة جديدة:

ـ صحيح، هل ألغت مسرحيتها هناك؟

ـ لا أدري، لكن الشيء المؤكد هو أنها تخفي سراً، وما من أحد يجعلها تبوح به إلا العجوز ياسمين.

كانت ليلى تتكلم والشعور بالغضب الذي يتملكها يتنامى شيئاً فشيئاً. اعتدلت في جلستها، وغرقت في التفكير، بينما قامت مونية بتنظيف الطاولة، وغسل الأواني.

كانت نسرين في هذه الأثناء، ممددة على السرير، والستار الأزرق يتدلى على نافذة طويلة مُغرقاً الغرفة في جو معتم وحزين. بقيت مستلقية بدون أن يجد النعاس سبيلاً

إليها. كانت تشعر بإعياء ثقيل يرهق جسدها وروحها معاً. تشكو قرحة في معدتها، وها هي استشعرت ألماً رهيباً في صدرها. تمنت لو تعرف ما يحدث لها...

ظلت على هذه الحال طوال المساء، في ضباب أرقط من الذكريات. تذكرت طفليها، وحياتها، وأخذت صور بعيدة مبهمة، تنتصب أمامها، وتأتي تارة وتبتعد طوراً كالمد والجزر.

٢

ـ ما زلت كما عهدتك يا عزيزتي، ذات ذوق رفيع. ذلك الفستان السندسي، إنه رائع... لكن، يا عزيزتي، لم يكن جديراً بك شراء الفرو من تونس، إن الفراء الأصلي في باريس. لقد اشتريت العام الماضي معطفاً من الفرو من غاليري لافايات، ولقد كلفني ثروة، لكني كما أقول دائماً... الأناقة ليس لها ثمن... ليلية هل تسمعينني؟

انتفضت ليلية، وعادت إلى عالم الواقع.

ـ ها... ليلية، هل تسمعينني؟

أرسلت ليلية ابتسامة مجبرة، ونظرت إلى خالتها.

لاحظت أنها قد غيّرت تسريحة شعرها، وأخذ الآن لوناً قرنفلياً.

ـ أجل خالتي... كنتُ أفكر في أمر غريب حصل معي في الطائرة.

فتحت فمها، كأنها سمكة خارج الماء، وقرَّبت كرسيها منها، وسألتها:

ـ هل أزعجك أحدهم؟ آه، يا عزيزتي، لقد نصحتك بعدم السفر إلى تونس وحدك... لا أفهم فتيات هذا العصر، إنهن لا يعرفن شيئاً عن المخاطر.

هزت ليلية رأسها نافية أن يكون أحد قد أزعجها.

ـ لقد رأيت الفنانة نسرين غزلان في الطائرة... كانت تجلس معي في الصف ذاته.

تناولت الخالة جرعة من قهوتها، وقالت لها، وكان يبدو أن لقاء ابنة أختها مع ممثلة، لم يكن أمراً مثيراً:

ـ لقد كانت ممثلة رائعة في بداية التسعينيات، لكن، بعد ما حصل لشقيقتها، تدهور مستواها... لقد حضرت لها مسرحية العام الماضي... ما اسمها؟ إن ذاكرتي تخونني هذه الأيام، بسبب ذلك الدواء الذي وصفه لي الطبيب.

ـ اسمها «الثلوج الذائبة»، ألا تتذكرين؟ لقد ذهبت برفقة صديقتك نجية...

وما لبثت أن قاطعتها خالتها، وقد انتعشت ذاكرتها:

ـ أجل، ذهبت مع نجية، وجلسنا في مقعدين قريبين إلى خشبة المسرح. كان أداؤها متوسطاً... إني أتفهم هذا التراجع في الأداء. لقد مرت في ظروف صعبة. ولقد أخبرتني نجية، أنها دخلت مصحاً عقلياً، أو مركزاً للعلاج ضد الإدمان... يا إلهي، إن الفن مليء بالمخدرات!

أومأت ليلية برأسها، وقالت بتردد:

ـ لقد رأيتها، تبكي في الطائرة.

ارتعشت خالتها. وصادف تلك اللحظة، أنها كانت ترفع الفنجان إلى شفتيها، فارتجفت القهوة بين أصابعها، وتدفقت على الطاولة: «يا إلهي!!!»، صرخت، وأسرعت إلى المطبخ، وحملت معها قطعة قماش مبللة، مسحت بها الطاولة بإهمال، ثم جلست بالقرب من ليلية:

ـ هل قلت إن نسرين غزلان كانت تمسح دموعها أمام الملأ؟ يا لها من ممثلة؟

ـ خالتي، أرجوك لا تبدئي الآن، إني أعلم بأنك سمعتِ جيداً ما قلتُه.

ارتبكت الخالة، واحمرّ خداها:

ـ لقد قلتُ لك، إنه الدواء... سأتصل بأي جمعية لنضع حداً لاستغلال هذا الطبيب نساءً مثلنا.

بدت ليلية غير مهتمة بما تهذي به خالتها. كان أمر نسرين يهمها كثيراً، فهي نادراً ما تلتقي بفنانات يبكين أمام الملأ. لقد كانت تعاني مشكلة! كانت متأكدة... وما أكد أحاسيسها، أن ليلية تابعت نسرين، ورأت ما حدث لها أمام الطبيب أمين موسى.

قالت في سرّها وهي ترنو إلى ما وراء النافذة، والظلام يسدل معطفه على المدينة: «إن هذه السيدة تعاني أمراً ليس بالهين، إني متأكدة من ذلك».

دفعتْ بفنجان القهوة بعيداً عنها باشمئزاز. كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً. وقد حاولت لحظتها أن تتذكر إن كانت تناولت العشاء أم لا...

ظنتْ ـ بسبب تعبها ـ أنها لم تتناوله. لكنها تذكرت الطعم المالح للدجاج الذي قُدم إليها في الطائرة. كانت

خالتها قد صعدت إلى غرفتها، لترتاح، فغداً ستزود نجية بأخبار عن نسرين، لكن في إطار قصة جديد.

حملت ليلية الفنجان، ووضعتْه في المطبخ، ثم ذهبت لتنام... فغداً يجب أن ترى أمين موسى.

* * *

لم تدر نسرين كيف غفت، أو كيف داهمها النوم، عكس ليلة البارحة في «فندق الأقواس» الذي لم تنم فيه إلا ساعات. ففي هذه الليلة غفت بعمق، وبرغم ذلك لم يكن نومها مريحاً. فما زال شعورها يهجس بضيق وبنُذُر شر فظيعة، ولقد رأت أحلاماً رهيبة، حلمت فيها بهاويات مخيفة ووديان سحيقة، كانت تمشي فيها وهي مدركة أن أي زلة قدم تعني الموت. استيقظتْ لتجد عقارب ساعتها تشير إلى الخامسة صباحاً. كان لديها صداع مؤلم، وأهوال أحلامها ما زالت تعكر مزاجها.

كان المنزل غارقاً في ظلام قاتم. رفعت رأسها عن الوسادة، وألقت نظرة إلى الخارج. الحي ينام في هدوء وسكينة، لم يكن يعم المكان غير القطط والكلاب المشردة، تخرق سكونه مع ريح هادئة تمر مسالمة، فتكنس بعض الأوراق.

نهضت، وارتدت خفيها. كانت الغرفة باردة ورطبة. خرجت إلى الرواق. الجميع في عز نومهم. نزلت بخطى هادئة إلى المطبخ، لتتناول شيئاً، فهي لم تذق الطعام منذ البارحة. كان يوجد في الثلاجة بعض الأرز الأبيض الجاف، أخرجته، وأشعلت الفرن، ووضعته في داخله حتى يسخن. استغلت فترة تسخين الأرز حتى تخلو إلى نفسها. كانت ثمة أفكار تتنامى في ذهنها ببطء: تهجس في جلسة التنويم، إن كانت ستعطي نتيجة إيجابية. تهالكت على المقعد مغمضة العينين، وأخذت تنتحب ببطء، وتسكب في دموعها تأوهاتها وكل ما في قلبها المجروح من أسى، وقد أثقل عليها الضيق وشعورها المذل بضعفها.

كان الطقس بارداً، والمطر ينقر زجاج النوافذ. كان يُخيَّل إليها أن أشباحاً تدور حول المنزل في سواد الليل: أشباحاً رمادية، طويلة الأذرع، ذات وجوه حمراء عريضة لا عيون فيها. تسرب بعض الحرارة من الفرن، فشعرت بالدفء، وتمنت في سرها أن تأخذها هذه الأشباح بعيداً...

لم تفق من مناجاتها إلا عندما اشتمت رائحة طعام محروق، فهرولت إلى الفرن، وأخرجت الأرز منه. لقد احترق الجزء السفلي، واستطاعت إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

لم تأكل إلا القليل. لقد شعرت بفقدان الشهية تدريجاً، حتى تركت الملعقة، وحملت الصحن، وأعادته إلى الثلاجة.

كانت الساعة في تلك الأثناء، تشير إلى السادسة صباحاً، وهو وقت استيقاظ الممرضة ليندة.

كانت ليندة ممرضة جدتها، تسهر على إعطائها الدواء على نحو منتظم، وتقوم بدفع كرسيها النقال، ومرافقتها في جميع الأماكن التي تذهب إليها، وتسهر على راحتها... كانت ليندة ذات شعر داكن أملس، وعينين زرقاوين مفعمتين بالحيوية، وذقن بارزة مع أنف مستقيم. وبرغم جمال ملامحها لم تكن جذابة، بل متوسطة الحسن في أحسن الحالات، لكنها تعرف دائماً ما يجب فعله، وتتقن عملها بشكل جعل العجوز ياسمين، الحادة اللسان، التي تتكلم بديكتاتورية، وتجد في كل شيء عيباً، ترضى بها. وكان هذا بالنسبة إلى أي ممرضة شهادة عالية على قدراتها.

عندما أغلقتْ نسرين باب الثلاجة، سمعتْ خطوات خافتة على درج السلم، فعرفت أن ليندة قد استيقظت، ففتحت الثلاجة من جديد، وتظاهرت بإعداد فطور الصباح.

عندما دخلت ليندة، قفزتْ من شدة الرعب، لكن ما إن تبين لها أنها نسرين، هدأ روعها وقالت بصوت هادئ:

ـ لقد أرعبتني. ظننت أن لصاً تسلل إلى الداخل.

ابتسمت نسرين وتظاهرت بأنها طبيعية. سكبت الحليب في القِدْر، وأشعلت النار من تحته.

جلست ليندة إلى الطاولة، ومدت جذعها على سطحها، وهي تتثاءب، وتفرك عينيها:

ـ البارحة، كانت العجوز ياسمين غاضبة، وفي أوج هيجانها، عندما علمت بأنك عدت بدون أن تخبري أحداً. وما أضرم النار داخلها أكثر، أنك لم تتصلي بأحد كي يُحضرك من المطار.

ـ تباً لجدتي! تريد أن تسيطر على حياتي. هل عليّ أن أتصل بها وأخبرها بكل خطوة أقوم بها.

ـ لا، لكنها كانت قلقة عليك... لقد قلتِ لنا إن لديك مسرحية ستعرضينها في مدينة صفاقس، وأصررتِ على أن تأخذي معك الطفلين، ثم ها أنت تعودين فجأة... هل حدث شيء لا تريدين إخبارنا به؟

ضغطت بقوة على مقبض القدر. ألقت نظرة خاطفة عبر النافذة. كان الصقيع يلف المكان، ثم استدارت نحو ليندة، وقالت وهي تضغط على مخارج الحروف:

ـ لست في سن تستدعي القلق أو الجزع. أنا متزوجة ولدي ولدان. إذا لم أتحمل مسؤوليتي الآن، فمتى أتحملها؟ ثم، لا أرى سبباً يدعو إلى الاضطراب والتوتر هذين... أنا بخير، وها قد عدتُ لأنني شعرت بالضيق هناك، هل هذا سبب مقنع؟

ـ حسناً، لا تنفعلي، كيف حال جمال وعدنان؟ لماذا لم تحضريهما معك؟

تغيرت نبرة صوتها وأجابتها:

ـ لقد تركتهما هناك مع حليم. إنهما يستمتعان بوقتهما.

هزت ليندة رأسها، وقالت لها وهي تمرر يدها بإعياء على شعرها، لترفعه عن وجهها:

ـ البارحة، كان يوماً شاقاً. فلقد احتجز ضابط جمركي بعض قطع الغيار في الميناء، فأرسلت العجوز ياسمين سمير كي يحل المشكلة، لكن الأمر كان معقداً، واحتاج إلى تدخل شخص ذي نفوذ.

هزت نسرين رأسها بتثاقل، وهي تحرك الحليب في القدر. كان يبدو من ملامحها، أنها لا تريد أن تواصل الخوض في هذا الحديث.

غلى الحليب، فوضعته جانباً، وأخرجت الهلاليات، ووضعتها في الفرن، ثم جلست، تنتظر أن يجهز إحداها. وكانت من فينة إلى أخرى، تنظر إلى الساعة، التي كانت تشير إلى السادسة وخمس وأربعين دقيقة.

قطع تأملها صوت ليندة التي واصلت ثرثرتها بنبرة منخفضة تشبه فحيح الأفعى:

ـ البارحة تشاجرت مونية مع زوجها مروان، بسبب موضوع سخيف: من يأخذ ابنهما إلى الروضة... ذلك مروان الغبي! إنه حثالة في المنزل. يقول طبيبه إنه يعاني الإحباط، لكني أقول إنه يعاني الكسل والخمول. إنه يبرر لامبالاته بالإحباط والأدوية التي يدسها في فمها كل يوم في وقتي الغداء والعشاء، حتى لا يحاسبه أحد عن البطالة التي يغرق فيها، تصوري أنه يصرف من راتب مونية، ويعيش منه! تلك المسكينة! إنها تحاول جاهدة أن تتستر عليه.

كانت تتحدث... وتتحدث، وتضغط على يديها، فتفرقع أصابعها، في حين كانت أجفان نسرين المنهكة تنسدل على عينيها بإعياء، ثم وقفت بدون أن تهتم بكلامها، وأخرجت قطعتين من الهلاليات من الفرن، وصبت بعض الحليب والقهوة في فنجانها، وأخذت تشرب. ولم تتوقف

ليندة عن الحديث حتى عندما وقفت لتحضر إفطار العجوز ياسمين.

كانت نسرين غائبة عنها. كانت تفكر في ما حدث البارحة، وتسترجع هذه الأحداث، بكل تفصيل. وكانت من حين إلى أخر تشعر برغبة في البكاء، أسفاً على الحالة التي آلت إليها. لكن وجود ليندة في المطبخ معها جعلها تكبح دموعها في مقلتيها. وعندما حانت الساعة السابعة، وضعت الفنجان، وصعدت إلى غرفتها لترتدي ملابسها. التقت بسمير على درجات السلم المظلم، الذي كان مصباح باهت اللون على جانب الأيمن يضيء جوانبه. كان بسمير هذا يبدو الإرهاق عليه جلياً من كثرة ما ركض البارحة في الميناء من أجل تحرير قطع الغيار المستوردة.

تنفست الصعداء. كان هذا يلائمها، فعلى الأقل لن يضيع وقتها في الثرثرة. حياها برأسه، ونزل يدفع نفسه إلى الأمام.

ارتقت الدرجات الأخيرة للسلم بسرعة، ودخلتْ غرفتها. كان الجو خانقاً وغريباً. شعرت بأنها انفصلت عن العالم الخارجي، وأصبحت أسيرة جو يقبض على صدرها بكلتا يديه الفولاذيتين. وقفت وسط الغرفة كأنها أصبحت

غريبة عنها، وأخذت تدور في أرجائها حتى وقع بصرها على صورة طفليها فوق طاولة الزينة. دنت والدموع تترقرق في عينيها، وحملت بيدين ترتجفان الصورة، ومررت إصبعها عليها، ونبست والدموع تملأ شفتيها:

ـ أحبكما. بعد خمسة أيام لن أراكما. يا إلهي، كم هي الحياة قاسية!

سقطت على ركبتيها تبكي. الذكريات الحزينة كبلتها. بدت كالعصفور الجريح، الذي أصابه سهم الصياد في جناحيه، ولم تستطع كبح دموعها حتى وهي في مرأب المنزل، تمسح زجاج سيارتها، ومسحت دموعها بمنديل أصبح ندياً من كثرة الدموع.

الفصل الثالث

الظنون المكبوتة

١

الآلام جذوة تبقى مشتعلة داخل الإنسان. لا تنطفئ، بل تبقى متوهجة تلاحق صاحبها، تحرقه على نار هادئة وتفتك بروحه. هذا ما كانت تشعر به نسرين. لكن الأسوأ، أنها كانت تجهل ما جعل هذه الآلام تظهر فجأة، وكيف انقلبت حالها، وأصبحت رهينة نوبات تنتابها فجأة.

توقفت سيارتها أمام الضوء الأحمر لإشارة المرور، وإلى جوارها سيارة سوداء، رأت من خلال نافذتها المخططة بقطرات الندى، فتى صغيراً ينظر إليها بطريقة فضولية. بقيت نسرين تحدق في الفتى. تذكرت طفليها بقلب مثقل بالألم. عندما اختفت السيارة، لم تستطع نسرين أن تنطلق. شعرت بأن جسدها عاجز عن القيادة، وأحستْ بالدموع تتجمع في عينيها، ورف في داخلها قلبها لتذكر أشجانها. رف قلبها كفراشة ليل عمياء مهيضة الجناح، ولم

تسترجع قواها إلا بعد مرور ثوان عديدة، وأحست بأن الحل والنهاية من هذه النوبات اللعينة في يد الطبيب أمين موسى.

دخلت نسرين عيادة أمين، عند الساعة التاسعة إلا دقيقتين. كان منتصباً أمام النافذة. وعندما فتحت لها سكرتيرته الباب، التفت إلى الداخل، وقال:

ـ أنتِ دقيقة المواعيد... هذا يعجبني، فقليلون هم الذين يعرفون أن للوقت قيمة.

لم تكترث لملاحظته التافهة، واكتفت بأن تعلق عليها بابتسامة باهتة. دنت بخطوات هادئة إلى مكتبه، وأخذت مكاناً على الكرسي إلى جانبه، بينما جلس هو على كرسيه الدوار، واتكأ على مسنده، وقال لنسرين التي كانت تبدو أكثر من أي وقت كئيبة وحائرة: كيف حالك؟

لم تدر ما هي أصدق الكلمات للتعبير على حالتها، واكتفت بطأطأة رأسها، ونبست بهذه الكلمات: لم أتوسل في حياتي إلى إنسان... أرجوك، أنتَ لا تشعر بما يحدث لي... ساعدني، لقد سئمتُ كل شيء...

لم تستطع أن تتمالك نفسها، فطأطأت رأسها أكثر،

وانخفض كتفاها، ثم قالت: هل ثمة أمل في أن أشفى من هذه الحالة؟

أومأ برأسه، كأي طبيب، وقال بصوت هادئ: سأفعل ما في وسعي... ثم نهض من كرسيه، ودعاها إلى التمدد على الكنبة إلى يساره.

استلقت عليها بحذر، ومددت جسدها ببطء، وأطبقت جفنيها. تمنت من أعماقها أن تطبق آلامها وأحزانها بهذه السهولة التي أغمضت عينيها بها، وشعرت بأن روحها تتخبط بين أهوال أحزانها وأشجانها. أحضر أمين كرسياً، وجلس إلى قربها، وحقنها بحقنة.

ـ سنعود الآن إلى العام ١٩٩٥.

تجهم وجهها، وتقارب حاجباها، لكنها لم تجب.

كرر الطبيب جملته مرتين... ثلاث مرات، فاستجابتْ. شعرت بأن الكلمات تختنق في داخلها:

ـ نحن الآن في العام ١٩٩٥.

ـ كم عمرك؟

ـ خمس وعشرون سنة.

وشرعت تبكي. سالت الدموع بغزارة على خديها، فقال لها الطبيب:

ـ ماذا ترين الآن؟

ـ حشود كثيرة جداً. الناس يتقدمون إلى والديَّ، ويقدمون التعازي... خالتي تهمس في أذن والدتي... إني أسمعها جيداً.

ـ ماذا تقول لأمك؟

ـ ما كان يجب أن تتركي ابنتك تعمل صحافية في هذه الظروف الصعبة.

كانت هي تتحدث، بينما هو كان يدوّن بخفة بعض الكلمات التي لها معنى، ثم سألها:

ـ ماذا حدث لأختك؟

ـ كل واحد يروي رواية مختلفة، لكن الجالسة هناك العجوز الشمطاء... إنها تراقبني بتينك العينين الجاسوسيتين. إني أستطيع أن أقرأ أفكارها.

ـ وماذا تقرئين؟

ـ إنها تقصدني... نذير الموت... الرقم عشرة دائماً يتبعني، هي تعرف هذا.

ـ وماذا يعني الرقم عشرة؟

بدا أن نسرين تفقد ترابط الأفكار، وقالت بدون أن تسمع سؤال الطبيب:

ـ هي تعرف. هي من أخبرني.

ـ أخبرتك ماذا؟

فقدت نسرين من جديد، ترابط الأفكار، وأخذت تتحدث بدون أن تهتم بسؤاله:

ـ ها هو والدي. إنه يلعن الإرهابيين. هم من أخذوا أختي. كان الجيش يقوم بعملية تمشيط، عندما عثروا على جثة نصف متعفنة، في الجبل... كانت تحتفظ ببطاقة الدعوة التي أرسلها إلي مدير المسرح الوطني لحضور انطلاق الأسبوع الثقافي للمسرحية العربية، وكان على البطاقة اسمي وصورتي. وعندما اتصلوا بالمنزل، أخبروهم بأنهم عثروا عليّ جثة نصف متعفنة. لكن، تم تصحيح الالتباس، لأنه بعد اختفاء أختي قدمنا بلاغاً بالاختفاء إلى الشرطة، واتصلتُ بوالديّ في تلمسان، وقدما مسرعين. لم يُفتَح

تحقيق حول مقتلها. كانت أختي صحافية. وفي تلك الفترة، كانت الجماعات الإرهابية تستهدف الإعلاميين جميعهم. وأُغلق الملف ضد الإرهاب.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ أوكل والدي محامياً كي يطلب فتح تحقيق رسمي، لكنّ النيابة العامة كانت شرسة جداً. كانت تهاجم بكل ما تملك... تم تشريح الجثة، ووجدوا عنصر الزرنيخ في جسدها. كانت هذه ورقة رابحة بالنسبة إلينا، لكن النيابة كان لها ردها الخاص. أخبرت القاضي بأن الزرنيخ عنصر موجود في الأرض التي عثروا فيها على جثة شقيقتي. فثمة بئر قريبة تندفع منها مياه تحتوي على عنصر الزرنيخ، ويمكن الجسد أن يمتصه من الأرض. وأيد هذه الفكرة الطبيب الشرعي. مع شهادة زملائها في العمل: أنها كانت جريئة، ولا تخشى شيئاً، وتلقت مرتين تهديداً من الإرهابيين، تدعَّمت لدى القاضي فكرة أنها اختُطفت من طرف الإرهاب وأخذوها إلى الجبل، ثم هربت. لكنها لم تستطع أن تخرج من الغابة لكثافتها وكبرها، وماتت من الجوع... إلا أن العجوز الشمطاء، كان لها رأي آخر. كانت تراقب كل شيء من ذلك الكرسي المتحرك. مشلولة، لكن عينيها لم تكونا مشلولتين...

ـ وما كان رأيها؟

ـ أخبرتني بأن مريم قُتلت.

ـ ومن قتلها؟

ـ لم تُرد أن تخبر أحداً.

ـ هل كانت تقصد حقاً ما قالته، أم كان مجرد كلام؟

ـ أعرف أنها كانت صادقة، وأشعر بذلك.

ـ وهل تشاركينها في الرأي؟

ـ لا أدري... ليس لدي دليل أستند إليه. لم أعرف مريم إلا مدة ستة شهور. لا أعرف علاقاتها، أو حتى طريقة تفكيرها، أو كيف تتصرف. لهذا، لا أستطيع أن أحكم على الأمر...

ـ لكنك تميلين إلى رأي تلك «العجوز الشمطاء». أليس كذلك؟

ـ نعم. . . إني أشعر بهذا... ربما هو الحدس.

ـ أو التشابه بين التوأمين؟

زفرت نسرين، وقالت:

ـ نعم.

ـ أنت لا تصدقين أن أختك جريئة، برغم أنك لا تعرفينها؟

ـ نعم، إني أشعر بأنها تشبهني، وعنصر الجرأة مفقود عندي.

ـ تقصدين عندكما؟

ـ نعم.

التمعت في هذه الأثناء، عيناه ببريق، ومال إلى الأمام، وقال لها بحماسة كبيرة.

ـ لنحاول أن نستفيد من الوراثة بحكم أنكما توأمان. فكري معي: ما الذي حملها إلى الغابة؟

ـ لم تذهب إلى هناك.

ـ إذاً، أحدهم حملها؟

بدت نسرين من جديد، غير مركزة على أسئلته، وأخذت تتحدث من تلقاء نفسها.

ـ إنّي أخاف الغابات كثيراً، والأماكن المغطاة بالأشجار.

ـ يعني أنها هي أيضاً تخاف؟

ـ إني أشعر بذلك.

لاح له بريق أمل ضئيل: أن يعيد طرح سؤاله السابق:

ـ هل تعرفين من يُحتمل أن يكون حملها إلى الغابة، ورماها هناك؟

ـ لا أدري...

ـ لنعد إلى آخر يوم قبل وفاة شقيقتك... هل تتذكرين؟

ـ كانت تعاني نزلة. . . أجل، أتذكر أنها قضت ساعة تبحث عن الدواء في صيدلية المنزل... الجميع خرج للنزهة... ثم، أحدهم عاد... كنتُ في الطابق الثاني عندما سمعتُ جدالاً عنيفاً...

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ نزلتُ ببطء إلى الطابق الأرضي... كان الصوت يبدو واضحاً... ثم توقف فجأة. وعندما وصلتُ رأيتُ...

ـ ماذا رأيتِ ؟

شدت بقوة على رأسها، وأخذت تصيح بقوة: المخادع، اللعين...

دنا منها الطبيب. شعر بأن نبضات قلبها تتسارع، فقال لها: اهدئي، سأعدّ إلى ثلاثة. عندما أقول واحد ستبدئين بالاستيقاظ؛ وعندما أقول اثنان، ستبدئين بالاستيقاظ أكثر؛ وعندما أصل إلى ثلاثة، تستيقظين، وتكونين هادئة... واحد، اثنان، ثلاثة.

فتحت نسرين عينيها، وحدقت النظر في أمين، ثم التفتت إلى اليمين تبحث عن حقيبتها. وما إن رأتها، حتى انتشلتها وحملتها بسرعة، وخرجت من العيادة مهرولة، بدون أن تضيف كلمة.

خرجت ليلية في هذه الأثناء، من الخزانة التي كانت إلى جانب الكنبة، وكانت تختبئ فيها. أعادت ترتيب هندامها، ومسحت الغبار الذي غطى ملابسها، وقالت لأمين وهو يهم بنزع مئزره:

ـ شكراً، أعتقد أني عرفت الكثير.

بدا الطبيب مذهولاً. أومأ برأسه وقال:

ـ عالم للمجانين! أضاعتْ مني المؤتمر، ثم في النهاية تهرول كالمجنونة... يا له من عالم للمجانين!

لم تراع ليلية ثورته، بل بمجرد أن نفضت عنها غبار الخزانة الكريهة، حملت جسدها، وانطلقت خارج العيادة.

نزلت سلم البناية مسرعة، ملتهمة بقفزتها أربع درجات في آن واحد. كان عليها أن تجدها، وألا تضيع أثرها. وعندما وصلت إلى الشارع لاهثة، انتصبت تبحث عنها في ذلك الحشد، لكنها لم تكن هناك. الناس يزحفون بمختلف أشكالهم على الرصيف، ولا أثر لها بينهم. لكن، عندما التفتت يساراً، رأت قميصها البنفسجي. كانت تجتاز الطريق إلى الضفة الأخرى، فأسرعت راكضة نحوها، وأخذت تدفع الناس حتى تجد ممراً بين تلك الصفوف المتراصة التي كانت تنتقل عبر الأرصفة، كأنها كتلة واحدة.

وصلت إليها عندما همت بأن تركب سيارتها. أمسكت باب السيارة، وأخذت تلهث بقوة. طلبت منها أن تمهلها دقيقة تسترجع فيها أنفاسها، وعندما أصبح في مقدورها الكلام، استقامت، وأصبح وجهها، يقابل نسرين، التي صاحت مندهشة:

ـ هذه أنتِ... إنكِ حقاً امرأة طفيلية! هل ستلاحقينني في كل مكان؟ ألا يكفي فضولك الزائد في الطائرة؟

كانت ليلية المرأة نفسها التي كانت تجلس إلى جانب نسرين في الطائرة التي كانت قادمة من تونس. لم تمهلها أن تكمل كلامها، عاجلتها بصوت واثق النبرات: أرجوك دعيني أشرح لك.

ـ ماذا ستشرحين لي. هل هي صدفة أنك الآن أمامي؟

ـ لقد كنتُ في عيادة الطبيب أمين موسى، وقد جعلني أسمع كل شيء... أجل، لقد سمعت كل ما قلته في التنويم المغناطيسي...

هالها أن تسمع هذا، لكنها أمسكت أعصابها، وقالت في سرها: ربما رأتني خارجة من عيادته فقط، عليّ ألا أتسرع وأفضح نفسي.

استغلت ليلية هذه اللحظة التي خلدت فيها نسرين إلى التفكير، لتقول بصوت هادئ:

ـ ثمة أمر. . . ربما لم تحاولي إيضاحه سهواً منك، أو أنك قصدت أن يبقى مستوراً لما يحويه من أمور خطيرة.

انتفضت نسرين من تفكيرها، ووقفت أمام محدثتها، بوجهها المتجعد بعبوس وخوف، وسألتها بتردد وتلعثم واضحين:

ـ وما هو هذا الأمر؟

شعرت بأن الأمور تتطور، وأن الحديث يمتد، ويتشعب بدون أن تستطيع أن تتحكم فيه.

أطلقت ليلية جملتها بكثير من الشك:

ـ إنكِ تعرفين أكثر مني...

جعلتها نبرتها المفاجئة، تستحضر جميع حذرها، وأجابت وهي تتظاهر بأنها لا تفقه شيئاً من حديثها:

ـ لا أستطيع أن أخمن بما تفكرين فيه.

انطلقت ليلية توضح الفكرة أكثر: أعلم بأنني لست شقيقتك التوأم... لكني أعرف أنك لو فكرت قليلاً لعرفته.

أيقنت عند هذه الجملة، أن الأمر لا يعدو مجرد كونها فضولية تلاحقها. لقد كانت حقاً في عيادة الطبيب أمين موسى، وقالت لها بصوت مضطرب، وهي تمرر منديلاً أبيض على جبهتها:

ـ لا أدري، لقد نسيت كل ما جرى لي...

قاطعتها ليلية، قبل أن تكمل كلامها، وهي واثقة من أن نسرين لم تنسى.

ـ لا ، ذلك الأمر لم تنسيه، والدليل أنك تبكين كلما تتذكرينه... وأنا أعتقد بعد جلسة التنويم التي أجراها لك الطبيب أمين، أنك استرجعت الذاكرة... أو على الأقل عادت إليك تلك الذكرى التي كانت مغشاة.

باغتتها ليلية بدون أن تتوقع، ولم تجد ما تقوله إلا :

ـ إذاً، أنت تعرفين ما هو الشيء الذي يُبكيني؟

رفعت ليلية كتفيها، وقالت بدون أن تبدي استعداداً لقول المزيد:

ـ لنقل بدأت معالمه تتضح.

ـ أخبريني إذاً؟

ـ سأخبرك بشرط أن تدعيني أساعدك.

تريثت قليلاً قبل أن تجيب، ثم قالت:

ـ حسناً، يمكنك أن تبدئي...

ـ سيدتي، أنتِ لم تقلقك وفاة أختك، وليست السبب الذي يبكيك، لأنك في جلسة التنويم، تحدثتِ عن وفاتها بدون أن تذرفي دمعة. المشكلة في الرقم عشرة... والعينين اللتين لم تكونا مشلولتين...

اتسعت عينا نسرين فجأة، وتشنج وجهها:

ـ لم أفهم... ما هذا الهراء!

ـ بلى، سيدتي، أنت لم توضحي للطبيب ما معنى الرقم عشرة؟ ولماذا نظرت إليك العجوز الشمطاء بعينيها الجاسوسيتين يوم التعزية؟

انبسط وجهها، برغم أن علامات الخوف الشديد، كانت بادية على ملامحها.

ـ لأنه لم يسألني... وأعتقد أن الأمر كله تافه، ولم يكن يستدعي الذهاب إلى طبيب نفسي... وهمّت بأن تركب في سيارتها، إلا أن جملة مثيرة أطلقتها ليلية جعلتها تجمد في مكانها:

ـ لا، لأن كلا الأمرين له علاقة بجريمة القتل...

رمت ليلية جملتها كالطُّعم، كان حقاً طُعماً جيداً!

فنسرين لم تستطع أن تتحرك إنشاً واحداً بعدما سمعته، واستغلت ليلية هذه الفترة، وأخذت تتحدث:

ـ الآن، بعد أن انتعشت ذاكرتك، أنت تعرفين ما معنى نظرات العجوز الشمطاء... ربما نظرات اتهام؟ أو نظرات توحي بأنها تعرف أنك شريكة ما...

ـ لا، بل نذير الموت.

قالت هذا تراخت على كرسي سيارتها، وأخذت تبكي، وقالت بصوت متهدج:

ـ لقد تربيت مع جدتي بعيدة عن شقيقتي التوأم في العاصمة، لكن جدتي كانت تطلعني على أخبارها يومياً، ولاحظت جدتي أن أي شيء يحدث معها أو معي، يحدث مع إحدانا بعد عشر سنوات... عندما كنا في السادسة من العمر، مرضت مريم بالأنفلونزا، ولما بلغتُ السادسة عشرة مرضتُ بالمرض ذاته. ولما كنتُ في السابعة، صدمتني سيارة، وتكسر عظم ساقي، ولما بلغت مريم سن السابعة عشرة صدمتها سيارة، وأصابتها الإصابة ذاتها... وغيرهما من الأحداث التي حدثت معي أو معها بعد عشر سنوات... إني لا أؤمن بهذا الهراء! ولست متيقنة من أن لنا قَدَراً

مشتركاً... لكن جدتي كانت تكرر على مسمعي دائماً هذا الاشتراك المصيري. الآن بعد أن قتلت أختي في ١٠ آذار/ مارس ١٩٩٥، ونحن الآن في ٦ آذار/مارس ٢٠٠٥، أعرف أن الأمر يبدو هراءً، وأقرب إلى الخيال من الواقع، لكني أعتقد أنك فهمتني؟ أعلم بأن الموت بيد الله، لكن ربما الله جعل هذه الخاصية المشتركة بين مريم وبيني... لا أدري، لكني خائفة كثيراً.

كانت نسرين قد غرقت كثيراً في الغمغمات، إلا أنها كانت تتكلم بالرموز أكثر من كلمات واضحة، لكن ليلية فهمت كل شيء، وعرفت ما يرعب هذه السيدة.

أغمدت نسرين وجهها بين يديها، وقالت والعبرات تخنق صوتها:

ـ إني أبدو سخيفة...

بقيت ليلية للحظة تجمع أفكارها، ثم قالت لها:

ـ إذاً، بوصول تاريخ ١٠ آذار/مارس يكون قد مرت عشر سنوات على وفاة... أقصد مقتل شقيقتك... وهذا يعني أنك ستُقتلين في يوم العاشر من هذا الشهر.

أومأت برأسها، وشعرت بأن هذه المرأة، برغم ملامح

الجدية التي تغطي وجهها، إلا أنها تسخر منها في قرارة نفسها.

ـ بقي شيء مبهم في قصتك؟

ارتعش صوتها قليلاً وهي تقول:

ـ أعتقد أنها كلها مبهمة.

ـ هل نسيانك هذا الأمر يعود إلى ما قاله الطبيب... أعتقد «طريقة الجسم في الدافع أم. . .».

ـ لا أتذكر جيداً. لكني بعد وفاة مريم، كان من الصعب عليّ نسيان الأمر... وأخذتُ أتناول القهوة بكثرة، بل إنني أكثرت منها حدَّ الإدمان عليها، ودخلت مركز مصح عقلي. . . لا أدري... إني لا أتذكر جيداً...

رفعت ليلية حاجبيها، وقالت: القهوة! هذا مثير... لكن كائناً ما كان نوع المخدرات التي كنتِ تتعاطينها، لم تحذف من عقلك الحقائق، بل انسدلت على الذكريات كضباب قاتم، بدليل أن انطباعها بقي حياً..

رفعت عينيها فجأة إليها، ثم قالت بصوت مضطرب:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أنك تعرفين عن وفاة شقيقتك أكثر مما صرحتِ به، لكن في داخلك عدم تقبل. إنك لا تريدين تقبل تلك الفكرة التي تراود ذهنك. وبرغم هذا، أنت تملكين الدليل الذي يجعلك مجبرة على التقبل... ربما هذا الصراع الذي تحدث عنه الطبيب.

أشاحت نسرين بوجهها، وقالت لها بصوت هادئ، لكنه مضطرب:

ـ لا أعرف شيئاً... لقد أخبرتك أني عشت مع شقيقتي ستة أشهر فقط قبل أن تُقتل.

ـ لكن ستة أشهر يا سيدتي مدة طويلة، وطوال هذا المدة تحدث أحداث كثيرة... ألستِ من رأيي...

سكتت سكتة ذات مغزى.

ـ يبدو أنك ذكية كثيراً...

ترنحت إلى الوراء، وأخرجت مقصاً من «تابلو» السيارة، وأشهرته في وجهها، وقالت والمقص يرتجف بين يديها:

ـ هل تظنين أنني غبية إلى هذه الدرجة: شخص يأتي ويلحّ عليك كي يساعدك... هذه الأمور لا تحدث إلا في

الجنة. أما هنا، فوق الأرض، فيجب أن تكون دائماً مقرونة بنية سيئة... هيا، من أنتِ؟ تكلمي... لص يترصد بفريسة حمقاء؟

بقيت ليلية هادئة، ضابطة مشاعرها، وقالت بصوت واثق النبرات:

ـ لم أرد أن أُقحم هويتي في الموضوع، لكن بما أن الأمور تطورت إلى هذا الحد، فإني أرى داعياً إلى تقديم بطاقتي إليك.

همّت بأن ترمي يدها اليمنى في جيب معطفها الداخلي، لكن نسرين صرخت في وجهها، وقالت لها:

ـ إياك أن تحاولي خداعي، إني أعرف ألاعيبكم.

ـ حسناً... سأقدم نفسي شفوياً، وعليك في هذه الحالة تصديقي... أنا ليلية أسعد، قاضية التحقيق.

قهقهت نسرين لسماع ما قالته، ثم قالت وهي ترسل ابتسامة ساخرة:

ـ وهل أنا مجبرة على تصديقك؟

ـ لا... لا يبقى لك إلا أن تطعنيني بالمقص.

أربكتها جرأتها، ارتجف المقص في يديها، وكاد يسقط، ثم سألتها بارتياب:

ـ ألست خائفة من الموت؟

ـ ومن لا يخشى الموت... لكنه إن أتى، فلا أستطيع تأخيره أو تغييره.

«إني أخاف الموت. لا أريد أن أموت، لكنك أنتِ التي ركضت إليه»... وتراخت على كرسي السيارة.

دنت منها ليلية، وطلبت منها أن تعيد المقص إلى مكانه، واستجابت نسرين.

عندها قالت في محاولة لكسب ثقتها:

ـ حسناً، يبدو أنك لا تثقين بي، لكن القدر وضعني بقوة أمامك، وليس لديك خيار آخر. لقد أخبرتني بالكثير... وسأبوح لك بما أعرفه عن القضية.

رفعت عينيها إليها، وتسربت إلى أنفها رائحة عطرها ذي الذوق الرفيع:

ـ ماذا تعرفين؟

جاء هذه المرة صوتها مفعماً بالتوسل:

ـ الحقيقة أنني كنتُ قاضية بسيطة في المحكمة قبل أن أُعيَّن قاضية التحقيق، وقد سمعتُ بقضية شقيقتك، وأدهشني دفاع النيابة العامة حول نقطة الزرنيخ... عندما قالوا إنه يمكن الجسد أن يمتص الزرنيخ من الأرض، وبما أن شقيقتك وُجدت جثة نصف متعفنة ملقاة في الغابة فوق أرض تحتوي على نسبة معتبرة من الزرنيخ، أصبحت الفرضية تنطبق مع حالة شقيقتك. . . لكن مثلما يمكن الجسد أن يمتص الزرنيخ من الأرض، يمكن أن يكون الجسد مسموماً بالزرنيخ أيضاً، وألقي في الغابة... لكن القاضي أخذ بالرأي الأول، للأدلة الثانوية التي دعمت هذه الفرضية، لكني أراها أدلة قابلة للنقض. ليس لكون الشخص إعلامياً، يُربط موته دائماً بالإرهابيين. ألا يمكن الإعلاميين أن يموتوا ميتة طبيعية، أو مقتوليين من أشخاص آخرين غير الإرهابيين؟ إني أتفهم العقلية التي كانت منتشرة آنذاك. لقد استهدف الإرهابيون الكثير من الإعلاميين، حتى أصبحنا عندما نسمع بموت صحافي أو مذيع أو ناشط... نقول: ضحية أخرى للإرهابيين... أنا آسف، لقد أسهبت في عرض نظريتي. كما قلت لك، إن كان للرأي الأول أدلة، فحتى الرأي الثاني، له أدلة أيضاً.

نظرت إليها وبدت غير واثقة:

ـ وما هي في رأيك؟

ـ أنتِ... لقد اعتمدوا لإثبات الرأي الأول على الجرأة، وأنتِ في حكم كونها شقيقتك التوأم، دحضتِ هذا الدليل... بقيت لنا أشياء أخرى: من هو القاتل؟ وما هو الدافع؟

همّت نسرين بأن تقول شيئاً، لكنها قاطعتها:

ـ أريد مساعدتك، ثقي بي...

مطّت شفتيها، وقالت: حسناً، ما هو المطلوب مني؟

ـ سأذهب الآن، لأتحقق من شيء... ثم نلتقي مساءً، في مقهى «الأروقة الطويلة» في حيدرا... سأُحضر معي صديقاً قد يفيدنا في شيء، سأعطيك رقم هاتفي.

٢

طَرَقَت طرقات عدة على الباب، وجاء بعد مهلة صوت كأنه خارج من كهف عميق.

ـ ادخل.

دخلت ليلية مكتب القاضي عبد مجيد. كان رجلاً كامل الأوصاف: الأنف المستقيم، الخط المتصدع في فكه، والجبهة الناصعة البياض.

لم تكن الملفات في الخزائن التي وصلت إلى حد السقف فقط، بل تكدَّست على الكراسي وسطح المكتب، وحتى على الأرض... وبرغم ذلك لم تكن في حالة الفوضى. وكانت تظهر من وراء الملفات «صلعة» رأسه الناصعة البياض

قال القاضي عبد المجيد، بدون أن يرفع رأسه:

ـ الوقت غير مناسب.

ـ أعرف جيداً أنه وقت غير مناسب، لكن الأمر الذي جئتك من أجله مهم كثيراً، ولا أعتقد أن غيرك سيساعدني فيه.

رفع القاضي رأسه، ونظر بمرارة إلى ليلية وقال لها بضجر:

ـ وما هذا الأمر؟ أرجو أن يكون مهماً بقدر الوصف...

«أريد معلومات عن وفاة مريم غزلان... تلك الصحافية

التي غدرت بها أيدي الإرهابيين». . . ثم رفع والداها دعوى طلبوا فيها إجراء تحقيق رسمي...

ـ آآآه... تذكرت، كانت قضية صعبة، أعتقد أنها كانت في العام ١٩٩٧، أو أقل بقليل.

أسرعت ليلية تصحح له التاريخ.

ـ في ١٩٩٥.

ـ بالتأكيد... ما زلتُ أتذكرها... أتدرين بعد هذه السنوات الطويلة، أدركت أن كلا الطرفين، كان يصر لمجرد الإصرار على رأيه، بدون أن تهمهما معرفة الحقيقة... على كل حال، لقد مرت سنوات طويلة، وأصبحت كلمة الإرهاب كالذكريات المنسية... لكن، ما الذي جعلك تتذكرين هذا الأمر الآن؟

ـ إن الأمور مبعثرة قليلاً... لكن، أعلم بأنك ستستطيع في النهاية ربط الأمور، وستتضح لك الصورة منطقية أكثر بدلاً من أن أرويها لك كاملة...

ـ تبدو الأمور منذ البداية معقدة، أرجو أن يستحق الأمر كل هذا الوقت الذي أضيعه.

ـ ثمة جريمة ستقع.

زفر القاضي بعدما خاب ظنه:

ـ بلاغ كالعادة... لا تقولي لي إن عجوزاً رأت شاباً يتسلق ليلاً إلى المنزل المجاور، ففكرت في أنه أتى كي يقتلها. وفي النهاية، يتبين أنه أضاع مفاتيح منزله... لقد سئمت هذه البلاغات المزعجة.

ترددت ليلية قليلاً وقالت بتلعثم:

ـ ليس الأمر كما تصورته الآن.

ـ كيف إذاً؟

ـ الشعور الذي نسميه اليقين...

ـ أكيد أنها سيدة زارت عرافة، وأخبرتها بأنها ستموت في ساعة كذا، وفي المكان كذا... كنت أظن أن هذه الخرافات زالت منذ الاستقلال، لكن يبدو أن النساء يحببن التكهن... لقد شعرت منذ البداية بأن الأمر تافه جداً...

غرق مجدداً في ملفاته، ولم يجبها ثانية.

خرجت ليلية خائبة من مكتب القاضي، وهي التي كانت

تعوّل عليه. شعرت بأن حجراً كبيراً يقف أمامها. زفرت طويلاً، ثم جالت ببصرها الكئيب في زوايا المحكمة، وخرجت منها ضائقة النَّفَس، مرهقة السريرة.

* * *

ذهبت نسرين في المساء، إلى الموعد. كان الجو لطيفاً. النسمات تلف المكان، كأنها مروحة أميرة. جلست متجهمة، إلى إحدى الطاولات، إلى جانب حاجز يُطل على حي عتيق.

كانت تنتظر تلك المرأة التي التقت بها صباحاً. في باطنها يتنامى إحساس بالندم: كيف سمحت لنفسها بأن تخبرها بجميع أسرارها؟ كيف فتحت لها أبوابها المغلقة؟ وأفاقت من سرحانها عندما لمحتها من بعيد قادمة تدخل المقهى، وأخذت تبحث عنها بين الوجوه الموجودة في المقهى، وأشارت إليها بيدها، فرأتها.

لم تستطع نسرين عندما اقتربت من الطاولة، أن تغض نظرها عن الأناقة التي كانت تبدو فيها ليلية: كانت ترتدي تنورة قصيرة من القطن الأبيض الرفيع، مع حذاء صيفي من الساتان الواقي من المطر، وقرطين من الفضة. وعندما

جلست إلى الطاولة، زفرت نسرين عندما رأت أن لا أحد كان يرافقها. سألتها غير محاولة إخفاء خيبتها بنبرة باردة:

ـ لقد أخبرتني أنك ستأتين برفقة شخص آخر...

ـ لا أدري كيف سأخبرك؟ لكن، حاولت إقناع القاضي الذي تولى قضية شقيقتك بالحضور، لعله يفيدنا بشيء، لكن...

قاطعتها نسرين، قبل أن تكمل جملتها، وأكملتها في مكانها بنبرة تعبر بقوة عن يأسها:

ـ سخر منك... أليس كذلك؟

شعرت بهذه الكلمات وهي تمر في حنجرتها كالسيف الحاد.

ـ أنا آسفة...

جاء النادل، قبل أن تكمل كلامها، ليسأل السيدتين إن أرادتا شرب شيء. طلبت نسرين الشاي برغم حرارة الجو. ابتعد بعد ذلك تاركاً إياهما رأساً لرأس.

بقيت ليلية تنظر إليها لوهلة. كانت نسرين شاحبة مثل الشمس، وأصابع يديها ترتجف على ركبتيها. عندما أحضر

النادل فنجان الشاي المغلي، حضنته بقوة بين أصابعها، كأنها تريد تدفئة جسدها البارد والمرتجف. كانت أسنانها تصطك من تأثير الصدمة، وتبدو ملتصقة بفنجانها كأنه «طاقية» النجاة.

رفعت نسرين عينيها نحو ليلية، فقرأت فيهما حزناً كبيراً ويأساً عظيماً. انزلقت دمعة كبيرة على طول وجنتها اليمنى. كانت ليلية ستقدم إليها منديلاً، ولم تعرف كيف تتصرف في مثل هذه المواقف، عندما أخذت نسرين المنديل الورقي من على الطاولة كي تمسح الأثر الندي على وجهها.

ـ أنا آسفة...

بقيت نسرين للحظات صامتة، عيناها مطأطئتان على فنجانها كأنها تريد سحب القوة التي تفتقدها. وعندما رفعت عينيها من جديد نحو ليلية، كانت تبدو أنها سيطرت على مشاعرها، بالقدر الكافي لتتحدث إليها بدون أن ترتجف.

ـ لربما التكنولوجيا الحديثة وهذا الزخم من العلوم والتطور، لم يستطيعا أن يثبتا مدى مصداقية الحدس، والقدر المشترك بين توأمين... لكن، ربما إلى أن يصل العلم إلى ذلك، سيكون قد تخلص مني...

ـ سيكون قد تخلص منك؟ إذاً. أنتِ تعرفين من هو!

ضربت نسرين بقوة على الطاولة، فاهتز فنجان الشاي، وتسرّب بعضه على الغطاء الوردي للطاولة. وبعدما استرجعت هدوءها، قالت والدموع تخنق مخارج الحروف من فمها:

ـ لا أدري... لا أريد تصديق ذلك... لكن الأمر يسير نحوه... كل الأدلة تشير إليه بصوت صارخ... أتفهمين؟

ـ ومن هذا؟

رفعت نسرين يدها إلى السماء، كأنها ستمسك شيئاً، ثم سقطت أصابعها بإعياء على الطاولة، ونبست بصوت منخفض مستسلم:

ـ لا أعرف!

نهضت من مكانها، ودنت من الحاجز المطل على حي قديم. رأت بعض الصِّبْية يلعبون الكرة. بقيت تحدق فيهم بعض الوقت. لم تشأ ليلية أن تقاطع خلوتها مع نفسها، وظلت تنظر إلى سطح الطاولة، تعيد ترتيب جميع المعلومات التي في حوزتها: «المحكمة قضت بأن

الإرهابيين هم الذين قضوا عليها، لكن عائلتها أصرت على أنها قُتلت من طرف شخص آخر. كل واحد أصر على رأيه، لكن ماذا جرى في الواقع؟ هل اختطفها حقاً الإرهابيون؟ يبدو هذا الأمر قابلاً للتصديق: فهي كانت صحافية، والجماعات الإرهابية كانت تقتل في تلك الفترة الساخنة الصحافيين. لكن، ماذا لو أراد شخص ما أن تظهر هذه الصورة في هذه اللوحة؟ يقتلها بالزرنيخ، ثم يرميها في الجبل. فإن عثر عليها الجيش أثناء التمشيط، فسيظهر الأمر كأنها ضحية من ضحايا الإرهابيين. لكن، من هو هذا الشخص؟ أو بالأحرى، لماذا هذه المخاطرة كلها؟ تلك الفترة هي أشد فترة حرجة وقسوة عاشتها الجزائر. أمن أجل أن يتخلص من جثة امرأة يصعد إلى الجبل؟ ألم يكن يخشى أن يقع في قبضة الإرهابيين ويفتكوا به؟

رفعت ليلية رأسها، وحكّت ذقنها مطولاً، ثم قالت في سرها: «يبدو الأمر معقداً أكثر مما يظهر سطحياً. لكن برغم هذا، ثمة أمور كثيرة مثيرة تحتاج إلى التأمل قليلاً».

عادت نسرين، في هذه الأثناء، وجلست على الكرسي، وحركت بلا مبالاة ملعقتها في فنجان الشاي، وقالت بصوت مشوش وهي مترددة:

ـ في العاشر من آذار/ مارس، أي بعد أربعة أيام، سيتحدد مصيري.

ـ هل تشكّين في شخص قد يُقدم على قتلك؟

صمتت. شعرت بأن كيانها كله يعتصر، ثم قالت كأنها لا توجه الكلام إلى أحد:

ـ لديّ طفلان، جمال، وعدنان، سأشتاق إليهما كثيراً.

ثم أخذت تبكي. نهضت مسرعة إلى الحمام، بينما بقيت ليلية جالسة على الكرسي، تنقر بأصابعها على الطاولة، ثم طأطأت رأسها.

عندما عادت نسرين إلى منزلها، جلست على الكرسي، ودنت من المرآة التي كان يضيئها مصباح صغير إلى جانبها، أبيض اللون، وبقيت تحدق في تقاطيع وجهها: العينين الكبيرتين، وأهدابهما الطويلة. هل ستستمر الكذبة طويلاً؟ بقي هذا السؤال ينخر دماغها، وهي تتطلع إلى وجهها، ومررت المشط على شعرها، فانزلق على ظهرها. وتحت الضوء الأبيض، بدا أكثر لمعاناً، وبدت ملامحها أكثر طفولية، وأخذت تحدث نفسها: إلى متى سأستمر في هذه

الكذبة؟ يا إلهي، أريد أن تنير لي دربي، لأنني لا أريد أن أواصل هذه التمثيلية السخيفة.

دخلت ليلى، في هذه الأثناء، بخطوات هادئة، وضعت كأس العصير أمام الطاولة قرب نسرين، وقالت لها:

ـ يا عزيزتي، لم تأكلي شيئاً منذ الصباح، وتبدين شاردة... هل حدث شيء؟ إن عودتك السريعة من تونس، أقلقت الجميع. العجوز ياسمين قلقة بشأنك. وإن رفضت أن تحدثك في الأمر، فذلك لأنك ذات طبع عنفي... ماذا حدث يا نسرين، لقد تغيرت طباعك؟

ارتجفت نسرين، وهالها الاهتمام الكبير بها، وأجابت مغيرة الموضوع، وهي تلون شفتيها بقلم أحمر:

ـ آه، أنتِ تعرفين أنني وجدتي لم نكن يوماً على وفاق. وإن كانت أموري مضطربة، فذلك بسبب ولديّ، إنهما في تونس، والأمر الذي يغضبني عدلان الذي لم يعد بعدُ، لا أدري ماذا يفعل في تمنراست؟

تأملتها ليلى بدقة، ثم سألتها:

ـ أمن أجل هذا أنت قلقة؟

وأكملت جملتها بنبرة ذات مغزى...

أشاحت نسرين عينيها عنها، تبحث عن غطاء أحمر الشفة، ثم قالت وهي تنظر إليها من خلال المرآة:

ـ نعم، ألا ترين معي أنها أمور مقلقة. ثم، هل ترين أن ثمة شيئاً آخر؟

شعرت ليلى بالحرج، فهوَّنت عليها وقالت بلهجة الخاطئ:

ـ لا أدري، لكني اعتقدت أنه بحلول السنة العاشرة لوفاة شقيقتك... تشعرين بكآبة. ألا تلاحظين نفسك يا مريم. إنك تبكين دائماً... أقصد... أعلم بأنك لم تعيشي مع أختك إلا ستة أشهر فقط، لكنها شقيقتك التوأم، إنها أنت.

أشاحت ببصرها عنها للحظة، وقالت لها، ونبرة حزينة تغلف وجهها:

ـ ربما، لكن الآن، أعرف سبب بكائي... أعرف حقيقة ما يدفع دموعي إلى السيلان. لقد ذهبت إلي طبيب نفسي، أتسمعين يا ليلى؟ لقد قمت بهذه الخطوة. أجل فعلتها.

أرجو ألا تخبري زوجك أو جدتي، ولا حتى مونية وزوجها.

ابتسمت ليلى ابتسامة باهتة يشوبها ارتباك كبير:

ـ يا إلهي... لو علمت العجوز ياسمين! ماذا أخبرك؟

قفزت نسرين من كرسيها، وأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وهي تتحدث بحماسة كبيرة:

ـ أشياء كثيرة، أمور كانت تسبح في منطقة اللاوعي من عقلي، وعادت لتسبح من جديد في منطقة الوعي... أتفهمين... إنني حائرة... بل أشبه بمن أضاع جواز سفره في بلد لا يعرف لغة شعبه.

ـ أخبريني يا عزيزتي، فربما أمكنني أن أساعدك.

تريثت قليلاً قبل أن تتحدث، وعادت تجلس على الكرسي، ثم رفعت رأسها نحو ليلى، فالتمعت عيناها تحت ضوء المصباح.

ـ لا أدري كيف سأخبرك، لكن ربما سأموت قريباً.

قفزت ليلى من مكانها فجأة، فأمسكت بيديها نسرين، وقالت لها:

ـ عديني إن حدث لي شيء، بأن تعتني بطفليَّ.

ـ هل... هل... أنت مصابة بمرض قاتل يا عزيزتي؟

ـ ليته كان كذلك... لكن...

تريثت قليلاً، ثم تابعت حديثها وهي ضامّة يديها بعصبية:

ـ لا أدري... كيف سأشرح لك. لكن... ربما... بلى، أنا متأكدة من أنني سأموت يوم العاشر من آذار/مارس... أرجوكِ لا تعلّقي... دعيني أكمل كلامي. إن الأمر متعلق بقاتل شقيقتي، أعتقد أنه سيقتلني أنا أيضاً.

ـ لا تخافي، واطردي عنك هذه الأفكار. إنك تشعرين بهذا التوتر، لأن الذكرى العاشرة لوفاة شقيقتك قريبة... ثم، إن الإرهابيين هم الذين قتلوها، والإرهاب قد ذهب زمنه، ولن يعود، فمن سيقتلك؟

ـ إنك لا تفهمين، أنا متأكدة من أن قاتل شقيقتي شخص عادي، وليس الإرهابيين، سأبوح لك بسر بقي في سري لوقت طويل.

ـ إنك ترعبينني بكلامك...

ـ إن هذا الشخص يعيش معنا.

ارتجفت ليلى، واضطرب صوتها، وقالت لها:

ـ م... ماذا... من هو؟

ـ لا أستطيع أن أخبرك الآن، لكن عليّ أن أبقى متيقظة وحذرة.

ـ لماذا لم تخبري الشرطة، إني لا أفهم شيئاً يا نسرين... لماذا يريد هذا الشخص قتلك؟

ـ لا أستطيع إخبار الشرطة... لا يمكنها عمل شيء.

نهضت من مكانها، ودنت من المدفأة، وأخذت تعبث بالتحف الموجودة فوق سطحها، وشرعت تتحدث بدون أن ترتب أفكارها.

ـ لا أستطيع أن أخبرك بكل شيء، يا عزيزتي. هل شعرت مرة بأنك غير قادرة على اتخاذ قرار حاسم؟ هل انتابك يوماً إحساس بعدم القدرة على تحديد ما يجب فعله؟ هذا ما شعرت به يوم مقتل شقيقتي: وجود أمرين متناقضين، لكن لكليهما أدلة منطقية ومقنعة، ماذا كنتِ ستفعلين لو أنك في مكاني؟

ـ إني لا أفهمك يا نسرين، إن المسألة تتعلق بجريمة قتل، وليس بقرار بسيط.

عادت إلى كرسيها، وتهالكت عليه، وقالت هي تمرر بعصبية يديها على شعرها:

ـ أعلم، والأسوأ أن الأمر يتعلق بمقتل شقيقتي، لكن لا أدري ماذا يجب أن أفعل. إني أشعر بأن إحساسي خاطئ، وفي الوقت ذاته، لقد رأيت كل شيء.

اصفرَّ وجه ليلى، وارتدَّت إلى الوراء، ولم تنتبه إلى الطاولة التي كانت موجودة وراءها، فأوقعت تحفة زجاجية. قفزت على وقع ارتطامها من الرعب، لكن نسرين هدأت توترها، وانحنت تجمع أجزاء التحفة. دخلت مونية، في هذه الأثناء، وهمّت بأن تتحدث، لكنها صمتت عندما رأت ليلى. وتظاهرت بأنها أتت لرؤية نسرين. كانت قد أغلقت الباب وراءها، وتقدمت إلى وسط الحجرة، وقالت متظاهرة بأنها كانت مارة عندما سمعت صوت تحطم شيء، فجاءت لتطمئن إلى أن الأمور بخير.

ـ من المؤسف أن تكسر هذه التحفة الجميلة.

ضغطت على مخارج الحروف كثيراً، عندما قالت هذه

العبارة، حتى تلفت انتباه نسرين، التي كانت منحنية إلى الأسفل تنظف الأرضية.

حدقت فيها ليلى بقسوة، وقالت لها بحدة:

ـ أجل، من المؤسف أن تنكسر، لأن العجوز ياسمين ستضطر إلى صرف مال من أجل شراء تحفة أخرى، وهذا يعني خسارة ونقصاناً في مالها. لكن التحفة لا يمكن إرجاعها إلى الحالة التي كانت عليها، في حين أنك تستطيعين أن تمنعي زوجك من اختلاس المال من خزينة العجوز ياسمين.

أطلقت كلماتها كسهام مسمومة، ثم غادرت الحجرة بدون أن تنتظر تعليقاً منها.

بقيت مونية جامدة في مكانها، وقد آلمها كلام ليلى، ولم تتدخل نسرين لأنها لم تسمع حديثهما. وعندما تخلصت من حطام التحفة، استدارت إلى مونية، وقالت لها:

ـ ما الذي أتى بك؟

ـ لقد جئت أخبرك بأن عدلان اتصل قبل قليل، وهو

يخبرك بأنه قادم غداً، وأن الحافلة التي ستقل طفليك إلى هنا، ستتأخر بسبب مشاكل في أحد إطاراتها.

ـ هل طلب التحدث معي؟

ـ عندما عرفتُ صوتَه، أخبرتُه بأنكِ هنا، فقال إنه يريد فقط إخبارنا بأنه سيأتي غداً.

طأطأت نسرين رأسها، ونظرت إلى الأسفل. بدا جلياً عليها وقع ما أخبرتها به مونية. دنت منها، وربتت على كتفها، فنظرت نسرين إلى عيني مونية الصافيتين الصريحتين. كانت تشعر بأنها تحس بآلامها، وتحول حزنها إلى إشفاق على نفسها.

الفصل الرابع

عينا الصقر

١

قضت ليندة النهار كله منهمكة في مساعدة مونية على إعداد الترتيبات اللازمة لاستقبال طفلي نسرين، وزوجها. وفي المساء، سمعت جرس سيدتها، عندما كانت جالسة تتناول شراباً بارداً، فهبت من كرسيها ترتقي السلالم. وفي أقل من نصف دقيقة، عبرت الرواق الطويل الذي ينتهي بغرفة العجوز ياسمين.

قرعت جرس الباب مرتين كالعادة، ثم فتحته، دخلت مسرعة حتى دنت من مكتب العجوز ياسمين. وجدتها متكئة على مكتبها، تعد حزمة من النقود. وما إن رأتها حتى أشارت إلى ثلاث حزم على طاولة رخامية تتوسط أربعة كراسٍ من خشب الجوز، وقالت لها:

ـ افتحي الخزنة يا ليندة، وضعي هذه الحزم في داخلها. لقد عدها سمير.

لم تنتظر ليندة طويلاً حتى تناقش، أو حتى يظهر عليها تعب الصباح، بل أسرعت إلى الحزم، وحملتها، ثم استدارت حول مكتب العجوز ياسمين، وعبرت كرسيها إلى أن وصلت إلى خزانة فولاذية كانت إلى يمين المكتب، وأدارت القرص على واجهة الخزنة، مرات عدة في اتجاهات مختلفة، فانفتحت الخزنة، ليظهر تجويف أسود اللون، في داخله حزم عدة من الأوراق النقدية من مختلف الفئات، تملأ رفَّي الخزنة. دست ليندة بآلية معتادة، الحزمَ، ثم أغلقت الباب، وعادت مسرعة إلى مكانها مقابل الطاولة. توقفت العجوز ياسمين عن العد، ورمت بالحزمة إلى الدرج، ثم دفعته بقوة جعلت ليندة ترتعد وتبلع ريقها بصعوبة.

نظرت العجوز ياسمين إليها، وقد جمدت حدقتاها في وجه ليندة التي كادت تتجمد رعباً. أما منخراها فقد تمددا، وكانا يشبهان تنيناً يستعد لقذف النيران، ثم فتحت شفتيها ببطء، وقالت:

ـ هل يستريح ذلك الخامل في غرفته؟

أومأت ليندة برأسها إيجاباً، وقالت إنه طلب قهوة قبل أن ينام، فضربت العجوز ياسمين بيدها على المكتب: غبي!

الكافيين لن يساعده على النوم، سيتقلب في الفراش كالمريض بالحمى، ثم ينتهي بالعدول عن أخذ غفوة... هذا لا يناسبني إطلاقاً، أريدهم جميعاً يقظين قبل العشاء، فثمة كثير من الأشياء ستتغير بعد اليوم... عدلان، ستتوقف رحلاته الاستكشافية منذ اليوم.

ـ هل أخبرت مونية أن تعشّي طفلَي نسرين، وابنها قبل الموعد. لا أريد إزعاج الأطفال في اجتماعنا اليوم.

ـ أجل، لقد فعلتُ.

ارتخى للحظة وجه العجوز ياسمين، وسرعان ما استعادت ملامحها قسوتها، واسترد صوتها جفافه: هل تناول ذلك الأحمق مروان دواءه؟ لا أريد تعابير الإحباط والخيبة تغلف الجو عند اجتماعنا.

أومأت ليندة بمبالغة، وأضافت: لم أتركه حتى ابتلع دواءه كله، ثم طلب من زوجته أن تحضر له شراباً ساخناً من بعض الأعشاب قبل أن يغفو.

ـ حسناً، هذا جيد! لم يبق إلا تلك الفرس المتعجرفة: نسرين، لكني سأروضها... كما روضت أختها.

ـ ماذا قلتِ أيتها العجوز ياسمين؟

ـ لا شيء، أخبري الجميع أن يسبقوني إلى صالة الاستقبال.

بقيت ليندة، جامدة في مكانها، لوهلة، ولم توقظها إلا صرخة مدوية من العجوز ياسمين، فانتفضت كمن رأى شبحاً. . . وخرجت من الحجرة بسرعة.

* * *

كانت الساعة تشير إلى السابعة إلا الربع، عندما دخلت العجوز غرفة الاستقبال التي كانت مزينة بطقمين من الأرائك الجلدية البنية اللون. كان عدلان بوجهه المتجهم، كأنه طبيب يوشك أن يصدم مريضه بنتائج التحاليل السلبية؛ ومروان على مقعد قرب زوجته يجلس منفرج الساقين وينفش بأصابعه لحية ذقنه المهملة. كان جسمه نحيلاً غير متناسق، ويداه كانتا ذاتي سلاميات بارزة وقبضتين ضخمتين، وحنجرته بارزة في عنقه النحيف. كانت مونية تبدو أمامه نحيلة أكثر من المعتاد، شاحبة مثل الموتى، برغم أنها وضعت مسحوقاً أبيض على وجهها، كي يخفف آثار الاصفرار، إلا أنها بدت أكثر شحوباً، وبدت أنها ستقع على الأرض من فينة إلى أخرى.

حدقت العجوز ياسمين في الجميع بنظرات باردة، ثم قالت بصوت واثق النبرات:

ـ أريد أن أضع بعض النقاط على عدد من الأمور، فأنا أرى المنزل يعمّ في فوضى... بل يغوص في ظلمات...

سكتت سكتة معبّرة، ثم قلبت نظرها من وجه إلى آخر، وتابعت بصوت هادئ كأنها تجس النبض:

ـ حسناً، يبدو أن الجميع موافق على وضع النقاط على الأمور المتشابكة.

قالت ليلى بحدة، وهي تحمل بيدها قطعة من الورق تحجب بها ابتسامتها الساخرة: هل هذا يعني أن «الخزْنة» سُرقت من جديد؟

تريثت العجوز ياسمين قبل أن تجيب، وألقت نظرة خاطفة على مروان، الذي كان يجلس على الكرسي بطريقة غير لائقة.

ـ كل هذا يندرج ضمن ما سأقوله... أظن أن الجميع أصبح يلاحظ كيف أصبح المنزل يعم في فوضى، وحالة من التمرد.

صمتت لوهلة، تنتظر من أحدهم تعليقاً. كانت مونية جالسة إلى جانب زوجها. الارتباك واضح عليها. وبدت كمن تحاول جاهدة الاحتفاظ بالهدوء وبرودة أعصابها.

نظرت إليها العجوز ياسمين. كانت تنتظر منها تعليقاً، لكن مونية ظلت صامتة صمت القبور.

ـ الجميع يرى معي هذه الحالة من اللااستقرار تلف المنزل. أرجو أن تتفهموا أن هذا المنزل له قانون، قانون لن أسمح لأحد بأن يخترقه مهما تكن مكانته... إن هذا القانون هو الذي سيحافظ على أسس عائلتنا. لا أريد اختراقات مثل التي لاحظتها في خلال هذه السنوات الأخيرة.

شددت على الكلمات الأخيرة، لكن أحداً لم يعلق على كلامها. كان عدلان جالساً إلى جانب زوجته، يحدق في العجوز ياسمين بعينيه البنيتين الناعستين. كان يبتسم بدون أن يفهم ما تقول. وبدا له أن ما قالته لا يعدو كونه إلا مقدمة تافهة مملة لأمر رهيب سيأتي قريباً، دفعة واحدة.

وحصل ما تنبأ به عدلان، حيث ضربت العجوز ياسمين بكل قوتها على الطاولة التي كانت قربها، وقالت بصوت حاد:

ـ لن يفعل أحدكم شيئاً قبل أن يأخذ رأيي. كل شيء يحدث في هذا المنزل سيمر عليّ كي أقرر ما إذا كان سينفَّذ أم لا. ومن لا يُرد أن يمتثل لأوامري، فهذا المنزل مُلكي، وأنا السيدة هنا. لا سفر بعد اليوم، إن لم أقرر أنا، ولا مغادرة للمنزل للهيام في الصحاري، إلا إذا أذنتُ لأحدكم... أما بالنسبة إلى بعض التجاوزات التي حدثت هنا، فإن أشحت ببصري عنها فهذا لا يعني أنني راضية عنها، بل أعطي صاحبها فرصة أخرى. فإن أخطأ مرة ثانية، فسيدفع ثمن الغلطتين السابقة والحديثة معاً.

عندما نبست بآخر كلمة، نظرت إلى مروان نظرة جامدة، كانت كافية لتجعل الجميع يفهم أنه هو المقصود بالتلميحات القديمة.

سترت ليلى وجهها، وأطلقت ضحكة ساخرة مكتومة. أما مروان فنهض وقال:

ـ إن وجودي يثير متاعب ومعارضة شديدة. أفضل أن أغادر هذا الاجتماع العائلي... إنه حقاً عائلي، فلا أظن أن وجودي سينفع في شيء.

t.me/ktabpdf

تثاءبت ليلى وقالت: أسمع أصواتاً مزعجة، ربما قاطعة الأعشاب... أرجوك أكملي محاضرتك...

تنفست العجوز ياسمين بعمق، وقالت لمروان بصوت آمر:

ـ اجلس، لم أكمل بعد. أنا آمرك بأن تجلس بدون أن تناقش.

رمى مروان بثقله كله على الأريكة، وأخذ ينظر إلى العجوز ياسمين بتذمر.

كان الجو يتوتر، ويحتد أكثر فأكثر، كأن أحدهم يشحن المكان بكهرباء ذات ضغط عالٍ. العجوز ياسمين لا تهنأ بإحياء موضوع حساس، حتى تحيي غيره. عندما انتهى الاجتماع، خرج الجميع يتراشقون نظرات الحقد والغضب، واعتذر أغلبهم عن تناول العشاء، فوجدت العجوز ياسمين نفسها تتناول العشاء برفقة ممرضتها، ومونية التي كانت تقلب الطعام، بدون أن يضع شيئاً في فمها.

الفصل الخامس

الأحقاد

ـ عزيزتي ليلية!

ما إن لاح لليلية، وجه أخيها من بين الحشود التي كانت تخرج من المطار، حتى هرولت مسرعة إليه. وبرغم كعبها العالي، إلا أنها كانت تسابق الفهد في الصحاري. فلقد مضى عام بكامله قبل أن ترى شقيقها. وما إن وصلت إليه حتى ارتمت بين ذراعيه.

ـ أيتها الطفلة الأنيقة... كيف حالك؟ لم تتغيري.

أجابته بابتسامة منشرحة، وأمارات البهجة والسعادة على وجهها وهي تحدق في شقيقها. كان مهدي شاباً وسيم الملامح، ذا وجه لطيف وعينين بنيتين هادئتين. وكان صوته عندما يتحدث هادئاً ودقيقاً، مع نطق واضح جداً:

ـ لم تتغير يا عزيزي مهدي، كأن الزمان توقف عندك العام الماضي.

ارتبك مهدي قليلاً لهذه الملاحظة، وأدار رأسه إلى بوابة المطار. كان يبدو من نظراته أن ينتظر أحداً.

ـ هل أنت على موعد مع شخص ما؟

أعاد نظره نحو شقيقته، وقال بصوت هادئ:

ـ لقد أتى معي مليك.

اتسعت حدقتا ليلية وفمها في الوقت ذاته، وقالت والدهشة أفقدتها التحكم في نفسها:

ـ هل أتى مليك! يا له من خبر سار. ستفرح كثيراً خالتي فريال... لكنك لم تهاتفني بأنه قادم.

رفع مهدي كتفيه: لقد قرر المجيء معي في اللحظة الأخيرة... ها هو قادم.

ظهر من باب الخروج، شخص طويل القامة ذو أنف مستقيم، وجبهة عريضة وعينين زرقاوين، وكان يجر عربة امتلأت فيها أربع حقائب سفر، وحقيبة تسلق صغيرة، وكيس أسود وضع فوق كومة الحقائب.

ما إن انضم إليهما مليك، حتى سلم على ليلية، وقال لها:

ـ كيف حالك يا ابنة خالتي، ما زلت كما عهدتك، أنيقة كالعادة.

ـ أيها المخادع! لماذا لم تخبرنا أنك قادم.

ابتسم مليك، فظهر طقم أسنان بيضاء خلف تلك الابتسامة الساحرة: ما زلتِ شقية يا ليلية! لا يستطيع أحد أن ينجو منك.

امتد حديثهم حتى عندما ركبوا السيارة، وتشعب. تكلموا على الحياة في إسبانيا. سألتهما ليلية عن الموضة هناك. تحدثوا أيضاً عن متاعب الدنيا، والحنين إلى الوطن، ثم انتقلوا إلى قائمة الأطعمة التي حضرتها خالتهم لهم. أخذت ليلية تحاول جاهدة أن تقنعهما بأن يتناولا الطعام خارجاً، لأن ذلك أفضل مما ينتظرهما في المنزل، لكن مليك أصر على أن يأكل شيئاً من المنزل. فقد كره المطاعم، والطعام الذي يُطبخ فيها بدون طعم... استسلمت ليلية أخيراً، وواصلت السير في الطريق، وقالت همساً بين أسنانها: لقد أُعذر من أنذر!

لم يكن الغذاء كارثياً، كما وصفته ليلية. فالدجاج المحمر، أفضل اسم يُطلق عليه كان مفحماً. وقطع البطاطا

المقلية، كانت أشبه بصمغ، لكن السلطة كانت رائعة. وفي النهاية، اكتفى مليك بتناولها وحدها. وعندما انتهوا، ساعد الجميع الخالة في تنظيف الأواني، وتحضير الشاي.

أول ما قاله مليك عندما رشف من كأسه:

ـ جيد أنني الذي حضرت الشاي، لكان طعمه يشبه كل شيء إلا الشاي.

فتح مهدي بعد قسط من الراحة، الحقائب، وقدم إلى كل واحدة منهما بعض الهدايا. كانت حصة فريال فستاناً من الحرير الذهبي، مع صندال مصنوع من جلد مذهب. أما ليلية فكان نصيبها علوياً بدون ذراعين من القطن الأبيض، وسروالاً عريضاً من القماش ذاته. شكرت كل منهما الشابين... وعند المساء، قرر مهدي الخروج مع مليك للتنزه، وطلبا من خالتهما وليلية أن ترافقهما، فأسرعت الخالة ترتدي ملابسها، بينما اعتذرت ليلية، وأخبرتهما أن ثمة أمراً عليها القيام به.

قال مليك ساخراً، وهو يتجه نحو الباب: أتفهم يا عزيزتي، أنك الآن قاضية التحقيق، كم من مجرم عليك تتبع أثره.

عندما أغلقت ليلية الباب، بقيت لوهلة شاردة: كم من مجرم يجب أن أقتفي أثره... لكن المشكلة: من هو هذا القاتل؟

ثم صعدت إلى غرفتها، مرتقية السلالم بخفة. كانت تبتلع درجتين في خطوة واحدة، ثم دخلت غرفتها. كان المكان هادئاً. ومكتبها الذي ورثته من والدها، كان من خشب القسطل الخشن. كان أبوها أكبر قضاة التحقيق، وأكثرهم شهرة. عرفه ميدانا القضاء والإجرام، وكانت تصله رسائل من بلدان كثيرة تطلب فيها مساعدته على فك رموز أي جريمة محيرة، أو كشف غموضها، ولم يكن يبخل بشيء، بل كان يهب كالفارس، للقضاء على أوكار الجريمة. لكن حادثاً مؤسفاً أخذ حياته... شعرت ليلية بوخز في صدرها، وسارعت دموعها تترقرق في عينيها، فأمسكت بكأس شاي، ورشفت منه. شعرت بعدها بأنها استرجعت وعيها. دنت من المكتبة ذات الرفوف السبعة من خشب البلوط، وأخرجت منها ملفاً أزرق طويلاً، وضعته فوق المكتب، وجلست إلى الطاولة، ووضعت كأس الشاي بعيداً عن الأوراق. كان مكتوباً على الملف الأزرق: «جميع المعلومات عن نسرين غزلان»، كان داخل الملف عدد من

الأوراق محفوظة من مختلف الجرائد والمجلات، وأوراق أخرى مطبوعة من الإنترنت. كانت ليلية، قضت مساء الأمس، تجمع كل ما تستطيع عن نسرين غزلان. فمقابلة البارحة، في مقهى «الأروقة الطويلة»، لم تثمر شيئاً. لم تكن تلك المقالات المختلفة والمتنوعة تحتوي على معلومات قيمة أو مفيدة، بل ملخص حياتها. وُلدت في تلمسان بدون أن يحدد أي مقال أين بالضبط. انتقلت في السن الثالثة للعيش مع جدتها في العاصمة؛ العجوز ياسمين ثرية، التي تملك شركات لاستيراد قطع غيار للشاحنات الكبيرة والمركبات الصناعية، ويقوم بتسيير شركاتها ابن أختها سمير فارس، وهو يقطن في شارع الإخوة خلادي بالعاصمة. تربت وحيدة مع جدتها، وتلقت أحسن تعليم، وواصلت دراستها في معهد الفنون الجميلة، وعملت بالمسرح منذ ذلك الحين... في ١٩٩٤، انتقلت شقيقتها التوأم إلى العاصمة، بعد الترقية التي حصلت عليها، وعملت صحافية محققة في أكبر صحيفة في العاصمة، «الأحداث الساخنة»، وانتقلت إلى العيش مع جدتها.

عُثر على جثة شقيقتها في الجبل، في عملية تمشيط للجيش في تاريخ ٢٣ آذار/مارس ١٩٩٥. كانت الجثة

نصف متعفنة، ورجَّح الطبيب الوفاة في ١٠ آذار/مارس ١٩٩٥، وأغلق الملف ضد الإرهاب.

دخلت مصحاً عقلياً ما بين ١٩٩٥ و١٩٩٧، وجرت إشاعات تقول إنها كانت تتعاطى المخدرات. ثم للحفاظ على سمعتها. أصدرت عائلتها إشاعة غطت على خبر إدمانها، قالوا فيها إنها تعرضت لصدمة قوية لوفاة شقيقتها.

التقت بمخرج مسرحي يدعى عدلان مصباحي في ١٩٩٧، وتزوجت به، ورُزقت بطفلين: عدنان وجمال. وتابعت حياتها كممثلة في المسرح بدون أن يحدث شيء آخر مميز.

تمددت ليلية في كرسيها، وأخذت تراجع ما قرأته، وقالت في سرها: أولاً، مريم غزلان لم تُقتل من قبل الإرهابيين، بل أحدهم جعل الأمر يبدو هكذا. لكن كيف؟

ثانياً، نسرين غزلان تعرف أكثر مما صرحت به. لكن، لماذا تفضل التكتم، بدلاً من إرسال قاتل شقيقتها إلى السجن؟ إلا إذا...

* * *

جلست ندى على كرسيها الوثير المفضل، بثوبها الأحمر المزركش. كان شعرها يرتفع عالياً، فتبرز جبهتها الجميلة. وجفناها كانا مطليين بلون أحمر فاتح يشبه لون السماء بعد الدقائق الأولى من الفجر. تناولتْ قطعة من الشكولاتة من العلبة التي كانت موجود على طاولة الزينة، وأخذت تقضمها بهدوء، وكان يبدو من طريقة تحديقها في ما وراء النافذة، أن أمراً مهماً يشغل تفكيرها.

اقترب منها عادل. كان شخصاً نحيلاً طويل القامة، حتى أن ظهره ينحني إلى الأمام عندما يمشي، وقال لها بصوته المسرحي الجهوري:

ـ إذاً، لقد وصلك الخبر.

قطبت جبينها للحظة، وفتلت خصلة من الشعر وراء أذنها اليمنى، ثم قالت كمن تلقى فاجعة:

ـ أجل، إن الأخبار السيئة تنتقل كالبرق.

ثم التفتت إلى الداخل، ورأت عينيّ عادل تلتمعان وهو يقول:

ـ أوه! هل تسمين قدوم نسرين من تونس خبراً سيئاً.

أطلقت ندى ابتسامتها الساحرة، وهي تنهض من كرسيها، وكل ما فيها ينضح بالكبرياء والغرور. اقتربت من مرآتها، وأخذت تحدق في تقاطيع وجهها:

ـ أتتظاهر بالغباء يا عادل؟ أم تروق لك إعادة سماع ما أكنّه لنسرين غزلان ؟

نظر إليها بفضول، وقال بشكل عرضي:

ـ لا، فقط ظننت أنك كنت تعرفين أنها ستمثل دور البطولة منذ بداية الأمر. فإن كان المخرج قد أعطاك دورها حالياً في العروض التدريبية، فذلك لأنها ليست هنا. لكن في التاسع آذار/ مارس، سيكون عليك أن تعودي إلى دورك الأصلي.

ـ أعلم.

لم تُزد على هذه الكلمة شيئاً، وقالتها بدون تشديد أو اهتمام، ثم دنت من النافذة، وأخذت تنظر من ورائها. كان يبدو من ابتسامة صغيرة هزت ثغرها، أنها تفكر في شيء مسلّ.

ـ ألن تنزلي إلى الخشبة؟ ستصل نسرين بعد نصف ساعة

من الآن، والمخرج يريد أن نعيد التدريب هذه المرة، كل في مكانه الأصلي.

بدون أن تبدي اهتماماً كبيراً بالنزول إلى الخشبة، قالت بنبرة كأنها تحدث نفسها: إني أتساءل ماذا لو انقلب عنوان المسرحية إلى حقيقة، ألن تكون المسرحية رائعة؟

هاله ما سمع، فهو يعرف الطريقة الشيطانية التي تفكر بها ندى، فقاطعها قائلاً:

ـ أرجوكِ، دعينا من المشاكل. أتريدين أن تموت نسرين ليلة العرض؟

استدارت بسرعة إلى الداخل، وضحكت ضحكة استهزاء:

ـ ألا تعرف شيئاً يسمى المزاح؟

احمر وجهه، ولم يعرف ما يجيبها، ثم قالت وهي لا تزال على هدوئها وابتسامتها، وعلى النبرة الطفولية ذاتها: أردت فقط أن أضفي بعض الواقعية على المسرحية، ألن يكون الأمر مسلياً؟

ـ أنتِ تتحدثين عن جريمة قتل يا ندى؟

ـ كم أنت غبي! هل تعتقد أنني سأرتكب جريمة بالفعل. سيكون أمراً مختلفاً تماماً، شخص يموت لأنه تعثر. إن حوادث من هذا النوع، غالباً ما تحدث فوق خشبة المسرح، أو لنقل إن شيئاً مرعباً شاهده (أحدث صوتاً كانفجار القنبلة «بوم»)، وبعدها سكتة قلبية... ألن يكون الأمر مذهلاً؟ إن مجرد التفكير فيه، ينعشني..

ثم سكتت سكتة ذات مغزى. نظر إليها عادل بعينيه الغائرتين ثم مضى يقول كأنه لا يستطيع مقاومة إغراء الحديث عن جريمة قتل تبدو كحادث: وماذا ستستفيدين من موتها؟

أثار سؤاله غضبها، وانفجرت محمرة الوجه من الحنق:

ـ لو كانتَ ميتة منذ وقت طويل، لربحت جوائز عدة في مهرجان القاهرة وباريس. أوه، يا إلهي لكنت الآن محط الأنظار! ألا ترى معي كم من فرص ضاعت مني بسبب تلك المتعجرفة نسرين غزلان... إن أدائي أحسن من أدائها. ألم تلاحظ أن أدوارها منذ أن توفيت شقيقتها لا تختلف، وطريقتها في التمثيل، وفي تجسيد الشخصيات المختلفة التي لعبتها؟ لقد وجه النقاد إليها وابلاً من النقد، لكن مخرجنا يبدو أنه من الطراز القديم، لا يريد أن يستغني عنها.

سمعا في هذه الأثناء، ضجة في الأسفل، فأدركا أن نسرين قد وصلت.

ـ علينا أن نكون هناك. سوف يغضب المخرج إن تأخرنا.

أومأت ندى برأسها، وقالت: حسناً، لا بأس، لننزل لوداع نسرين للمرة الأخيرة.

شعر عادل بالجو يختنق حوله. فندى لا تفكر أبداً في العواقب. تندفع تحت تأثير مشاعرها كالثور الهائج، وعندما تقع في الورطة، تلجأ إليه. وهو كالغبي كان يتحمل وزر أخطائها.

شعر بأمعائه تعتصر عندما مدت ندى يدها إلى نسرين لتصافحها. نظر عادل إليها ورأى كيف كانت تحدق في نسرين بنظرات حقد. طافت بذهنه ذكريات باهتة لأحداث بسيطة، حوادث مختلفة، كتلاعبها بفرامل سيارتها، والحادث الذي أوشك أن يودي بحياة صاحب المرأب، وحادثة عمود الساترة الذي كاد يقع على المخرج... شعر برعشة قاتلة تمر بجسده. كان يعرفها جيداً، ويعرف إلى أي مدى تصل غيرتها... وشعر في قرارة نفسه، بأن ندى لا تخطط لمجرد لعبة.

لم يترك ندى تغيب عن نظره. وطوال وقت التدريبات. كان يشعر بشيء... غير قابل للتفسير سيحدث. . . شيء ينذر بالشر.

أسرع الخطى وراء نسرين بعد نهاية التدريبات، في موقف السيارات، وناداها من الخلف، فتوقفت، واستدارت وراءها. أذهلها أن ترى عادل. قال لها بصوت مبعثر الكلمات، وكان يبدو أنه يبذل جهداً كبيراً للنطق:

ـ هل يمكن أن أحدثك لوهلة؟ إذا لم يكن لديك مانع.

أومأت برأسها. استغربت أن يكون ثمة شيء يريد عادل أن يخبرها به.

ـ حسناً، لم يسبق أن تحدثنا يوماً خارج موضوع المسرح، لكن أردت فقط أن أقول لك إنكِ كنتِ رائعة جداً. . . إنك ممثلة من الدرجة الأولى.

ارتخت أسارير وجهها عندما علمت بما حمل عادل إليها، وبادلت مديحه بابتسامة هادئة بدون أن تضيف شيئاً، كأنها خاتمة الحديث، فأسرع عادل يقول:

ـ ليس هذا رأيي، بل رأي جميع الممثلين، والمخرج

أيضاً... لكن لا أظن أن الجميع استحسن إعجاب المخرج بأدائك.

أذهلها أن تسمع هذا الكلام من عادل، فقالت بصوت غير واثق مما سمعته للتو.

ـ إن فهمت ما تقصد، فهل أقلق حضوري أحدهم اليوم؟

طرحت تساؤلها هذا على نحو أقرب إلى عدم التصديق.

ابتلع عادل ريقه، وأجاب مرتبكاً. كانت الكلمات عالقة في نهاية لسانه، تحتاج إلى جهد كبير لتخرج.

ـ لم أقصد هذا، وإن كان المعنى لا يبتعد عما ذكرته الآن. المشكل أن المسألة قد تتطور إلى مجرى خطير، إن كنتِ فهمت ما أقصده

صمت لوهلة، ثم استطرد بصوت مكبوت وقد احمر وجهه:

ـ لست جيداً في الكلمات، ولا أظنك قد فهمت شيئاً.

رفعت نسرين حاجبها الأيسر، في إشارة إلى أنها لا تعرف إلى أين يريد أن يصل.

استجمع قواه، وقال بصوت سريع عندما رأى شيئاً من الانزعاج على ملامح نسرين: أنت تؤمنين بأن الغيرة قد تنقلب إلى شيء أكثر وحشية من مشاعر مدفونة في عمق الإنسان؟

ضحكت نسرين، وقالت بصوت هادئ تفوح منه نبرة السخرية:

ـ أتقصد أن أحدهم يكنّ لي غيرة حاقدة، قد تنقلب إلى التفكير في قتلي، وقد ينفذها فعلاً؟

عندما أومأ برأسه إيجاباً، شعرت برعب قاتل يمر كسكين على قلبها، وراحت تقول في اضطراب وقلق شديدين في محاولة لمقاومة خوفها المفاجئ: لا أظنك فهمت الموضوع جيداً. في كل الأحوال يجب أن تفرق بين المنافسة والغيرة.

لم تواصل الحديث مع عادل، بل اعتذرت بأدب، وهرولت مسرعة إلى سيارتها، وكان وجهها يلفه اصفرار مخيف.

دخلت المنزل، وما لبثت أن أسرعت إلى غرفتها. تفاجأت عندما رأت عدلان أمامها واقفاً كالصنم. سقطت

حقيبتها من يدها، وأطلقت صرخة مكبوتة. تحرك حينها، ودنا ببطء من حقيبتها ورفعها لها.

قال بجفاء قاتل: أرجو ألا يكون شيء قيّم في حقيبتك قد انكسر.

استجمعت قواها، ورمت حقيبتها على إحدى الطاولات القريبة منها، ثم قالت وهي تُظهر تعبها بمبالغة:

ـ لقد كان التدريب متعباً جداً. لقد نسيت أغلب النص.

أنصت إليها عدلان، ثم أصدر صوتاً كأنه يسألها: حقاً؟ كان يبدو من نظراته أنه يشكك في كلامها. شعرت بذلك، لكنها لم تعلق، بل تابعت حديثها، كأنها لم تلحظ شيئاً.

دنا من النافذة، وأزاح الستار ببطء، كأنه يختلس النظر إلى شيء معين خارج المنزل، وقال لها:

ـ كيف وجدت «خطيبك عادل». هل اشتاق إليك؟

ترك الستار، ونظر إلى الداخل في إشارة إلى أنه ينتظر تعليقاً منها، لكنها بقيت تنظر إلى وجهها في المرآة، وتنزع المساحيق عنه، وقد تظاهرت بأنها لم تسمع.

لكنه دنا منها، وضرب بقوة على طاولة المزهرية، فقفزت نسرين من الهلع، وتحطمت زجاجة العطر على الأرض.

ـ ما بك، هل جُننتَ؟

ارتدَّ إلى الوراء يرتعب خوفاً كأنه لا يصدق ما يرى، وقال لها كأنه طفل صغير اكتشف حقيقة مُرة: لماذا تفعلين هذا يا نسرين؟ الأسرار والغموض، هما ما أراهما فيك. لقد تغيرت كثيراً. ما الذي حدث؟ ما الذي يجعلك تبكين بدون سبب؟

تريث وهلةً يستجمع أعصابه. بدا أنه منزعج وساخط على جميع الأحياء. كانت في نبرته رنة تمرد واضحة:

ـ لقد جعلت الجميع يسخر مني. الجميع يصفني بالمغفل، وبالغبي الذي ينام على أذنيه. لكني سئمت. أتدرين يا نسرين: لست أنا الذي سينام لمدة أطول على أذنيه. إني أسمع كل الذبذبات التي تحدث من خلفي، وأستطيع تمييز كل شيء. الجميع يحتقرني في هذا المنزل. ينظرون إليّ من رأسي حتى أخمص قدمي بنفور، وهذا كله بسبب تصرفاتك غير المسؤولة. لقد سئمت يا نسرين. انظري إلى عينيك، إنك تعيشين كذبة، وتحاولين تصديقها.

سيأتي يوم وجميع أسرارك الدفينة ستظهر إلى العلن... كخشب يطفو على السطح، وعندها لا تعتمدي عليّ، لأنني في تلك الأثناء سأكون بعيداً.

ثم غادر، وقد بثت كلماته الرعب في داخلها. هل يُعقل أن يكون عدلان قد اكتشف الحقيقة؟ لا، مستحيل؟ لقد أتى بعد عامين من وفاة شقيقتها؟

الفصل السادس

ليلة الرعب

في يوم التاسع من آذار/مارس، كانت الشمس قد بدأت بالغروب. كانت مصابيح الشارع المؤدي إلى المسرح الوطني «محيي الدين بشطرزي»، ترسل ضوءاً خافتاً على الطريق، وبدت بقع ضوء أعمدة النور، كأنها زيت انسكب خطأً.

المسرح يعود إلى الحقبة الفرنسية، بطرازه القديم الذي يشبه قصور الملك لويس الرابع عشر. زخارفه شبيهة، إلى حد بعيد، بقصر «اللوفر» في باريس. كان تحفة معمارية رائعة.

* * *

ساعة ساحة بور سعيد التي تقابل المسرح مباشرة، تشير إلى الخامسة إلا ربعاً، والناس تتوافد حشودهم إلى المسرح الوطني لحضور مسرحية «نسرين ستموت الليلة»، بمشاهدة بطليها الممثلة المسرحية نسرين غزلان، وعادل ميلاد.

كانت نسرين وعائلتها قد حضرتا منذ قرابة نصف ساعة، ومونية وزوجها وابنها، وليلى برفقة زوجها سمير، والعجوز ياسمين والممرضة ليندة.

أخذت نسرين تراقب الحشود الوافدة. كانت ترنو إليها، كما يرنو من يهاجر غصباً عنه إلى أرضه قبل أن يغادرها. كانت تبحث بينهم عن طفليها، فزوجها كالعادة تأخر عن الموعد، وعندما لمحت معطف ابنها البكر، هرولت سريعاً، وقبلت فلذتيها، وقالت لهما بصوت هادئ مفعم بالحب والحياة:

ـ أحبكما يا عزيزيَّ. أقسما لي إنكما ستكونان مطيعين، وأن تعيشا مخلصين صادقين في الحياة.

أجاب الطفلان بإيماءة من الرأس، ثم أخذهما والدهما للجلوس في المقاعد الأمامية.

كانت تراقب طفليها، وهما يتجهان نحو المقاعد الأولى، عندما لمحت من بعيد، شخصاً ميّزته من مظهره الجانبي. شعرت بثقل في صدرها، وأسرعت بخطوات هادئة وغير لافتة للانتباه نحوها. وقالت لها بدون مقدمات، بمجرد أن توقفت أمامها:

ـ أعرف لماذا أتيتِ؟ ستراقبين جميع الحاضرين، وستحققين مع جميع الداخلين والخارجين، والعمال... هذا يكفي، لقد سئمت، إن كنت سأموت، فلا أستطيع شيئاً حيال ذلك.

ـ سيدتي، أنا لست هنا بصفة رسمية. جئتُ كي أشاهد المسرحية، ولا تستطيعي أن تمنعيني...

ـ أعلم بأنك لم تأتي بصفة رسمية، لكن كلتينا تعلم بأنك أتيت هنا من أجل قضيتي. أرجوك، أتوسلُ إليكِ، إنه اليوم الأخير، اتركيني أعِشْه بدون رعب. ولداي هنا، وعائلتي كلها، لا تجعليني أفضح أمري أمامهم. إني أتوسل إليك... غادري.

أومأت ليلية برأسها، ولم تجد شيئاً تفعله حيال ذلك، إلا أن تركت المسرح. لكنها قالت لها قبل أن تغادر:

ـ حسناً، إن كانت هذه رغبتك، فلا أظنني أستطيع فعل شيء حيال ذلك. أرجو أن تكوني حذرة.

وبدون أن تنبس ببنت شفة، أومأت برأسها.

خرجت ليلية، وقطعت الطريق إلى الضفة المقابلة

للمسرح، وبقيت جالسة في حديقة بور سعيد. اشترت الجريدة، وأخذت تتظاهر بمطالعتها، بينما بقي عقلها يشتغل بسرعة.

كانت عيناها منتصبتين على الحشد الذي كان يدخل من بوابة المسرح. هل سيستغل أحدهم هذه الفرصة ليقتلها؟ لكن، من هو؟ قالت إنها تعرفه. أيُعقل أن يكون فرداً من عائلتها؟ من زملائها في العمل؟ من أصدقائها؟ سيدة مثل نسرين، مشهورة، من الطبيعي أن تعرف عدداً كبيراً من الناس. لكن النقطة التي تبقى غامضة، هي هل يتعلق الأمر بمقتل شقيقتها؟ يا إلهي، كان عليها أن تتحدث إليها مطولاً. لقد كانت تشعر بأنها تعرف الكثير. تعرف أكثر مما صرحت به. لكن، لماذا هذا التستر على قاتل! هل يمكن أن تكون قد شاركت بطريقة ما في ارتكاب جريمة قتل شقيقتها؟ ثم، مع تناول المخدرات، أصيبت بفقد جزئي للذاكرة. وعندما انتعشت ذاكرتها، تذكرت أنها لا يمكن أن تفعل شيئاً حيال الموضوع، فقد يتورط اسمها في القضية.

عندما أفاقت من التفكير، وجدت أن الجميع كانوا قد التحقوا بمقاعدهم داخل المسرح. لم تشأ أن تلج إلى

الداخل، خوفاً من أن تتوتر نسرين. فبعد كل شيء، لقد كان هذا طلبها.

قطعت الطريق إلى الضفة الأخرى، ودخلت المسرح. كان الفصل الثاني قد بدأ منذ وقت طويل. ها هي نسرين، جالسة إلى إحدى الطاولات، تتحدث مع إحدى شخصيات المسرحية: شاب طويل ذي سحنة جميلة. كان الصوت يصلها متقطعاً، فالمكان الذي كانت تقف فيه بعيداً جداً، يسمح بالرؤية بدون السماع جيداً، فهي لا تريد أن تغامر وتلج إلى الداخل. ستتوتر عندما تراها. وبينما هي تتناول شطيرة البيتزا على خشبة المسرح، غادرت ليلية وعادت إلى المنزل كسيرة النفس والقلب، وهي التي كان تعول على سهرة اليوم، لإيضاح الكثير من النقاط المبهمة. كانت خالتها تجلس أمام النافذة المفتوحة، تقرأ بعض الكتب. وعندما دخلت، نهضت من مكانها بهدوء، وسألتها إن كانت جائعة.

تريثت قليلاً أمام عتبة الباب، قبل أن تنزع المفتاح وتغلق الباب، ثم قالت لها إنها لا تشعر برغبة في الأكل. كان وجهها منقبض الأسارير، يبشر بمزاج عكر. عادت الخالة إلى مكانها، ومشت هي إلى وسط الحجرة، وجلست

على أريكة وثيرة، واضعة يدها على جبينها، كواق من أشعة المصباح الأبيض.

بقيت على هذه الحالة، وقتاً طويلاً جداً. شعرت بأن الدقائق تسير ببطء كشيخ هرم، ثم انتفضت فجأة، بعد أن غفت قليلاً، وقالت: كم الساعة الآن؟

ومن نهاية الحجرة، جاءها صوت خالتها منخفضاً:

ـ إنها الحادية وعشرون دقيقة.

ـ كم بقي على دخول اليوم الثاني؟

ـ أربعون دقيقة.

.. شكراً يا خالتي

ـ هل تريدين شيئاً آخر؟

ـ لا، يمكنكِ أن تخلدي إلى النوم. تصبحين على خير.

بقيت ليلية جالسة. لم تكن تملك شيئاً لتفعله. فها هي الآن جالسة بعيداً عن مسرح الأحداث... المسرحية انتهت منذ وقت.

نهضت من كرسيها، واتجهتْ نحو سريرها. كان التعب والإرهاق ينخران جسدها وروحها معاً.

عند الساعة الثالثة صباحاً، رن هاتفها المحمول بقوة فوق طاولة الزينة. لم تطفئه عمداً تحسباً لأي طارئ.

استيقظت مرعوبة، وأسرعت تضغط على الزر الأخضر. كانت المكالمة من مستشفى، وطُلب منه الحضور فوراً، لأن السيدة نسرين مصباحي تحتضر، وتريد رؤيتها على عجل.

تجمدت للحظة، وهي جالسة فوق سريرها. لقد صدق إحساس نسرين. لبست ملابسها، ونزلتْ مسرعة إلى سيارتها، وانطلقت بسرعة نحو المستشفى تاركة ورقة صغيرة لخالتها: سأتصل بك لاحقاً، لا تقلقي.

عندما وصلتْ، أدخلها الطبيب الغرفة التي كانت فيها نسرين. كانت ممددة على السرير. وجهها مزرق. أشارت إليها بيدها وقالت لها:

ـ سوف أعترف لك. لقد كذبت طوال هذه السنوات، لكن لم يعد في مقدوري التحمل.

كانت ليلية لاهثة، من كثرة الركض، وصعود السلالم

الطويلة. لكن برغم أن أنفاسها كانت مقطوعة، إلا أنها استطاعت أن تقول لها بصوت خافت:

ـ استريحي، وسنتحدث بعد أن .تتحسن صحتك.

ـ حتى أنتِ تسخرين مني. أنت تعرفين أكثر مني أنها الساعة، لكن ليس لدي متسع من الوقت... أنا لست نسرين، بل مريم. نسرين هي التي قُتلت بسببي، لقد قتلها. لقد ظننت طوال هذه السنوات أنه لن يتجرأ على قتلي أنا أيضاً، لكن ها أنا أمامك خير دليل... بقي شيء واحد: السكين... المنزل القديم... ابحثي عنه، لقد طعنته نسرين به.

قاطعتها حشرجة بلغمية، فأسرعت ليلية خارج الحجرة تنادي على الطبيب. لكن الطبيب وصل متأخراً، لأن الروح فارقت الجسد.

وقفت ليلية أمام الباب، جامدة كالحجر، وبقيت تنظر إلى الطبيب الذي كان يغطي وجه نسرين بغطاء أبيض. وعندما اختفى وجهها تحت ذلك الغطاء، استدارت إلى باب الخروج، وفتحته، وخرجت منه مطأطئة الرأس. كان جميع أفراد أسرتها ينتظرون وعلامات الانتظار والقلق تغلف وجههم. وما إن رأى عدلان ذلك التجهم على وجه ليلية،

حتى انفجر بالبكاء. أبعده مروان عن الجميع، بينما أخذت مونية تبكي بحرقة.

الوحيد الذي أصيب بالذهول كان سمير. كان كمن رأى شبح الموت يحوم حوله، وسرعان ما فقد الوعي وسقط على الأرض، فنقله ممرضان إلى غرفة قريبة لإعطائه حقنة مهدئة.

وصل بعد نصف ساعة، وكيل الجمهورية رياض ياسر. كان رجلاً قصير القامة، منتفخ البطن، يرتدي معطفاً طويلاً، ويبدو من بعيد ككرة مغلفة بقماش بني.

كان الظلام يلف السماء، والجو بارداً. تقدم رياض، وصافح برسمية مبالغ فيها ليلية إسعد.

قال لها:

ـ ابنة المحقق الكبير إسعد... يا له من أمر رائع، هذا يجعلني أعود إلى المنزل، وأضع رجليّ في مياه باردة.

قابلت ليلية التي كان يبدو عليها الإرهاق، مديحه بابتسامة جافة. اعتدل حينها رياض، وعاد إلى لهجته الرسمية:

ـ حالة تسمم، إذاً.

أومأت ليلية برأسها، وقالت:

ـ نعم، هذا ما قاله الطبيب حتى هذه الساعة. وهم الآن يحاولون أن يكتشفوا طبيعة السم.

ـ هل لدى الطبيب شك في نوع ما؟

قطبت ليلية جبينها، وقالت: أخبرني أنه يشك في فطر سام، يتم التأكد منه... استجوبت العائلة. أغلبهم هنا، قالوا إنها شعرت بآلام في بطنها، بعدما عادت من المسرحية التي أدتها البارحة... أخبروني بأنها لم تأكل شيئاً منذ إفطار الصباح.

ـ من تكون هذه السيدة؟

تنهدت ليلية، وتمتمت قائلة:

ـ إنها ممثلة في المسرح، نسرين غزلان... ربما تعرفها؟ فالجرائد تكتب أحياناً عنها... وعندما رأت رياض يحرك رأسه نافياً، راحت تعرض عليه ما تعرفه عنها: امرأة متزوجة ووالدة لطفلين، قامت البارحة بعرض مسرحية لها في المسرح الوطني.

ـ ومن تكون عائلتها التي استجوبتِها؟

أخرجت دفتر ملاحظاتها من جيبها، وقالت:

ـ سمير وزوجته ليلى، وهو ابن شقيقة جدتها؛ ومونية وزوجها مروان، وهي فتاة تبنتها العجوز ياسمين من الملجأ؛ ولدينا أيضا ممرضتها ليندة التي حضرت قبل قليل مع العجوز ياسمين.

قال وكيل الجمهورية: هل تشمين رائحة جريمة قتل؟ أم حادث؟

كانت تريد أن تقول «إن لها ما يدفعها إلى اعتبارها جريمة قتل، وإنها تبصم بإصابعها العشر»، لكن الطبيب دنا منهما. صافح رياض ياسر، باحترام الذين اعتادوا أن يتعاملوا مع الشرطة.

ـ لقد علمت للتو، بأنها الممثلة نسرين غزلان، إنني أعرفها بالاسم، فلقد قرأت عنها في عدد من الصحف... من المؤسف أن تُقتل هكذا بمثل هذه الوحشية...

رفع رياض كتفيه وقال مكشراً: لقد علمتُ بأنك أخبرت قاضية التحقيق، أنك تشك في فطر سام.

قال الطبيب مرتاباً: أجل، لقد قلتُ ذلك، لكنني للأسف، اكتشفت الأمر أخيراً... لقد عملت كطبيب مسعف في فرقة الكشافة، وحدث أن سافرنا إلى اسكتلندا الجديدة مع مجموعة من المستكشفين المنخرطين حديثاً، في رحلة استطلاعية. كان البرنامج أن نعتمد على أنفسنا في توفير الطعام، وكان الفطر متوفراً في تلك المنطقة. رأينا الأرانب والسناجب تتناول الفطر، لم نكن ندري أنها تستطيع أن تأكل الفطر السام بدون التألم من أعراضه. وقعت حالات تسمم كثيرة بين طلاب الكشافة. البعض توفي، والبعض الآخر نقل إلى المستشفى، والبعض احتفظ بالفطر الذي أكله، وقد تم التعرف إليه، ونوعية سمه، فتلقى المصاب به العلاج والرقابة اللازمين... ولأني كنتُ أنا الطبيب الوحيد في الفرقة، فقد أشرفت على الحالات المتعرضة للتسمم، قبل أن نتمكن من نقلها إلى المستشفى، ولقد اكتسبت خبرة في معرفة أعراض التسمم من تناول فطر الأمانيت.

تدخلت ليلية في هذه الأثناء، وسألته:

ـ إذاً، تشك في أن نسرين غزلان قد سُممت بنوع من الأمانيت؟

أومأ الطبيب برأسه:

ـ لكن الأمر لا يتعدى حدود الاعتقاد. يمكننا أن نتأكد من وجوده عند تشريح الجثة ؟

لكن، قبل أن يصمت نهائياً، أسرعت ليلية تقول:

ـ إذاً، حالة تسمم أكيدة... لكن يبقى شيء لم أفهمه، هل سم الفطر، إذا اعتبرنا أن السم الذي قتل نسرين هو الأمانيت، يقتل الذي تناوله مباشرة؟

ـ ليس له أثر فوري... للأسف، نظراً إلى طبيعة الببتيد الحلقي الذي يؤخر آثار التسمم، فحالة التسمم تتكشف أغلب الأحيان بعد فوات الأوان، بحيث لا يمكننا فعل شيء.

أومأت ليلية برأسها. أما وجه الطبيب فقد كان بادياً عليه تذكره أحداث اسكتلندا الجديدة.

لكن ليلية كانت تحتاج إلى جمع الكثير من المعلومات حتى تتمكن من تحديد وقت الجريمة، وأين دس هذا الفطر اللعين.

ـ كم يستغرق الوقت لتبدأ آثار التسمم بالظهور؟

ـ أعراض التسمم لا تظهر قبل أقل من ثماني ساعات أو عشر ساعات من تناول الفطر، وتحدث بصفة عامة آلام رهيبة على مستوى البطن، ويكون الموت مباشرة، وأحياناً يستغرق عشرة أيام، لكن يكون مصاحَباً بعسر في الهضم حاد.

ـ لم تعان نسرين في الأيام الماضية آلاماً حادة في الهضم... إذاً، فحالة تسممها حديثة. لكن عائلتها قالت إنها لم تتناول إلا فطور الصباح، وكان ذلك أمام الجميع: الحليب مع مربى البرتقال.

ـ لا، هذا مستحيل، فإن فطر الأمانيت يقضي على المرء بعد ثماني ساعات. لكانت ماتت عند الساعة الخامسة مساءً، وفي الأكثر السابعة.

ـ هذا غير ممكن، لأنه حتى لو افترضنا أنها تسممت صباحاً، فلم يكن يبدو عليها أي آلام معوية عند الخامسة إلا ربعاً، بل قامت بتأدية مسرحيتها مساء البارحة... كما أن الفطر لم يكن في أطباق فطور الصباح... ما هو، بحسب رأيك، احتمال أن تكون ساعة تناول الفطر السام؟

ـ أرجح أنها تسممت عند السادسة.

ـ هذا مستحيل، لأنها من الساعة الخامسة والربع إلى السابعة مساءً، وهي واقفة فوق خشبة المسرح.

فجأة، سكتت ليلية، وجحظت عيناها وهي تحدق في اللاشيء، وقالت وهي تربط بين تفكيرها وكلامها:

ـ وقت المسرحية... يا إلهي، ساعدني على تذكر اللقطة التي كانت تأكل فيها.

جمدت فجأة عندما انتعشت ذاكرتها، والتفتت بسرعة إلى رياض الذي لم يكن يعي شيئاً، وصاحت:

ـ البيتزا... البيتزا، هي التي كانت تحتوي على الفطر السام.

ـ هل أنت متأكدة؟

أطرقت ليلية برأسها، وأخذت تشرح لهما:

ـ في مسرحيتها «نسرين ستموت الليلة»، ثمة مشهد تلتقي فيه نسرين بخطيبها السابق في مطعم صغير، وتعتذر إليه بسبب تهورها وإبلاغ الشرطة أنه يعمل مع جماعة إرهابية. لكن يبدو أن هذا الخطيب لم يغفر لها، ويستغل

فترة ذهابها إلى الحمام لتعديل زينتها، ويضع لها الزرنيخ فوق البيتزا... البيتزا كانت تحتوي فعلاً على سم.

ـ هل حضرت البارحة مسرحية السيدة نسرين غزلان؟

ـ بل مسرحية مريم غزلان.

نظر إليها رياض بعينين غير مصدقتين، وقال:

ـ ماذا تقولين؟ المزيد من العقد.

ـ سأشرحها لك، في طريقنا إلى المسرح الوطني.

في الطريق المؤدي إلى المسرح الوطني، «محيي الدين بشطرزي»، روت ليلية كل ما حدث لها في الطائرة التونسية، وكيف رأت نسرين تبكي داخل الطائرة، بدون أن تكون قادرة على إيقاف دموعها. وروت له بتفصيل دقيق كيف رأتها تهرول نحو سيارة الطبيب النفسي أمين موسى صديق والدها، وكيف توسلت إليه أن يلغي رحلته إلى ألمانيا، ويعالجها. كما أخبرته كيف أنها بحكم صداقة هذا الطبيب لوالدها، جعلها تختبئ وراء الخزانة بعدما أقنعته بأن هذه السيدة في حاجة إلى مساعدته، وتركها تستمع إلى عملية التنويم المغناطيسي، وحكت له الأزمة التي تمر بها

نسرين غزلان، واعتقادها الراسخ أن شقيقتها قُتلت، وعقدة الرقم عشرة التي جعلت حياتها كابوساً. كما روت له كل ما جرى في مقهى «الأروقة الطويلة». وفي النهاية ختمت قصتها بمكالمة الهاتف التي تلقتها من المستشفى صباح اليوم.

ما إن أكملت حتى قال لها رياض بنبرة تنم عن الاستغراب الشديد وعدم التصديق: هل قالت لك إنها مريم غزلان بعظمة لسانها؟

ـ أجل، لقد أخبرتني أنها سئمت أن تُبقي الأمر مستتراً لمدة طويلة، وأخبرتني أن القاتل أراد قتلها هي، وأخطأ في الهدف.

نزل وكيل الجمهورية من السيارة، وكان وجهه يعكس بصورة واضحة أنه لم يفقه شيئاً.

ثم أخرج منديلاً، وجفف جبهته، وتمتم بين أسنانه: يا إلهي، كم أكره الألغاز!

عندما عبرا ساحة بور سعيد، ووصلا إلى مدخل المسرح، سألا عن المخرج سيد علي مقراني. كان يبدو أن خبر وفاة نسرين غزلان لم ينتشر بعد، فأجابه أحد العمال

الذي كان يجلس في المدخل على حافة طاولة، ويدخن سيجارة:

ـ إنه في المكتب مع مدير المسرح، يتحدث معه حول إنارة البارحة. يبدو أن مصباحين لم يشتعلا في خلال عرض المسرحية. إن كنتما تريدان الحديث معه، فأجلا حديثكما إلى وقت لاحق... إنه ليس في مزاج جيد.

وقبل أن يغوص مجدداً في سيجارته، سارعت ليلية إلى سؤاله:

ـ البارحة، عرضت مسرحية «نسرين ستموت الليلة»، وأحضرتم بيتزا كي تمثل في اللقطة التي تعتذر فيها نسرين من خطيبها حول وشايتها الشرطة به.

أخذ العامل نَفَساً عميقاً من سيجارته، ثم نظر إلى ليلية من أعلى نظارته: هل تبحثين عن مطعم للبيتزا؟ ليس هنا أيتها الجميلة.

وقبل أن يكمل كلامه، كان رياض قد ضاق ذرعاً باستخفاف عامل المسرح، فسارع إلى إخراج بطاقته المهنية، وقال: أنا رياض ياسر وكيل الجمهورية، ونحن نحقق في مقتل نسرين غزلان.

قفز الرجل من مكانه، واعتدل جيداً في وقفته، وحاول أن يقول شيئاً، لكن سعالاً حاداً انتابه: أرجو المعذرة... لم أكن أعرف... أرجو ألا يذكر هذا الأمر في سجل سوابق العدلية... هل قلت مقتل نسرين غزلان؟

أومأ ياسر، وقال له: هل يمكن أن نعرف من أين أحضرت بيتزا البارحة؟

ـ حسناً، لم أتابع المسرحية جيداً، لكن أتذكر أن المخرج أرسل نور الدين لإحضار بيتزا من المطعم الموجود أمام المعهد العالي للموسيقى.

ـ أي بيتزا مثلت بها البارحة في المسرحية؟

ـ لا أدري، عليك أن تسأل عامل النظافة، فهو من يتكفل بالتخلص من الفضلات.

ـ وأين نجد هذا العامل؟

تقدم في هذه الأثناء، شاب طويل، مصفرّ الوجه، وهو يركض نحو مدخل المسرح، وصاح بمجرد أن رأى سيد علي.

ـ سيد عليّ، اتصل بسيارة الإسعاف. المتشرد صاحب القبعة الحمراء، إنه ميت.

ـ أين هو؟

أشار الشاب النحيل بإصبعه إلى مقعد عمومي في حديقة بور سعيد. كان حشد من الناس يحومون حوله، وأصواتهم الصاخبة تصل إلى مدخل المسرح.

أسرع وكيل الجمهورية وقاضية التحقيق إلى الجثة التي كانت ممددة أمام كرسي الجلوس، ودفعا الناس حتى يفسحوا لهما الطريق. ألقى ياسر نظرة عليه. كان شيخاً ذا لحية عفنة، يرتدي أسمالاً بالية وقذرة. طلب من الشرطي الذي قدم بعد ربع ساعة، الاتصال بسيارة الإسعاف. وفي هذه الأثناء، تقدم أحد عمال التنظيف التابع للمسرح، وصاح بهلع غير مصدق ما يرى:

ـ يا إلهي، إنه عمي صالح، الذي أعطيته البارحة القطع المتبقية من البيتزا...

استدارت ليلية بسرعة نحو الشخص الذي تكلم للتو، وسألته:

ـ عن أي بيتزا تتحدث؟

ـ تلك البيتزا التي بقيت من مسرحية البارحة. لقد شعرت بتأنيب الضمير، إذا رميتها في القمامة، وثمة من يتمنون قطعة خبز صغيرة، فخرجت وأعطيتها لهذا المتشرد.

ـ هل تقصد مسرحية البارحة «نسرين ستموت الليلة»؟

ـ أجل، تلك المسرحية التي مثلت بطولتها نسرين غزلان. لقد كانت مسرحية رائعة.

* * *

ـ علينا ترتيب الأمور. يبدو كل شيء مبهماً، أريد أن أعرف اسم الضحية مريم أم نسرين. عليك أن تشرحي لي الموضوع جيداً، وبكل دقة، وألا تهملي أي أمر، مهما يكن صغيراً.

قال رياض وهو يجلس إلى مكتبه، وكانت آثار التعب والقلق، ظاهرة على وجهه.

أطلقت ليلية زفيراً عميقاً. هذه المرة السابعة التي كانت تكرر فيه ليلية ما قالته لها نسرين قبل لحظات على وفاتها.

ـ لقد اعترفت لي قبل لحظات، بأنها مريم غزلان، وأن التي قُتلت كانت شقيقتها نسرين، وانتحلت شخصية

نسرين حتى تنقذ نفسها. فهي التي كانت مستهدفة عند مقتل أختها.

للمرة العاشرة، كان رياض يرفع فنجان القهوة الذي طلبه قبل أن يدخل مكتبه، لكن بدون أن يرتشف شيئاً منه. كان نفاد الصبر بادياً على ملامحه.

ـ لا أفهم. إذاً، الإرهابيون كانوا يريدون قتل مريم، لكنهم أخطأوا وخطفوا نسرين. لنقل إنه الشبه القوي بين الأختين. لكن، لماذا انتحلت مريم شخصية شقيقتها طوال هذه المدة؟

أسرعت ليلية بعصبية تصحح له حقيقة ما حدث.

ـ لا، .ليس للجماعات الإرهابية شأن في مقتل شقيقتها، بل شخص أراد أن يكون المشهد على هذا النحو... شخص ما عمل المستحيل من أجل أن يبدو الأمر عملية إرهابية، حتى لا يُفتح فيها تحقيق رسمي ومعمق.

ـ إني لا أفهم شيئاً يا ليلية.

ـ المسألة مثل ثوب من القطن، في بداية تفصيل تقاطيع الثوب، من الكمّين إلى الجذع وغيره... تبدو القطع بدون معنى، لكن عندما تُجمع القطع، يبدأ شكل الثوب بالظهور،

وتبدو القطع التي كنا نعتبرها بدون معنى حلقة مهمة لاكتمال جمال الثوب.

تابع رياض شرحها، وهو يشعر برغبة في التثاؤب، لكنه قاوم تلك الرغبة من أدب اللباقة. وعندما انتهت، ابتسم في وجهها، وقال لها:

ـ عزيزتي ليلية، أعرف أنك مولعة بالملابس والموضة، لكن أذكّرك بأننا لسنا في معمل للخياطة، بل في مكتب وكيل الجمهورية، ونناقش قضية مهمة: مقتل سيدة.

احمر وجه ليلية، ليس لشعورها بالحرج، بل لأنها لم تتوقع كم هو عقل الرجال خالٍ من الخيال والتصور.

ـ أذكرك بأن عشقي الموضة والأزياء، هو الذي دفعني إلى اكتشاف هذه الجريمة، قبل حتى أن تقع... لولا طقم نسرين الغالي الذي كانت ترتديه يوم سفرها إلى هنا، لما توصلت إلى هذه المعلومات.

ـ أذكّرك بأن جميع المعلومات التي توصلت إليها لا تضعنا في طريق محدد.

قالت ليلية باقتضاب: بلى، أحدهم أراد أن يكون الأمر

كعملية من عمليات الإرهاب... أراد أن تلتحف جريمته البشعة برداء الإرهاب، حتى لا يحقق في الموضوع.

ـ من هو هذا الشخص؟

كانت نبرته في هذه المرة متغيرة، فيها الكثير من الجدية، ما جعل ليلية تتشجع، وتتحدث بثقة كبيرة عن كل ما عرفته عن نسرين غزلان في الأيام القليلة السابقة لموتها.

ـ لا أدري، لكن كل ما أعرفه أنه رجل، كانت نسرين (مريم الحقيقية) تعرفه، وتعرف أنه هو قاتل شقيقتها. فلقد تحدثت عنه ذات يوم أمامي، لكن لم تذكر لي اسمه. أخبرتني أن كل الأدلة تشير إليه، لكنها لا تريد في قرارة نفسها التصديق، لماذا؟ هذا الذي لا أعلم به.

سحب رياض نَفَساً عميقاً، وفي هذه المرة رشف رشفتين من فنجانه الذي كان قد برد، وأخذت القهوة مذاق التراب.

ـ لنفترض أن ما رويته لي كان الحقيقة بعينها... من أين ننطلق؟

هل نبحث عن شخص يملك دافعاً إلى قتل نسرين أم مريم؟

اعتدلت ليلية في جلستها، وقالت بحماسة كبيرة، وبريق قوي يتأجج في عينيها.

ـ مريم هي التي كانت مستهدفة منذ البداية. الدافع يمكن أن يكون له علاقة بمهنتها كصحافية محققة. من المحتمل أنها وضعت يدها على ملف أو وثائق قد تدفع أحدهم إلى التهلكة... مهما يكن الدافع إلى مقتل مريم غزلان، يجب أن نكون متيقنين من أن هذا الدافع قوي جداً حتى يخاطر المرء بنفسه، ويصعد إلى الجبل ويلقي بالجثة في جبل كان معروفاً في زمن الإرهاب أنه خطر... جبال الشريعة، ألا ترى معي أن هذا مؤشر جيد.

حرك رياض يده بإعياء نحو ذقنه. وبدون أن يريد ذلك، أخد يحك ذقنه وهو غارق في التفكير:

ـ إذاً، تعتقدين أن الدافع قوي، وأننا في هذه الحالة سنضع جانباً جميع الدوافع الضعيفة. لكن، ألا ترين معي أن التخلص من الجثة وإنقاذ نفسه من حبل المشنقة يُعَدان دافعاً قوياً، بل أعتقد أقوى الدوافع إلى المخاطرة بالصعود إلى الجبل ورمي الجثة هناك؟

رفعت ليلية كتفيها بلامبالاة، وقالت:

ـ لكن، ألا يمكن أن يتخلص من الجثة في أي مكان آخر: رميها في واد الحراش، أو تقطيعها، أو حرقها... إن الصحف لا تخلو من سرد جرائم القتل التي تقع يومياً، والطريقة التي يقتل بها القاتل ضحيته، وأحياناً كيف خبأها.

استقام في هذه الأثناء، وكيل الجمهورية في جلسته، وأخذ قلماً، كأنه معلم سيشرح الدرس على الصبورة الخشبية، وشرع يلوح به وهو يتحدث.

ـ لا، انظري إلى الموضوع من زاوية أخرى. لماذا لم يفكر القاتل في رمي الجثة في مكان ما؟ لأنه لنفترض مثلاً، أنه لو عثر على مريم غزلان (نسرين الحقيقية) مقتولة في أحد الأمكنة، فإن أول إصبع اتهام كانت ستوجَّه إليه. لهذا، جعل الجريمة تبدو كأنها من فعل الإرهابيين.

لم تكن فكرة رياض مستبعدة، فالأشخاص الذين يكونون المتهمين الأوائل في حالة حدوث جريمة قتل، يلجأون في أغلب الأحيان إلى جعل جريمتهم تبدو حدثاً.

تريثت ليلية قليلاً قبل أن تقول شيئاً، وتركت لنفسها مهلة كي تدرس فرضية رياض في رأسها، ثم قالت في النهاية بارتياب:

ـ هل تعتقد أن الأمر هكذا؟

ـ ألا ترين أنه التفسير المنطقي لهذه «المخاطرة» التي تحدثت عنها.

بقيت ليلية تفكر، وهي تحك ذقنها: شخص، كان سيُتهم مباشرة، لو عثر على مريم مقتولة... ثم نهضت.

فتحت الملف الاجتماعي عن مريم غزلان الذي أجري عنها في ١٩٩٥، وأخرجت بعض الأوراق، وأخذت تقرأ:

ـ مريم غزلان، صحافية عملت في جريدة متواضعة في تلمسان، قبل أن تحصل على ترقية في عملها، وتذهب إلى العاصمة للعمل في صحيفة مرموقة. كانت تهتم آنذاك بالمواضيع الساخنة. انتقلت في ١٩٩٤ إلى الجزائر العاصمة، عند جدتها التي تقطن فيها، وعملت كصحافية محققة في جريدة «مراسلون». عُثر عليها في ٢٣ آذار/مارس ١٩٩٥ جثة نصف متعفنة في أحد جبال الشريعة، في عملية تمشيط للجيش. ورجَّح الطبيب الشرعي الوفاة في ١٠ آذار/مارس ١٩٩٥.

فجأة، جمعت ليلية الأوراق بسرعة، وأعادتها إلى الملف الأزرق، وقالت وهي تتأهب للخروج:

ـ علينا أن ننتظر نتائج التشريح، وسأراجع في الوقت ذاته هذه الأوراق في المنزل مع كأس شاي ساخن. عليّ أن أدرس كل تفصيل بعمق. أمامنا مجرم ذكي... سيكون قد استعد لكل شيء.

ابتسم رياض، وهو يمد رأسه إلى الوراء: إنك تشبهين والدك في كل شيء، حتى في هذه العادة... شرب الشاي. لا أدري ماذا يوجد في الشاي. لكني أراهن على قطع يدي، لو لم تكن جميع مفاتيح الجرائم الغامضة تكمن في شرب الشاي، والاستغراق في التفكير.

ضمت ليلية الملف إلى صدرها، وأرسلت ابتسامة إليه، وقالت: ربما الشاي يساعد على التفكير... لكن الأزياء لطالما ساعدتني على اكتشاف الحقائق... أتدري أن طية صغيرة تكاد تكون غير مرئية في كم سترة نسرين غزلان، جعلتني أدرك أن هذه المرأة تمر في أزمة نفسية.

خرجت ليلية من المكتب بعد هذه المحادثة القصيرة البعيدة عن الجريمة، ونزلت سلالم المحكمة بسرعة، وركبت سيارتها التي كانت لا تبعد عن مدخل المحكمة إلا بضعة أمتار. انطلقت مسرعة نحو المنزل. كان عليها أن تصل باكراً حتى تساعد خالتها فريال في تحضير العشاء

للضيفين، خاصة أن خالتها لا تتقن شيئاً في فن الطبخ، برغم أنها تحاول التظاهر بالعكس.

عندما دخلت المنزل، وصلت رائحة البصل المحترق إلى أنفها، فنزلت مسرعة من السيارة، وارتقت أربع درجات في قفزة واحدة، وفتحت باب المنزل بمفتاحها. وحين دخلت البهو، رأت خالتها تخرج من المطبخ راكضة نحوها، ووجنتاها منتفختان. كان ثمة دخان أسود يتصاعد من المطبخ.

ـ خالتي، ما الذي حدث؟

اقتربت منها فريال، وهي تسعل بقوة حتى تكاد أوداجها تنفجر، وقالت لها بصعوبة: هل أتيت الآن، أيتها الفتاة؟ انظري إلى الساعة، عندما يصل شقيقك ومليك، لن يجدا إلا الفحم لتذوقه.

رفعت ليلية حاجبيها متأسفة، ودنت من خزانة البهو، ووضعت فوقها بإعياء حقيبة يدها، والملف، ثم زفرت بعمق، وقالت:

ـ سأدخل المطبخ، وأرى ما يمكن إنقاذه... (وبينما هي تتحدث، كانت تمشي في اتجاه المطبخ، والدخان الأسود

يتسرب منه منذراً بكارثة)... في كل الأحوال، لا أظن أن مليك ينتظر الغذاء. لقد جرب طبخك يوم وصل من إسبانيا، وأظن أن تجربة واحدة تكفيه كي يعرف مهارة خالته.

لم تنتظر أن تكمل كلامها. توقفت ليلية وهي هي متجهة نحو المطبخ، وخلفها خالتها، على صرخة منها، فاستدارت مسرعة نحوها، فرأت خالتها تقلّب أوراق الملف الاجتماعي الذي أحضرته

ـ ما هذا يا ليلية؟!

حملت الأوراق بين يديها، بدون أن تنتظر الإجابة، ومشت نحوها وهي تلوح بها: ما الذي يحدث؟ ذلك اليوم أخبرتني أنك رأيت نسرين غزلان تبكي في الطائرة، ثم رأيتها تركض نحو ذلك الطبيب الذي كان صديق والدك، والآن تحضرين ملفاً يحتوي على أوراق تتعلق بحياة شقيقتها. هل قررت أن تعملي طبيبة نفسية يا ليلية؟ هل طلبت منك أن تبحثي لها عن أسباب بكائها أمام الناس... أهذا هو عمل قاضي التحقيق؟

تسرب في هذه الأثناء، إلى أذنهما، صوت المفتاح وهو يدور في قفل الباب الخارجي، وسرعان ما انفتح الباب

بصريره الذي بدا أكثر إزعاجاً من المعتاد، وظهر جانب من مهدي، وهو يدخل وخلفه مليك وقد غطى رقبته بوشاح من القطن. ما إن رأيا خالتهما بوجهها الملطخ بالفحم والعابس، حتى أسرعا بالقول في تناسق واحد: لا تقلقا، لقد أكلنا في مطعم في جبال الشريعة.

استدارت ليلية، لمجرد سماعها جبال الشريعة، وأعادت نطقها، كأنها تخضع لقوة غير مرئية، وتريثت قليلاً قبل أن تضيف: هل ذهبتما إلى جبال الشريعة؟

أومأ مليك، وهو يدنو من حامل المعطف، ويلف حول أحد أعمدته وشاحه: الطقس هناك جيد... لكني كنت آمل أن أزور ذلك المكان في جانفيي (كانون الثاني/يناير) عندما تتساقط الثلوج. إنه منظر رائع، خاصة أغصان الصنوبر التي تبقى لفترة طويلة مغطاة بالثلج.

ـ أجل.

زفرت ليلية بإعياء، وتابعت الحديث: قبل عشر سنوات من الآن، قُتلت سيدة لسبب مجهول، بكل برودة دم، ثم حُملت إلى أحد تلك الجبال، ورُميت هناك.

ترنح مهدي قليلاً إلى الوراء، كأنه تلقى ضربة في

صدره. أسرعت إليه فريال لتساعده على الجلوس، لكنه استعاد وعيه بسرعة، وقال بصوت خافت: لا بأس... لم يحدث شيء... أنا بخير.

ـ من الأفضل أن تصعد وتستلقي على السرير، سأذهب لتحضير...

قاطعتها ليلية، قبل أن تكمل كلامها، وقالت لها وهي تهرول إلى المطبخ: دعي لي مهمة تحضير الشراب الساخن.

حضرت ليلية الشراب الساخن، وسقته لأخيها، ثم نزلت إلى غرفة الجلوس. كانت خالتها تذرع الغرفة جيئة وذهابا في انتظارها. وفي الأريكة المقابلة، كان مليك يجلس بهدوء، متكئاً بذقنه على ظاهر يده، ومرفقه يستند إلى ذراع الأريكة. كان جلياً أنه لا يعير اهتماماً كبيراً لقلق خالته. كان يريد أن يصعد قليلاً، بعد رحلته المتعبة إلى جبال الشريعة، لكن خالته منعته من الصعود، بحجة أنها تريد أن تحدث ليلية في أمر مهم، وأن وجود شخص ثالث سيساعدها على إقناعها برأيها.

عندما ظهرت ليلية في أسفل السلم، بوجهها الشاحب، توقفت فريال عن المشي، وصوبت نظراتها نحوها، ثم قالت

لها بصوت مؤنب: لا تنتظري منا أن نتحدث معك في البهو، تعالي هنا.

مشت ليليلة غصباً عنها، إلى وسط قاعة الجلوس، وقالت بصوت ينم عن التعب والإرهاق: لديَّ ملف يجب أن أراجعه قبل الغد.

لكن فريال لم تُبد استعداداً لتركها تغرق في مكتبها بدون أن تفهم ماذا يفعل ملف شقيقة الممثلة نسرين غزلان عندها، ولماذا تجده عندها بعد أيام عدة من إخبارها ليلية أن نسرين كانت تبكي في الطائرة.

ـ هل ركضت خلفها لتعرضي عليها خدماتك. هل أنت واعية بمكانتك؟ هل تريدين أن تلطخي اسم والدك؟

ثم استدارت نحو مليك، وعيناها جاحظتان، ويداها ترتجفان: أرأيت يا مليك، ابنة خالتك وصلت إلى مستوى الركض وراء الفنانين لعرض خدماتها النفسية. وبدون أن تنتظر سماع رأي مليك، برغم معرفتها أنه سوف يقول لها إنها لا تفعل سوى تضخيم الأمور، استدارت بسرعة نحو ليلية، وقالت: ماذا طلبت منك أيتها الفتاة؟ إن هذا مهين جداً!!!

عادت إلى ذاكرتها، بطريقة لاواعية: زوج أختها. تذكرت كيف كان الناس يستديرون إليها، عندما تخبرهم أن ذلك المحقق ذا العينين الثاقبيتن مثل النصر، يكون زوج شقيقتها. وعندما مر في رأسها، أن ليلية لن تسلك مسار والدها، وسترضى بعمل بسيط، تقدمه إليها إحدى الفنانات الفاقدات العقل، ارتعش جفناها، ووخزت قلبها مرارة شديدة، فتابعت وهي تشعر بالحنق والمذلة:

ـ اتصلي بها، وأخبريها أن تبحث عن شخص آخر، يستمع إلى هذيانها... لن أحضر بعد اليوم مسرحياتها، سيعلّمها هذا أن تحترم بنات الناس.

شعرت ليلية بالضيق، وخاصة أن خالتها لم تتوقف لحظة عن عتابها:

ـ لن يمكنك أن تحضر إحدى مسرحياتها بعد اليوم.

علقت فريال مازحة، وفي عينيها تعبير القلق: انظري كم ستخسر هذه الفنانة، لأنني سأقنع صديقتي نجية أيضاً بعدم الذهاب إلى أي مسرحية لها.

طأطأت ليلية رأسها، وقالت بصوت متهدج: ليس هذا

ما قصدته، بل لأنها في هذه اللحظة، تكون في إحدى غرف المستشفى، وثمة طبيب يقوم بتشريح جسدها.

ترنحت فريال إلى الوراء، شاحبة الوجه، وهي تضع يدها على فمها لتكبت صرخة. كانت في مآقيها تلتمع دموع صغيرة متلألئة. استولى عليها الصمت لهنيهة، وهي تحدق في ابنة خالتها غير مصدقة، بينما رفع مليك نظره إلى ليلية، التي بدت متأثرة كثيراً، وقال لها: هل هي السيدة ذاتها التي حدثتني عنها قبل قليل، عندما كنا أمام الباب الخارجي؟

تركت ليلية منصة الاتهام، ومشت بخطوات صامتة نحو الأريكة القريبة من مليك، وجلست: لا أدري كيف سأشرح لك، لقد تقمصت إحداهما شخصية الأخرى بعد وفاتها.

كان يبدو أن الخالة قد استعادت وعيها من الصدمة، وجلست في مقابل ليلية، وعيناها الفضوليتان تحدقان بطريقة متواصلة فيها.

ـ هل هذا يعني أن التي قتلها الإرهابيون في ١٩٩٥، لم تكن مريم غزلان، بل نسرين غزلان؟

ـ عليك أن تعرفي أن التي ماتت في ١٩٩٥، كانت نسرين وليست مريم. أريدك أن تمحي من رأسك أن

الإرهابيين هم المسؤولون عن وفاة نسرين غزلان في ١٩٩٥، على الأقل موقتاً.

ـ لا أدري، ما الذي يقال في هذه المواقف الحساسة؟ هل هذا يعني أن التي كانت تصعد على خشبة المسرح لم تكن الممثلة، بل الصحافية... وأنا الحمقاء التي كنت أصفق لها بدون انقطاع.

ـ خالتي! أرجوكِ.

ـ حسناً، أفهم الآن لماذا مستواها تراجع بعد وفاة شقيقتها؟ لقد قلتُ لنجية إن هذه الممثلة لم تعد كما في سابق عهدها، وأخبرتها أيضاً، أن ذلك قد يكون ربما بسبب الصدمة التي سببتها لها وفاة شقيقتها.

صمتت قليلاً. رأت أن مزاحها لا يناسب الموضوع، لكنها سرعان ما قالت: إن كانت نسرين ماتت في ١٩٩٥، فمن قتلَ مريم؟

ـ لقد سُممتْ في مسرحيتها «نسرين ستموت الليلة»، التي عُرضت في التاسع من شهر آذار/مارس.

ارتعش وجه فريال، وتساقطت من عينيها، واحدة بعد

الأخرى، دموع كبيرة وثقيلة، فسارع مليك إلى النهوض، واقترب منها بخفة، وأمسك كلتا يديها، فحاولت أن تسحب يمناها، لكنه شدها بقوة، وهمس بحرارة: هدّئي من روعك يا خالتي.

غمغمت وهي تحدق فيه والعبرات تملأ عينيها: لقد قلتُ كلاماً سيئاً عنها، واتهمتها باستغلالية.

كانتْ ليلية قد اقتربتْ منها، في هذه الثواني، وأخذتْ يسراها من يد مليك، واحتضنتها، وألقتْ بالثانية على كتفها، كأنها تود أن تهدئ ارتعاش قامتها.

أخذتْ تهز رأسها، وهي تحاول بلا انقطاع سحب يديها من قبضة ولدي شقيقتيها.

ـ سأصعد لأخذ قسط من الراحة. إن هذا الخبر مؤلم، وأشعر بتأنيب الضمير.

كانت الخالة، قبل أن يعلق أحدهما بشيء، تمشي بخطوات خافتة نحو السلالم.

عندما اختفت في ظلمات السلالم العلوية، استدار مليك نحو ليلية، وقال لها: إن كنتِ تحتاجين إلى مساعدة مني، فاطلبيها مني. لا تنسي أنني طبيب... ثم جال بعينيه في

الغرفة، واتجه بخطى هادئة نحو الرف المثقل بالكتب، واختار واحداً، وجلس على أريكة بالقرب من المكتبة، وأمال ضوء عمود النور الذي كان إلى جانبه، حتى يتهادى أكبر كم من الضوء على صفحة الكتاب.

ابتسمت بدون أن تعلق، لابن خالتها، وضمت الملف إلى صدرها، وقالت بتردد: ربما سأحتاج إليك ليس كطبيب، بل كمساعد. أريد شخصاً يضع ثقته الكاملة بي، ويسير معي قدماً، وأنت كنتَ دائماً ابن الخالة الذي كان يضع ثقته العمياء بي.

ـ الأمر مختلف يا عزيزتي ليلية. ذلك الأمر يعود إلى زمن بعيد، عندما كنا صِبْية لا نعي شيئاً، وكنتُ أغمض عينيّ بالعصابة، وأتركك تقودينني بدون أن أخشى منك غدراً، بعكس شقيقك الذي كان يرمي بي دائماً في مسبح منزلكم... الآن الأمر مختلف. إن أمامك جريمة قتل، وأعتقد ـ بحسب ما فهمت ـ أنها متصلة بجريمة تعود إلى أكثر من عشر سنوات. إذاً، المسألة ليست من يصدقك أو لا. إن المشكل معقد. ففي النهاية ستوجهين إصبع اتهامك إلى أحدهم، ويقع على عاتقك حمل معرفة البريء من المجرم. وحتى إن أغلقت الملف ضد مجهول، فستكونين

بذلك تعرضين آخرين أبرياء لخطر هذا المجرم، وفي بعض الأحيان، يكون أسوأ الأمر الشك... أجل، ففي حالة بقاء القاتل مجهولاً، سيتراشق كل واحد فيهم نظرات الاتهام للآخر.

مكتبة

لاحظت ليلية كم أثرت السنوات في مليك، وجعلته إنساناً آخر؛ إنساناً يشعر بأن وجوده في هذا العالم هو للقيام بعمل ما من أجل البشرية. ومهما يكن هذا العمل بسيطاً أو حتى تافهاً، فعلى المرء القيام به بتفانٍ وإتقان، لأن الآخرين يعتمدون عليه، ولأنه مسؤول، وقيامه بهذه المهمة ليس صدفة.

مشت ليلية نحو الباب، وقالت عندما توقفت فوق عتبته: هل سترفض إن طلبت منك يوماً أن ترافقني إلى مكان الجريمة.

رفع عينيه. بدا لونهما ساحراً تحت ضوء العمود القوي، وأرسل إليها ابتسامة قصيرة: يمكنك دائماً أن تعتمدي عليّ.

أفاقت ليلية في صباح اليوم التالي، منهكة بعدما قضت الليل كله، تراجع الأوراق التي أحضرتها من مكتب وكيل الجمهورية... وعندما رفعت رأسها، رأت أنها قضت الليلة نائمة على مكتبها. كانت تشعر بألم رهيب في ظهرها،

وبتجمد رقبتها، واحتاجت إلى بعض الوقت، حتى نهضت من مكانها. كانت بعض الأوراق قد تكمشت من وطأة ثقل جسدها عليها، فسارعت إلى وضعها في كتاب كبير عن الحضارات، ووضعت فوقه عدداً من الكتب حتى تستعيد الأوراق شكلها، وذهبت في الوقت ذاته، إلى الحمام. أخذت حماماً دافئاً، جعلها تشعر بعظامها، بعدما كانت فقدت الإحساس بجسدها، ثم أسرعت وغيرت ملابسها. ارتدت كنزة من الصوف ذات خطوط متوازية سوداء وبيضاء بالتناوب، بثلاثة أرباع الكم، وأضافت سروالاً أسود، ولبست معطفاً واقياً من المطر. وعندما نزلت لتلبس حذاءها الطويل الساقين المصنوع من نسيج قطني، وبلاستيك، وجدت شقيقها قد استيقظ، وحضّر الفطور. لم تجد مانعاً من أن تضيع بعض الدقائق، ولتناول الفطور مع شقيقها. عندما ولجت إلى المطبخ، كان أخوها آنذاك يستعد للجلوس على الكرسي وفي يده كأس الحليب. وما إن رآها تدخل حتى همّ بالنهوض ليجلب لها كأس حليب. لكنها أوقفته بيده، وطلبت منه أن يجلس. وبدون أن يصر، جلس وقال لها، وهو يدير ملعقته في كأسه حتى تذوب قطع السكر.

ـ هل أنتِ ذاهبة إلى العمل؟

أومأت ليلية، وهي تجلس على الكرسي المقابل،

وترتدي حذاءها: أجل، لديّ قضية معقدة، ولن يهنأ لي بال حتى أجد من قتل نسرين غزلان.

ـ هل هي تلك السيدة التي حدثتنا عنها البارحة... التي قُتلتْ، أو حصل لها شيء من هذا القبيل في جبال الشريعة؟

ـ هذا جزء من القضية... الأمر ما زال في بدايته، وبينما لا أرى أي طريق أتبعها، أحتاج إلى الكثير من العمل قبل أن أهتدي إلى طرف خيط.

ـ ستجدين طرف خيط. كان أبي دائماً يقول هذا، إن وراء كل جريمة قتل آلافاً من الطرائق، لكنها كلها طرائق مضللة. وعلى المرء أن يسلك واحداً من هذه السبل على الأقل كي يقع في الطريق الصحيح.

ـ كان أبي يقول ذلك، من باب التواضع. فهو كان يعرف الفاعل من الوهلة الأولى.

ما إن أتمت لبس حذائها، حتى قفزت من مكانها، وذهبت إلى البهو لتجمع حقيبتها، وتحمل الأوراق، وقالت وهي تخرج من المطبخ:

ـ إن كنتما هذه المرة تريدان أن تتناولا الطعام خارج

المنزل، أخبرا خالتي. فالبارحة كاد يقع حريق في المنزل من أجل تحضير وجبتكما... طاب نهاركما.

ابتسم مهدي بدون أن يرفع عينيه عن كأسه، بينما كانت ليلية آنذاك تنزل درجات الباب الخارجي، وتركب سيارتها.

عند الساعة التاسعة والربع، كانت ثمة فتاة شابة تدخل مكتبها، وهي تحمل فنجان الشاي مع بسكويت رقيق، وتمشي برشاقة نحو مكتب قاضية التحقيق. وضعت فنجان الشاي مع البسكويت على المكتب، وغمغمت: الشاي... هل تريدين شيئاً آخر؟

كانت ليلية غارقة في قراءة محاضر الشرطة، والاستجوابات الأولية، وكذا تقرير الطبيب الشرعي، واكتفت برفع يدها في إشارة إلى أنها لا تريد شيئاً إضافياً.

غرقت ليلية في قراءة الأوراق التي كانت على مكتبها، بعدما خرجت الفتاة، ولم تستفق من غرقها في الأوراق إلا عندما رن الهاتف الذي كان إلى يمينها، فانتفضت مذعورة، ثم سارعت إلى رفع السماعة إلى أذنها بعد أن رأت اسم رياض يظهر على الهاتف:

ـ هل أنت غارقة في القراءة؟

ـ أجل، لم يخطئ ذلك الطبيب، فالسم كان حقاً في فطر أمانيت السام ذي القبعة البيضاء.

ـ هل تقبلين دعوة شيخ عجوز إلى الغداء لنناقش كل ما يوجد في محاضر الشرطة، أم تفضلين مكتب المحكمة العفن، مع رائحة أوراق الأرشيف الكريهة التي تصعد إلينا من القبو.

ـ أذكرك بأنك لست عجوزاً، فأنت لم تتجاوز الخمسين. لكن لا أظن أن موضوع جريمة القتل سيكون شيقاً مع وجبة غداء دسمة.

ـ أنتِ التي أردت هذا، لم يكن يجدر بك أن تختار القضاء كتخصص بعد أن حصلت على ليسانس في القانون.

ـ أنتَ تعرف أكثر مني، أنه لم تكن يوماً رغبتي في أن أكون محققة، أو حتى أن أعمل في مجال القانون... لقد عملتَ مع والدي لفترة طويلة، أظن أنك تعرفت إلى طبعه المسيطر.

قبل أن تكمل كلامها، أرسل رياض ضحكة ساخرة، ثم قال بصوت مازح: لقد مرت خمس دقائق على دعوتي، لكن حتى هذه اللحظة لم تجيبيني: هل ترفضين الدعوة؟

ـ أوه! أيها الوكيل، كأنك تعرض عليّ دعوة رومانسية. سآتي. هل تريدنا أن نتقابل في مطعم في حيدرة، أم في وسط العاصمة؟

ـ أفضّل مطعماً في حيدرة. أعرف واحداً هناك، بالقرب منه مرأب للسيارات، وهذا يناسبك. أعرف كم تتذمرين عندما لا تجدين أين تركنين سيارتك.

ـ أيها الوكيل!

عند الساعة الثانية عشرة والربع، كانت ليلية جالسة على كرسي مغطى بقماس أبيض ناصع، في مطعم الفنك. كان مطعماً فاخراً، بكراسيه الجيدة، وطاولاته المصنوعة من الخشب الرفيع، حتى الخدمة كانت كاملة... كانت ليلية قد نزعت معطفها، وتكفل به شاب أسمر البشرة بتعليقه على حاملة المعاطف الأقرب إلى طاولتهما، بينما ذهب رياض إلى الحمام لغسل يديه، بعد أن طلب من الخادم قائمة الطعام التي سيحضرها إليهما، وعندما عاد، رشق ليلية بابتسامة هادئة.

ـ أكان ضرورياً أن تأتي بي إلى هذا المطعم الفاخر من أجل مناقشة جريمة قتل؟

ـ آه، يا عزيزتي ليلية، إنك نكدية. العقل السليم يحتاج إلى غذاء جيد ونظيف. إني لا أثق بالمطاعم الصغيرة ذات الأطباق الزهيدة. كيف يمكن طبقاً زهيداً أن يُدخل نقوداً كثيرة، تكفي لنقد الطباخين، والخدم، وفي النهاية لتوفير وسائل التنظيف، وخاصة تجديد الأواني وآلة الطبخ.

أسلمت ليلية للأمر، ورأت أن فكرة رياض لا بأس بها. قررت أن تستغل هذه الفرصة لتناول وجبة مغذية، خاصة أن الأطباق التي تحضرها خالتها لا تشجع أحداً على العودة إلى المنزل لتناول الطعام.

ـ ما رأيك في ما قرأتِ؟

ـ الطبيب الشرعي، رجح وقت التسمم عند الساعة الثامنة عشرة والنصف، وليس قبل، لأن الأمانيت يحتاج إلى ثماني ساعات قبل أن يقتل الذي تناوله. لكن عند الساعة الثامنة عشرة ونصف، كانت نسرين على خشبة المسرح أمام أعين المئات تمثل دورها في مسرحية «نسرين ستموت الليلة»، أي أن وقت الجريمة قبل ذلك... فعند الساعة الثامنة عشرة والنصف كان الفطر فوق البيتزا.

ـ لقد استعلمت عن البيتزا من المطعم الذي جُلبت منه. قال صاحب المطعم إنه أرسل البيتزا عند الساعة السابعة

عشرة وخمسين دقيقة إلى المسرح الوطني، وقام بإيصال البيتزا عامل لديه، وهو شاب في العشرين نحيل وقليل الكلام، كان يجهل أن البيتزا سيمثل بها في المسرحية. أعتقدَ أن أحد الموظفين في المسرح، أراد أن يأكل البيتزا.

ـ إذاً، يمكننا إلغاء صبي المحل من قائمة المشتبه فيهم... ومن تسلم البيتزا؟

ـ قام بتسليم البيتزا إلى عامل المسرح، الذي وضعها مباشرة في غرفة الكواليس.

ـ كم كانت الساعة؟

تقدم منه في هذه الأثناء، شاب طويل القامة، ذو هندام مرتب، وشديد الأناقة، مع ياقة سوداء تطوق عنقه الهزيل. يجر أمامه عربة صغيرة، كانت الأطباق التي طلبها رياض موضوعة عليها في ديكور أخاذ.

ـ أطلبت هذا كله؟

ـ لا أحظى كل يوم برفقة شابة جميلة مثلك.

انحنى الشاب الطويل، ووضع الأطباق على الطاولة. وعندما وضع طبق الفطر تحت أنف ليلية، انتفضت ونظرت إليه بنظرات غير مصدقة: هل طلبت فطراً؟

أومأ رياض برأسه بهدوء غريب، وقال وهو يمد سكينه لتقطيع الفطر.

ـ أجل، إن هذا الفطر محشو بالسمك، وهو مغذ... ألم يعجبك؟ أأطلب طبقاً آخر؟

ارتبكت ليلية، وشعرت بالحرج، وقالت متلعثمة:

ـ ليس هذا ما قصدت، لكن... يا إلهي! إني أجد الأمر غريباً، فنسرين قُتلتْ بفطر سام، ثم نأتي إلى هذا المطعم كي نتحدث عن الجريمة، وأول شيء نأكله هو الفطر.

أرسل رياض رأسه إلى الوراء، وهو يضحك. وبعد أن أنهى ضحكاته قال لها: أيتها الفتاة الذكية! لقد خشيت عليك أن تتعقدي من الفطر بعد ما حدث لنسرين غزلان... دعيني أكمل من فضلك، لقد رأيت شريطاً عن الطيارين في الحرب العالمية الثانية، كانوا عندما تتحطم طائرة الطيار، أول شيء يقومون به على الفور، هو حمل الطيار وإركابه طائرة أخرى، حتى لا يعاني في المستقبل الرهاب... وفكرت في أن أول شيء يجب أن أقوم به هو دعوتك على وجبة فطر شهية، حتى لا يرتبط الفطر بجريمة قتل، بل بوجبة غداء رائعة... ومميزة.

زفرت ليلية، واستسلمت للأمر، ففي النهاية، كانت رائحة الفطر الذي خرج للتو من الفرن، زكية ومغرية. وبينما هي تتذوق الطبق أمامها، واصل رياض نقاشهما:

ـ قال عامل المسرح إنه عندما وضع علبة البيتزا فوق الطاولة في إحدى غرف الكواليس، سمع تصفيق الجمهور، أي نهاية الفصل الأول، وهذا يعني أن الساعة كانت تشير إلى الثامنة عشرة.

رفعت ليلية حاجبيها، وهي تمضغ قطعة الفطر، وقالت بدون أن تضيع لحظة:

ـ ثم تركت البيتزا وحدها حتى بداية الفصل الثاني، أي الثامنة عشرة وعشر دقائق.

وجه رياض نظرة سريعة إليها، وقد اكتسى وجهه بملامح الجدية، وسألها بشيء من الارتياب:

ـ ما رأيك إلى حد الآن؟ هل يبدو لك وقت الجريمة واضحاً.

توقفت ليلية عن الأكل، وثبتت نظرها في وجه وكيل الجمهورية، ووضعت أطراف أصابعها في مقابل بعضها البعض، كأنها تستعد لتلقي نظرية جديدة.

ـ أولاً، إن اعتبرنا أن كلاً من عاملي محل البيتزا والمسرح يقول الحقيقة... برغم أنني لا أشك في احتمال أنهما يكذبان. . . فهذا يجعل وقت ارتكاب الجريمة في الدقائق العشر الفاصلة عن الفصل الأول. وثانياً... أحدهم كان يحمل في جعبته الفطر السام، وذهب إلى إحدى غرف الكواليس، لينفذ خطته البشعة.

تمدد رياض على كرسيه، وفرك ذقنه، ثم قال:

ـ إذا تصورنا الجريمة وقعت كما ذكرت... فهذا سيفتح علينا أبواب الجحيم، لأننا سنكون أمام قائمة طويلة للمشتبه فيهم.

قاطعته ليلية وحماسة كبيرة تشع من عينيها، لكن رياض لم يبال بهذه الحماسة التي يأتي بها قضاة التحقيق الجدد، الذين يجهلون الكثير عن الواقع العملي، ويتقنون فقط تكرار نظرية لامبروز، أو تلك النظرية عن كروموزوم الجريمة. لكنه أبعد عنه هذه الفكرة لوهلة حتى يسمع عرض ليلية:

ـ على العكس، بل يمكننا أن نقلص عدداً كبيراً من الأشخاص من هذه القائمة. محاضر الشرطة مفيدة في هذه النقطة... الجمهور لا يمكنه دخول غرف الكواليس. مهندس

الصوت، كان يراقب من الشرفة الثالثة للمسرح، ولم ينزل إلى الخشبة إلا في نهاية المسرحية... ليس الجميع يمكنه الدخول إلى تلك الغرف. وحدهم موظفو المسرح، بالإضافة إلى عائلة الممثلة، كان يسمح لهم بالدخول

لم يبد على رياض أنه تحمس لهذا الكم الهائل من الأشخاص الذين غادروا قائمة المشتبه فيهم، وقال كمن يرى نصف الكأس الفارغ، ولا يرى النصف الممتلئ الآخر.

ـ حسناً، لقد قرأت محاضر الشرطة، وقرأت الشهادات الأولية لعمال المسرح وعائلتها أيضاً... وأعترف بأنها مفيدة، فلقد قلصت لنا كماً هائلاً من الأشخاص... بقي لنا المخرج، ومهندس الإضاءة ومساعدوه، والممثلون، وأعوان الأمن، والعائلة.

كان يبدو أن هذه النبرة اليائسة التي أخذ رياض يتحدث بها، لم تكسر عزيمة ليلية التي أخذت تعرض بكل قوة، رأيها في المسألة:

ـ أجل، برغم أن القائمة تقلصت بعض الشيء، لكن يمكننا أن نقلصها أكثر.

رفع رياض عينيه إليها، وهو الذي كان يهب بغرس شوكته في صحن السَّلَطة، ولمع في عينيه وميض الاهتمام. وعندما رأت ليلية أنه يسمعها بعقله هذه المرة، قالت:

ـ من بين هؤلاء الأشخاص، أحدهم كان يعرف أن قطعة البيتزا، كانت ستحضر ويمثل بها... أحدهم كان يعرف سيناريو المسرحية، أو على الأقل أن هناك بيتزا في الفصل الثاني من المسرحية... ومن بين هذه القائمة سنقصي أعوان الأمن، لأنهم عادة ما يحضرون للسهر على الأمن والسلم داخل المسرح وخارجه بدون أن يقدم إليهم عرض مفصل بموضوع المسرحية. يبقى لدينا، المخرج، والممثلون، وعائلتها، إن كانت قد أخبرتهم بموضوع المسرحية، وذكرت هذا التفصيل.

عندما أنهت عرضها، استقام رياض في جلسته، وتريث قليلاً يستجمع ما قالته له ليلية، وقال وهو يرتب أفكاره بصوت مرتفع:

ـ المسرحية بدأت عند الساعة ١٧,١٥، وانتهى الفصل الأول الساعة ١٨,٠٠، أعطيت للجمهور عشر دقائق للراحة والتحرك، ثم أُعيدت إزاحة الستار عند الساعة ١٨,١٠،

وانتهت المسرحية عند ١٩,٠٠، أحدهم استغل تلك الدقائق العشر للراحة، لوضع الفطر السام فوق البيتزا.

ـ لدي تحركات المشتبه فيهم في خلال الدقائق العشر الفاصلة بين فصلي المسرحية: مهندس الإضاءة لا يمكنه أن يكون هو الفاعل، لأنه كان يراجع مع عامليه، أضواء الفصل الثاني. أما مجموعة الممثلين، الذين كانوا واقفين مع المخرج في نهاية السلم المؤدي إلى غرف الكواليس، فقد كانوا يقيّمون عملهم، وكانت معهم نسرين. شخص واحد استأذن، وذهب مباشرة إلى غرف الكواليس: الممثلة ندى عبد السلام، التي تقوم بدور الإرهابية الجاسوسة في المسرحية.

أطرق رياض برأسه، وقال هو يمضغ حبة زيتون: إذاً، من بين القائمة التي كانت لدينا، بقي لنا شخص واحد، هو ندى عبد السلام. وعائلتها... ماذا عن عائلتها؟

أخرجت ليلية دفتراً وردي اللون من حقيبتها، وكانت تسجل فيه كل الملاحظات عندما كانت في مكتبها تراجع الأوراق والوثائق.

ـ نبدأ بالعجوز ياسمين. تعاني شللاً بسبب نزف دماغي. شخصية صعبة، تعاني حب الاستعباد والسيطرة.

تقوم برعايتها ممرضة خاصة، اسمها ليندة، كانت موظفة بسيطة في شركة للمياه في تلمسان، ثم عندما قرأت إعلاناً يبحث عن ممرضة لامرأة مشلولة، تركت الوظيفة. في السنة ذاتها، تخلى عنها خطيبها بسبب مشاكل مادية، وخطب فتاة أخرى يقال إنها ثرية. وفي العام ذاته أيضاً، توفيت والدتها في انفجار قنبلة أمام السوق الشعبية في تلمسان. أخشى أن تكون هذه الفتاة تعاني اضطرابات عقلية بسبب ما حدث لها. ثمة أيضاً ابن أخت العجوز ياسمين سمير: شاب طموح لا يثنيه شيء، عمل مع خالته في إدارة شركاتها، ويعود الفضل إليه في تطور أعمال العجوز ياسمين وازدهارها. كان يعيش في شقة في شارع الإخوة خلادي في وسط العاصمة، ثم تزوج قبل أسبوع من قدوم مريم إلى العاصمة، بامرأة تدعى ليلى عراس، وهي فتاة بسيطة كانت تعمل في مصنع خياطة لفترة زمنية طويلة، لكنها توقفت عن العمل عندما تزوجت بسبب اضطرابات بصرية. ثمة أيضاً فتاة تدعى مونية، وهي فتاة ساذجة من الملجأ، أحضرتها العجوز ياسمين لتربيتها. تزوجت بشاب يقال إن له ماضياً سيئاً، فلقد دخل السجن مرتين بتهمة سرقة السيارات.

أنصت رياض، ثم سأل باهتمام واضح: ماذا عن زوج نسرين (مريم الحقيقية)؟

أدارت ليلية الصفحة، وقالت وهي تنظر من حين إلى

آخر إلى دفترها: إنه مخرج مسرحي، تزوجت به نسرين (مريم الحقيقية) في ١٩٩٧ ورُزقت بطفلين... قرأت في إحدى الصحف في موضوع عن نسرين غزلان، أنه شخص هادئ، يعيش حياة مستقيمة. لم تكن له أي علاقة حميمة مع أفراد عائلتها. ترك العمل المسرحي بعد أن تزوج بنسرين. يحب السفر والترحال، كان مؤخراً في تمنراست في مهرجان للسياحة.

أطلق وكيل الجمهورية زفيراً عميقاً. كان يبدو أنه لا يهتم بما تكتبه الصحف عن الفنانين.

ـ حسناً، لا أرى أن أحدهم سيستفيد من موت نسرين (مريم الحقيقية). وماذا عن الجانب المالي؟ كم تقدر ثروتها؟ ومن كان سيستفيد إن ماتت؟

أغلقت في هذه الأثناء، دفترها، وتناولت شوكتها وأخذت تلتهم الفطر الذي أخذ مذاقاً آخر بعد أن برد، وقالت بارتياب:

ـ لا يمكن أن نصف المال الذي تملكه بأنه ثروة. لا تملك منزلاً خاصاً بها، بل تعيش في منزل جدتها مع بقية الأفراد. أعتقد أن العجوز ياسمين أرادت أن تجمع الجميع

تحت سقفها. فلو قُتلتْ العجوز ياسمين، لكان الدافع الأول والقوي هو المال والتحرر.

ـ حسناً، وماذا عن الشخص الذي أصيب بالإغماء في المستشفى؟

ـ يدعى سمير، وهو ابن شقيقة العجوز ياسمين... نُقل إلى مستشفى الأمراض العصبية. أعتقد أنه تعرض لانهيار عصبي حاد... لكن، لا أستطيع أن أعتمد على ما قالته زوجته ليلى في محضر الشرطة، سأتحقق بنفسي إن تعرض حقاً لانهيار عصبي، أم أنه يتظاهر بذلك ليتهرب من الاستجواب... وإن كان حقاً تعرض لانهيار عصبي، فأريد أن أعرف ما هو السبب

مسح رياض فمه بمنديل أبيض، وقال كأنه يختم المحادثة:

ـ حسناً، أقترح استدعاء عائلتها. وكذلك ندى عبد السلام لاستجواب رسمي

دفع رياض الحساب، وخرجا معاً إلى مرأب السيارات. وبينما هما يمشيان بخطوات بطيئة نحو سيارتهما، قالت

ليلية، وبدا أن هذه الفكرة لم تأتها حديثاً، بل راودتها عندما كانت ترتدي معطفها، ورأت مقالاً في جريدة ملقاة على طاولة في قاعة الانتظار التي ينتظر فيها الزبائن عامل المطعم إلى أن يحضر سيارتهم. يعلن وفاة نسرين غزلان في عنوان مثير «نسرين غزلان تموت في أخر مسرحياتها».

ـ ألا ترى معي أن ثمة شيئاً غريباً ومبهماً في عنوان المسرحية التي عرضتها البارحة نسرين غزلان (مريم الحقيقية)؟

توقف رياض عن المشي، وقد تنبه إلى ما كانت ترمي إليه ليلية

ـ هل تعتقدين أنها مصادفة، أم شيء مدبر؟ هذا العنوان «نسرين ستموت الليلة»، يبدو أنه كان نذيراً بالموت.

حدقت فيه ليلية لوهلة، ثم قالت: لا أستطيع أن أعطي رأيي في هذا الموضوع. إذا كان الأمر مصادفة فهذا شيء، لكن إن كان الأمر مدبراً، فهذا يعقّد المسألة ويشبكها أكثر فأكثر.

ـ هل ترين ضرورة البدء باستجواب عائلتها أم زملائها في العمل؟

ـ أقترح أن نبدأ من عائلتها، ففي كلتا الحالتين نحن نبحث عمّن يكنّ الضغينة لمريم، وأعتقد أننا سنجد الإجابة في عائلتها... وإن كنت لا أستهين بما سيجلبه لنا تحقيق مع عمال المسرح.

الفصل السابع

التحقيق الابتدائي

دخلت ليلى مكتب قاضية التحقيق بخطوات هادئة، كانت أشبه بخطوات ممثلة على خشبة المسرح. جلست على كرسي بالقرب من مكتبها، بعدما ألقت نظرة فاحصة على الكاتب ذي النظرات الضيقة، وليلية تنهدت بعمق.

نظرت إلى ليلية بعينين حزينتين. كان تعبيرها يدعو إلى الرثاء. بدا أنها تريد أن توضح كل شيء كي لا يكون في المسألة شك، وأن تغادر هذا المكان في أسرع وقت.

- سنسمع شهادتك سيدة ليلى فارس. شهادتك ستُكتب ويسجلها الكاتب الموجود في هذه الحجرة... من واجبي أن أعلمكِ بأنك حرة في إدلاء شهادتك أو الرفض، وأعلمك بأن لك الحق في طلب حضور محاميك إذا أردت ذلك.

- كلامك مرعب. مجرد سماع هذا الكلام يُشعر المرء بالقشعريرة.

ـ نحن نحرص على ألا يكون غموض أو لبس أثناء تأدية وظيفتنا.

ـ هل كل ما سأقوله يمكن أن يُحسَب ضدي؟

ـ ليس الأمر هكذا... كل ما تقولينه يمكن أن يُستعمل كشهادة... حسناً، هل حضرت يوم عرض مسرحية «نسرين ستموت الليلة»؟

ـ أجل، الجميع حضر. . . حتى العجوز ياسمين التي تدعي أن هذا النوع من الفنون لا يروق لها... وأن أغاني عبد الحليم الحافظ تريح أعصابها.

لم تترك لها ليلية فرصة أن تسرح في أفكارها، فسألتها: هل لاحظت شيئاً غريباً يوم العرض؟

كان يبدو أن ليلية تفوهت بكلام. فبمجرد أن سمعت ليلى السؤال، حتى احمر وجهها، وتلبد لونه، وابتلعت ريقها بصعوبة، وقالت في النهاية:

ـ غريب، مثل ماذا؟

ـ هل لاحظتِ شخصاً يغادر مقاعد المسرحية، ويتجه إلى غرفة الكواليس في فترة الراحة، التي تفصل الفصل

الأول عن الثاني، أي بين الثامنة عشرة والثامنة عشرة وعشر دقائق؟

تريثت ليلى، تحيي في ذهنها صور ذلك اليوم، وقالت:

ـ لا أدري... أعتقد أنه في تلك الفترة كان الجميع متفرغاً للقيام بشيء معين، وأظن أنني استغللت تلك الدقائق العشر، لآخذ صوراً لي أمام خشبة المسرح. ثم عند الساعة ١٨,٠٤، قررت أن ألتقط صوراً لي أمام باب المسرح الوطني. إني أحب زخرفة بوابته... آه، تذكرت، لقد رأيت مروان يدخل عند رواق غرف الكواليس في الوقت الذي مررت به من هناك كي أذهب إلى خارج المسرح، وتجهم وجهه عندما رآني. ثم قال إنه يبحث عن الحمام، فيداه تعانيان التعرق وسوف يتناول دواءه... لكنه شخص غبي، أحمق وانتهازي، ورائحته كرائحة كالتيس... والناس يقولون إن له ماضياً مريراً... لكن، لا أعرف ماذا يقصدون؟ إن مثل هذه العبارات عادة ما تطلق على امرأة ذات ماض غير شريف، وغير نظيف، لكن لا أعتقد أن الأمر يبدو كذلك مع مروان... أظن أن سجله مليء بالسوابق العدلية، وأيضاً هو يتحدر من عائلة منحرفة، وإلا لما قبل الزواج بمونية.

لفظت اسم مونية بطريقة، كأنها حشرة مقززة.

نظرت إليها ليلية لوهلة، وتابعت أسئلتها:

ـ هل تعرفت إلى شقيقة نسرين... أقصد مريم غزلان؟

ـ لقد تزوجتُ بسمير في ١٩٩٤، وانتقلت إلى العيش في منزل خالته في شارع إخوة خلادي. كان آنذاك قد باع شقته... جاءت بعد أسبوع من تلمسان. أعتقد أنها قالت إنها حصلت على ترقية.. أو شيء من هذا... كانت شخصاً لا يتوانى عن فعل أي شيء من أجل تحقيق غرضها.

ـ غرضها... ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أنها خاطرت بنفسها مرات عدة، حتى حصلت على تلك الوظيفة: صحافية في جريدة «الأحداث الساخنة»... أعلم بأنها جريدة يتمنى أي شخص أن يعمل فيها، لكن لن أخاطر بحياتي من أجل العمل في صحيفة.

ـ أكان هذا حقاً غرضها؟ أكانت تخاطر بنفسها وحياتها من أجل الحصول على الترقيات في جريدة «الأحداث الساخنة».

ـ أكيد! ثم كيف تفسر خطفها من طرف الإرهابيين، إن لم تكن قد حشرت نفسها في أمور لا تعنيها... لم يكن شيء يوقفها. كانت تكتب بدون خوف، وبعبارات ساخنة.

ـ الآن، سأسألك سؤالاً سيدة ليلى، وأرجو أن تكوني دقيقة في إجابتك: هل يمكن أن تحددي مكان الجميع وتحركاتهم في لحظة ما بين الثامنة عشرة والثامنة عشرة وعشر دقائق؟

ـ العجوز ياسمين، كانت جالسة، ثم نامت. إن هذا النوع من السهرات لا يلائم العجائز، ولا أدري كيف كانت ستقوم بتدبير أمور ممتلكاتها، إذا لم يُخلق سمير في الكون.

ـ وأين كان زوجك سمير؟

لا أدري... ربما كعادته راح يدخن سجائره... إنه لا يسمع كلامي، يدخن، ويدخن.... لقد سألته ذات مرة: إلى متى؟ لكنه لم يجبني...

ـ وأين كان البقية؟

ـ كانت مونية جالسة مع ابنها إلى جانب العجوز ياسمين. ومروان التقيت به أمام الرواق المؤدي إلى غرف الكواليس. وتلك الخادمة التي ينادونها الممرضة، كانت تتحدث مع أحد رجال الأمن... كان منظرها مخيباً. شاهدتها تضحك وتثرثر كأنها تعرفه منذ زمن... إنها من فصيلة مروان.

حملقت القاضية فيها باهتمام وقالت:

ـ سيدتي، هل كنت تستطعين التمييز بين مريم ونسرين؟

ـ بالطبع... إنهما غير متشابهتين.

ـ حتى وأنت تضعين هذه النظارات ذات الزجاج السميك؟

ـ النظر ليس وسيلة للتمييز وحده. ثم إن حواسي الأخرى ما زالت سليمة. إن نظري بدأ يخف في السنوات الأخيرة... وقبله، كنت أستطيع أن أرى نملة في الظلام الحالك.

ـ لا أشك في ذلك... هل تخبريني كيف كانت نسرين غزلان صباح يوم عرض المسرحية؟

ـ كانت هادئة... سألت مونية ماذا سترتدي للسهرة، فأخبرتها أن لديها طقماً جيداً ستلبسه، ثم سألتني ماذا سألبس كحذاء، فأجبتها بأنني سأرتدي حذائي الأحمر العالي، الذي كان ينتهي في الأسفل، بصفيحة حديدية ذهبية اللون.

ـ حسناً، شكراً لك يا سيدتي... أرجو ألا ترددي في الاتصال بي إن تذكرت شيئاً مهماً.

مطّت ليلى شفتيها، وقالت باشمئزاز:

ـ أنصحك بأن تحققي مع ذلك التيس، مروان. أحياناً، يتصرف بغرابة... إنه مختل عقلياً.

ـ سوف نعمل بنصيحتك. أرجو أن توقعي شهادتك، سيدتي.

أرخى عدلان رأسه على ظهر الكرسي، وتنهد بعمق وهو ينظر إلى ما وراء النافذة. كان الغروب يخيم على المكان، مُغرقاً المدينة في أجواء حزينة. غروب الشمس يبعث في مدنية الجزائر نوعاً من النفور والأسى في آن معاً، خاصة عندما تهرق السماء أمطارها الحزينة.

كانت أشباح الماضي تقرر، في هذا الوقت الذي يسبق الظلام الدامس، الظهور من جديد بدون إنذار سابق: دخان كثيف يتصاعد من أرضية مبتلة؛ همسات خافتة ترتفع من ساحة داخلية لأحد المنازل؛ ظل مسرع يركض بين ظلال الناس؛ وفجأة جزء من حياتك كنتَ تفضل أن يغرق في الماضي، يطفو في حاضرك لينكأ جراحك من جديد.

رفع عدلان وجهه نحو السماء، وأخذ يركز على همسات الأمطار تتلاطم فوق أوراق الأشجار التي تتدلى

على حديقة المنزل. وفجأة، في هذا الجو الذي يجعل أسرارك الدفينة تحيا من جديد، انزلقت ذكرى تعود إلى الماضي البعيد إلى السنوات الغابرة.

كانت ثمة فتاة ترتدي فستاناً زهرياً تنتظره أمام باب الحديقة. . . تقفز من شدة الفرح عندما يعود، وبسمة زاهرة تغلف تقاطيع وجهها. كانت تقول دائماً بتلك اللهجة المستعجلة: ها قد أتيت، كنتُ بدأت أشك في أنك لن تأتي.

وكان هو يطير إليها بجناح من السعادة.

ـ لا تقولي هذا. لا تفكري في هذا إطلاقاً. أنتِ تعلمين بأنك لست نوع الفتيات اللواتي يُتركن ينتظرن ساعات طويلة.

ـ لماذا تقول هذا؟

ـ لأن الشاب الذي حصل على فرصة لقائك، يكون أحمق إن تركك تنتظرينه مدة طويلة.

ـ وأنتَ لستَ أحمق، أليس كذلك يا عدلان.

ـ بالطبع لا. على العكس، أنا أدرك أنني أسعد إنسان

في الوجود، وهذه النعمة لن أبدلها بأي شيء في العالم، أعدك بذلك.

كيف اندثرت هذه الذكريات؟ كيف أصبحت مشاعرها الجياشة رماداً بارداً؟

أيُعقل أن تكون تلك الأحاسيس التي جمعتها مع نسرين، مجرد وهم، كذبة.

«يا إلهي ساعدني، هل كنتُ أنا أحمق الروايات الذي يكون أخر من يعرف»، قال عدلان في سره.

الماضي... دائماً الماضي يعود ليرمي بثقله عليه. قطع عدلان إرادياً مجرى تفكيره، وأعاد الذكريات إلى صندوق الماضي.

أطفأ النور، وذهب إلى فراشه، فغداً سيكون نهاراً شاقاً.

دخل عدلان مصباحي مكتب ليلية، ينهشه الأسى.

قدمت إليه ليلية كرسياً ليجلس. وبينما هو يرمي جسده عليه ببطء، قالت ليلية في سرها: «أهذا المسافر الذي لا يتوقف؟ أحقاً كان هذا الشخص القوي البينة، ذو القسمات

الشرسة، يحب الترحال؟ أم أنها وسيلة للهروب من شيء مجهول؟».

كان يبدو من ملامحه، أنه منزعج من هذه الإجراءات المرهقة، وبدون فائدة.

ـ أقدم إليك تعازيّ الحارة. أنا أفهم ما معنى أن تفقد زوجتك وأم ولديك.

بدأت ليلية حديثها هكذا، بدون أن تدخل مباشرة في أسئلة روتينية، اعتادوا عليها من استجوابات الشرطة القضائية.

أرخى معطفه عن كتفيه وفك رباط عنقه والزرين الأولين لقميصه، وقال وهو ينظر إلى ما فوق رأس القاضية:

ـ هذا لا يعني شيئاً... من فضلك أن تسرعي في أسئلتكِ.

فاجأتها نبرته الجافة. تريثت ليلية لوهلة، ثم رمت سؤالها بوتيرة نبرتها الأولى: لم تكونا على وفاق؟

ضاقت عينا عدلان، وهما تنظران هذه المرة إلى وجه ليلية، وقال بوقاحة واضحة:

ـ هذا لا يهم، ولا أعتقد أنه يهم أحداً إن كنا على

وفاق أم لا... الجميع يصفونني في هذا المنزل الذي تفوح منه رائحة الشر، باللامبالي، والشخص الذي يأخذ حقيبته عندما تتأزم الأمور ويسافر. لكني كنت أرى في حركتهم السريعة، واضطرابهم الغريب، وفوضاهم العارمة، ما كان يمر تحت أرجلهم. يدّعون أنهم عائلة، لكنهم جميعهم كانوا مجموعة أفراد يعيشون تحت سقف واحد، ولا تربطهم ببعضهم البعض إلا علاقة بعيدة.

ـ ماذا كان يمر تحت أرجلهم؟

مال بجسده على المكتب. كان يبدو أنه سيهمس في أذن ليلية أمراً. . .

ـ لقد كانت على علاقة مع أحد... أعلم بهذا، بل أنا متأكد. لا أقصد علاقة مشبوهة... كانت تستلم رسائل سرية من شخص ما في المنزل، أعتقد أنه يستعمل الحبر السري، أو شيئاً من هذا القبيل. كم من مرة دخلت البيت، فترتبك وتحاول جاهدة إخفاء تلك الرسائل، وتارة الرسائل تكون مكتوبة خلف صحن الطعام، ومرة فوق السطح الحديدي لحقيبة يدها. وذات يوم، فجأتها تقرب ورقة بيضاء من شمعة مشتعلة. كنتُ أتظاهر بأنني لم ألحظ شيئاً، لكني كنت أرى كل شيء، كنتُ أرى كل ما يحدث.

ـ وهل كنت تعرف من هو هذا الشخص الذي كان يبعث إليها... الرسائل السرية؟

ـ لا أدري... لو كنتُ أعرف! لتغيرت أمور كثيرة.

ـ هل يمكن أن تخمن من يمكن أن يرتكب هذه الجريمة؟

ـ لا أدري، قد يكون أحد المعجبين بفنها، فهي غامضة جداً، ولا أعرف شيئاً عنها... لقد أدركت مؤخراً أنني لا أعرف زوجتي. ففي تلك الشهور الماضية، كانت تبكي بدون سبب. كم من مرة سألتها عما يزعجها، وكانت تحجم عن الجواب. لقد انفصلت عنها وعن عائلتها معنوياً منذ زمن، واتخذتُ حياة الترحال والسفر عزاءً لي. فالجميع تحوم حوله غمامة الغموض.

لكن، برغم مظاهر عدم الاكتراث التي كانت تغلف وجهه، إلا أنه كان شاحباً مثل حبة دواء مضاد لآلام الرأس. كان يبدو منهاراً على الكرسي أكثر منه جالساً.

ـ هل لاحظت بعض التغيرات المفاجئة في تصرفاتها في هذه الآونة الأخيرة، وهل لمست تغيراً جذرياً في

شخصيتها؟ هل شرعت في الانزعاج والغضب أكثر مما كانت عليه في السابق؟ وهل بدا كأن في الأمر قضية مخفية.

ـ لا، لا أظن أنني لاحظت شيئاً بخلاف الرسائل السرية اللعينة.

ـ إن استطعت وصف زوجتك في كلمة واحدة، فأي وصف تختاره؟

جفل عدلان لهذا السؤال، ثم طأطأ رأسه قليلاً، وقال:

ـ حسناً... لا أدري... سأقول إنها طموحة.

ـ هل قلتَ طموحة؟

أزعج هذا السؤال عدلان، فغير جلسته، وأخذ موقعاً مقابلاً للنافذة المجاورة لمكتب ليلية.

ـ هذه هي الحقيقة، فزوجتي كانت كمن نذرت حياتها للعمل، تحضّر مسرحياتها قبل شهر من موعد العرض. تعمل بجد، وتقدم أفضل ما لديها.

ـ أعتقد أن هذا الوضع لم يكن ليمر بدون أن يسبب شقاقاً في حياتكما الثنائية؟

اتسعت حدقتا عدلان، فهو لم يظن أن الاستجواب سيأخذ مجرى كهذا.

ـ شقاق؟!

حدقت ليلية جيداً في وجهه الشاحب لعلها ترى ما في أعماقه، وقالت بصوت هادئ:

ـ حسناً، لو كان زوجي يعمل طوال أيام الأسبوع، أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة، فسيأتي وقت وأشعر بأنني أُهملتُ.

ـ لا شيء مشبوهاً في زواجي. سيدتي إن كنتِ تلمحين إلى هذا، فأنا ونسرين شخصان راشدان، هذا يعني أنني كنتُ أتفهم أهمية العمل لديها، وأحترم قرارها. كنا نقوم بكل ما وسعنا كي نتلاءم ونعيش في استقرار.

ـ لم تتشاجرا إطلاقاً، إذا كنت فهمتُ جيداً ما قصدته؟

مطّ عدلان شفتيه، وقال بتذمر واضح:

ـ بلى، كل الأزواج يتشاجرون... لا أحد يستطيع أن يتفاخر بأنه يعيش حياة زوجية سعيدة في كل جوانبها.

ـ سيد عدلان، أين كنتَ البارحة ما بين الثامنة عشرة والثامنة عشرة وعشر دقائق؟

هذه المرة، كانت عيناه تعكسان كراهية واضحة:

ـ أتقصدين في فترة الاستراحة... كنتُ في المسرح الوطني، جالساً مع طفليّ.

ـ هل ثمة شخص يثبت أنَك كنتَ جالساً آنذاك، ولم تنهض مثلاً للذهاب إلى الحمام؟

ارتعش فك عدلان، واضطرب نظره:

ـ حسناً... مونية.... العجوز ياسمين، وإن كنتُ أشك في أنها كانت نائمة.

ـ حسناً... سنتأكد من ذلك. هل كان لزوجتك أعداء؟ هل تعرف شخصاً يكنّ الضغينة لها؟

ـ لا أعتقد أن لها أعداء... لا أرى أن أي شخص يريد قتلها.

ـ ألم تذكر يوماً أن لها مشاكل في إطار العمل؟ فالمسرح ميدان لا يخلو من الدسائس.

ـ في الحقيقة، إذا حصل شيء من هذا، فلا أظنها ستركض إليّ وتخبرني.

ـ حسناً، هل لديك شيء تريد قوله بغض النظر عما ذكرته حتى الآن؟

ـ لا، ليس لدي أي شيء.

ـ جيد، أرجو أن توقع شهادتك.

انتظرت ليلية عدلان حتى غادر، وكتبت في دفترها:

زوجها يدعي أن في المنزل شخصاً مجهولاً يبعث إليها رسائل سرية بوسائل مختلفة. هل حقاً كان ثمة مجهول؟ أم كلامه مجرد لافتة تضليل الطريق.

كان الشخص التالي مونية، التي بدت أكثر استعداداً للإجابة. وقالت بمجرد أن جلست على الكرسي:

ـ حسناً، إني لا أصدق أنها قُتلت، ربما الأمر كله حادث... جريمة قتل، لا أحد في المنزل يستطيع... حتى قتل ذبابة.

ـ أترين في وضع فطر من نوع أمانيت في البيتزا... حادثاً؟

ـ لا أريدكِ أن تفهمي أنني أستهزئ بكِ... لا أدري، يبدو الأمر مزحة أو سوء فهم... فربما أراد عامل البيتزا أن يجرب نوعاً جديداً من الفطر، لم يكن يعرف أنه سام. لقد عملت عندما كنتُ شابة، في أحد المطاعم الصغيرة الموجودة في شارع حسيبة بن بوعلي، كان كل يوم يغير من وصفاته، حتى يُقبل عليه جمهور أكبر... حسناً، لم يكن مالكه طباخاً، ولا يملك شهادة فندقية، أو مثل هذا القبيل، لكنه كان يملك عقلاً تجارياً، يسعى وراء الربح أكثر من الحفاظ على سمعة مطعمه. وأتذكر أنه جرب صلصة جديدة، فأصاب الجميع بإسهال حاد، واضطر مراقبو الصحة إلى إغلاق محله شهرين كاملين، ووُجه إليه إنذار أيضاً.

ـ لقد تحدثنا مع بائع البيتزا، وتمكنا من الحصول على نوع البيتزا التي طلبها المسرح: «مرغريتا»، عجينة بسيطة ورقيقة، مع الكثير من الجبن المفروم، وحبات الزيتون الخضراء. لا وجود للفطر إطلاقا.

ارتعشت مونية، وقالت بصوت هادئ ومهذب:

ـ إذاً، تخميني كان خاطئاً.

ـ إنها جريمة قتل لا جدال في الأمر... ولدينا اعتقاد كبير أن جذور هذه الجريمة تعود إلى عشر سنوات قبل الآن.

ـ هل قلتِ عشر سنوات، هل للأمر علاقة بوفاة مريم غزلان؟

ـ لدينا ما يدفعنا إلى القول إنهما جريمتان مرتبطتان... وهذا ما بدأ يتضح لنا بالفعل.

ـ لكني لا أفهم شيئاً، ما علاقة موت مريم غزلان، بتسميم نسرين غزلان؟

بدا أن الأدوار اختلطت لوهلة، وأن ليلية التي كانت تطرح الأسئلة، أصبحت هي من تتلقى الاستفسارات والاستجوابات. لكنها، بدون أن تهتم بشرح الغموض الذي اكتنف الاستجواب للحظة، واصلت طرح أسئلتها:

ـ منذ متى وأنت تعيشين مع العجوز ياسمين؟

ـ منذ وقت طويل... لقد أحضرتني من الميتم، عندما كان عمري تسعة عشر عاماً، وهي السن التي نغادر فيها الميتم. لم أكن أعرف أحداً. عثرت عليّ العجوز ياسمين ملقاة في الشوارع، فحملتني إلى منزلها.

ـ هل كانت مريم قد وصلت إلى المنزل آنذاك؟

ـ نعم، كانت في المنزل فتاتان متشابهتان... بل متطابقتان. في بادئ الأمر، ظننت أنهما شخص واحد، إلى أن رأيتهما، الاثنتين أمامي. لقد كانتا صورتين طبق الأصل.

ـ هل كان في مقدورك التمييز بينهما؟

ـ لا... كانتا تذهبان إلى العمل في الوقت ذاته. كانت نسرين تعمل في المسرح، ومريم في الصحافة، ولا تعودان إلا مساءً، وكانتا متشابهتان بشكل كبير... على نحو يصعب معه التفريق بينهما.

ـ هل حدث أن تقمصت إحداهما شخصية الأخرى؟

ـ أتقصدين أن مريم تظاهرت بأنها نسرين أو العكس؟

أومأت ليلية برأسها بدون أن تنبس ببنت شفة:

ـ لا... لا أظن أنه حدث مرة أن تقمصت إحداهما شخصية الأخرى. لم يكن ثمة داعٍ لذلك... ثم، حتى لو حدث هذا، فلا أحد في المنزل كان في مقدوره معرفة من هي نسرين، ولا من هي مريم.

ـ ماذا لو قلتُ لك، إن الشخص الذي كان يعيش معكم حتى آذار/مارس ٢٠٠٥، لم يكن سوى مريم غزلان.

صاحت مونية وقد انتفضت من مكانها رغماً عنها:

ـ رباه!!! ماذا ؟! أتقصدين أنها تقمصت شخصية نسرين طوال هذه المدة؟... لكن هذا مستحيل.

ـ لقد أثبتت البصمات أن المتوفاة بالفطر السام، لم تكن إلا مريم غزلان.

احتاجت مونية إلى بضع لحظات قبل أن تسترجع هدوءها. كانت مصعوقة من الخبر الذي سمعته للتو.

ـ لا أصدق... ومن تكون إذاً... من تكون التي اغتالها الإرهابيون؟

ـ نسرين غزلان.

بقيت مونية فاغرة فمها، ثم بدا لها أن هذه الفرضية تفسر بعض الغموض في السابق. وقالت بصوت هادئ يسترجع الذكريات:

ـ لهذا، عُثر في جيبها على بطاقة الدعوة إلى حضور

افتتاح الأسبوع للمسرحية العربية، وبررت نسرين (مريم الحقيقية) بأنها أعارت البطاقة لشقيقتها لحضور الحفل.

ـ هل شككتِ مرة في كون نسرين غزلان شقيقتها مريم؟

ـ لا، لكن لماذا أخفت مريم غزلان حقيقة من تكون طوال هذه المدة؟

ـ لأن القاتل أراد قتلها هي دون غيرها، وعندما أخطأ في هدفه، قامت بتمثيل دور شقيقتها حتى توهمه بأنها ماتت.

دفنت مونية بنشيج من الألم وجهها بين يديها، وانقبض كتفاها كما لو أنهما تشنجا، وغمغمت: هذا رهيب، وفظيع... وأخيراً رفعت رأسها وقالت بصوت مرتجف:

ـ ومن يكون هذا القاتل اللعين؟

ـ هذا ما نحن نبحث عنه. هل تعرضت مريم غزلان في خلال سنوات عملها كصحافية لأي تهديد، مهما كان مصدره؟

ـ لا أدري، لكن أذكر أنه عندما اختفت، قال سمير للعجوز ياسمين، إنه عثر على رسائل التهديد من الإرهابيين في غرفتها، لكن عندما طلبت منه إحضارها، ارتبك وقال إنه لا يتذكر أين وضعها... وبعد أيام تذكر أنه أحرقها.

ـ حسناً... هل يمكنك سيدة مونية أن تحددي مكان كل واحد في الدقائق العشر الفاصلة بين الفصل الأول والفصل الثاني في يوم الجريمة؟ وكي أكون أكثر دقة بين الثامنة عشرة والثامنة عشر وعشر دقائق؟

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

ـ حسناً، بقيتُ جالسة مع ابني والعجوز ياسمين التي كانت قد غفت. نهضت ليلى، وأخبرتنا أنها تريد التقاط صورة لها أمام خشبة المسرح. أخذت بعض الصور لها أمام الخشبة، ثم خرجت إلى الشارع لالتقاط صور لها أمام واجهة المسرح... لديها آلة تصوير مع عمود تثبيت، لهذا كان من السهل عليها أن تلتقط لنفسها صوراً بدون مساعدة أحد... على كل حال، هذه هي عادتها. ففي العام الماضي، عندما ذهبنا لرؤية مسرحية نسرين «الثلوج الذائبة»، لم تتوان عن أخذ الصور حتى مع شخصيات المسرحية. لقد بدا أنها مفتخرة بالقيام بذلك، فأخذت تكرر الأمر، كأنها تريد أن تُظهر للجميع أنها ذات حس رفيع. وسأخبرك بشيء، لقد كانت ترتدي في العام الماضي الطقم ذاته الذي ارتدته هذا العام. امرأة متعجرفة، تظن نفسها تفهم في الفن، لكن إن كانت حقاً تفهم في الفن، ألم يكن لائقاً لو غيرت الطقم. ماذا سيقول زملاء نسرين عندما يرون قريبتها ترتدي الملابس ذاتها التي ارتدتها العام الماضي؟

لم يكن يبدو أن ليلية مستعدة للدخول في نقاش عن الأزياء، برغم أن رغبة جامحة كانت تدفعها إلى أن تسألها ما نوع الطقم الذي ارتدته، وما لون الحذاء، لكنها في النهاية كبحت هذه الرغبة، وعادت إلى موضوعها الرئيسي.

ـ هل تتذكرين متى عادتْ؟

ـ أجل، لأنه صادف وقت عودتها، أن سألني ابني كم الساعة، وأجبته ١٨,٠٨.

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

ـ وماذا عن سمير؟

ـ سمير نهض، واتجه إلى غرفة الكواليس، وتبعه مروان. كان مروان قلقاً طوال اليوم السابق للمسرحية، وعندما سألته عن السبب، طلب مني أن أصمت، وقال إن أمراً خطيراً سوف يحدث في المنزل.

ـ هل كان يقصد أنه ستقع جريمة؟

ـ لا أدري. بدا الأمر كأنه خائف من شيء يقترب، وكان يراقب الجميع، بعينيه كالصقر... لقد ظننت أن هذا من فعل الدواء، لكن جميع تكهناته حدثت فعلاً... فها هي جريمة قتل تهتز لها جدران المنزل.

ـ أُعلمك بأن ما تقولينه عن زوجك خطير جداً... فإن كان قد شعر بأن شيئاً رهيباً سيحدث، فهذا لا بد من أن يكون أساسه أنه رأى أمراً أو سمع شيئاً... هل تعرفين لماذا كان خائفاً؟

ـ لا أدري، فأنا لا أعرف حقيقة ما يدور في رأسه، الجميع يقول إنه ذو ماض سيىء، وسجلّ سوابقه العدلية لا يخلو من المشاكل. لكني منذ زواجي به، لم تحدث مشكلة، برغم أن العجوز ياسمين لا تحبه، وتحاول جاهدة أن تسجنه في السجن بأي طريقة... العام الماضي ذهب مروان إلى الينابيع المعدنية في قالمة. هو حمام صحي للعلاج من الروماتيزم وآلام الجسد بالمياه المعدنية، فزوجي يعاني آلاماً في رجليه، وما إن ذهب حتى طلبتني العجوز ياسمين في مكتبها، وأخبرتني أن حزماً مالية قد اختفت من الخزنة.

ـ هل تخبرينني لماذا كان زوجك خائفاً، سيدة مونية؟

ـ لا أدري، كيف سأشرح لكِ. بدا الأمر كأنه... ففي هذه الأيام أصبح زوجي أكثر نفوراً و...

بدا أن مونية قد دخلت في الجملة، ولم تعد تعرف كيف تُنهيها، لكنها قالت في النهاية: أصبح أكثر يقظة.

ـ أتشكين في شخص ما قد يكون ارتكب جريمة المسرحية؟

ـ حسناً، لا أدري في من أفكر، فالجميع يكنون الحقد لنسرين (مريم الحقيقية)، ابتداءً بالعجوز ياسمين. لقد تحررت نسرين (مريم الحقيقية) كثيراً هذه السنوات الماضية، وهو أمر يُرض مطلقاً العجوز ياسمين. قبل بضعة أيام من مقتلها، جمعت العجوز ياسمين الجميع، وأخبرتهم أن منهجيتها في تسيير العائلة قد تغيرت، فلا يمكن أحداً أن يسافر أو يغادر أو يبدأ مشروعاً أو أي شيء آخر بدون أن يأخذ موافقتها الابتدائية والنهائية... لا أدري، قد يكون أيضاً زوجها. أعتقد أنه يشك في وجود علاقة لها مع غيره، لا أدري من أين جاءته هذه الأفكار، لكن علاقته مع نسرين قد تغيرت كثيراً، وأصبح يسافر، مفضلاً الابتعاد.

ـ هل أنتِ متأكدة مما تصرحين به؟

ـ أجل، فلقد سمعت ذات مرة، عندما كان عدلان يتأهب للسفر إلى تمنراست، مشاجرة بينهما. قالت له نسرين أن يبقى في المنزل للاعتناء بالولدين، لأنها ستسافر إلى تونس، لعرض مسرحيتها هناك، وأنه لا يوجد شخص يعتني بهما، فأجابها بسخرية: اطلبي منه أن يعتني بهما، أنتِ

تعرفينه... آه، تذكرت شيئاً، قد يكون ذا أهمية. فمريم، أقصد الحقيقية، كانت تتراسل بطريقة سرية مع سمير فارس... وخفت صوتها فجأة: كانا حبيبين.

ـ متى حدث هذا؟

ـ حسناً، منذ أن قدمتْ مريم (الحقيقية) إلى منزل جدتها للعيش، أثارت إعجاب سمير، لكنهما فضلا أن يُبقيا مشاعرهما دفينة، واكتفيا بالتراسل، بأساليب سرية. فسمير كان متزوجاً آنذاك... رباه!!! لو علمتْ ليلى لقتلتهما.

دخل مروان مكتب قاضية التحقيق. دنا من الكرسي الذي طلبت منه ليلية الجلوس عليه. تفحصه كما لو كان يتأكد من متانته، ثم جلس وتثاءب مغطياً فمه بيده. كان مروان طويل القامة ونحيفاً.

ـ أرجو ألا يشتبه فيّ أحد. لقد علمت بأن ليلى أخبرتكم أنني كنت في الرواق المؤدي إلى غرف الكواليس... وطأطأ رأسه، فظهر كم أنه أصلع. كان القلق ظاهراً على ملامحه، فهو الخروف الأسود للعائلة (وإن كان لا ينتمي إليها حقاً). فإن حدث شيء سيىء، كانت إصبع الاتهام الأولى نحوه بدون تردد.

ـ هل رأيت شخصاً غيرك، يتجه إلى رواق الكواليس ما بين الثامنة عشرة والثامنة عشرة وعشر دقائق؟

ـ يبدو لي هذا سؤالاً غريباً جداً... أريد أن أعرف ما يعنيه.

ابتسمت ليلية بلطف: أريد أن أعرف هل رأيت شخصاً غيرك يتجه نحو رواق غرف الكواليس في الوقت الفاصل بين فصلي المسرحتين؟

ـ لماذا ؟

ـ هذا يساعدنا على تضييق دائرة التحري.

ـ تضييق دائرة التحري؟ إذاً، فلديكِ معلومات إضافية؟

ـ نأمل أن نكون قد استطعنا حصر وقت ارتكاب الجريمة.

ـ لستُ متأكداً أبداً إن كانت عليّ الإجابة عن سؤالك... أقصد بدون حضور محامٍ.

ـ هذه المسألة تعود إليك بالطبع. أنتَ غير ملزم بالإجابة عن أي سؤال، ولك الحق الكامل في إحضار محام قبل ذلك.

ـ دعيني أفهم الأمر. هل يعني ذلك أنك... تحذرينني؟

أظهرت ليلية أنها فوجئت بهذا السؤال: آه، كلا ليس الأمر هكذا؛ فالأسئلة التي أسألك إياها أطرحها على الكثير من الناس أيضاً، وليس فيها أي شيء شخصي. إنها مسألة حذف أسماء من دائرة الشك فحسب.

ـ بالطبع... أنا أريد مساعدتكم بأي شيء أستطيعه. دعيني أتذكر الآن. فسؤال كهذا لا تكون إجابته جاهزة فوراً... لقد كان مظلماً جداً. سمعت أن الشرطة تشك في أن أحدهم عبث بمصابيح الرواق المؤدي إلى غرف الكواليس، لكن لمحت شخصاً يهرول مسرعاً. لم أستطع تحديد من يكون، لكن سمعت طرقات حذاء ذي كعب عال على الأرضية الخشبية.

ـ هل تقصد أنه قد يكون هذا الشخص... امرأة؟

سكتت ليلية سكتة ذات مغزى.

ـ أجل، بل أنا متأكدة من أن ذلك الشخص لا يمكنه أن يكون رجلاً.

ـ لماذا ذهبت إلى غرف كواليس؟

ـ لقد ذهبت لغسل يديّ، وتناول دوائي، فلا توجد في ذلك المسرح آلة لبيع قارورات الماء.

ـ هل رأيت شخصاً وأنت خارج من غرف الكواليس؟

ـ لا... لكني قبل أن أدخل أظنني لمحت سمير، لكني لست متأكداً.

ـ أخبرتنا زوجتك أنه في اليوم السابق للجريمة، كنت تشعر بالقلق والتوتر، وروت لنا أنك أخبرتها أن شيئاً سيئاً يحدث.

ـ لا أدري، كيف سأفسر لكم. لكن نسرين في وقت الفطور، كانت غريبة، بقيت تسأل بصورة غريبة وتكرارية ليلى عن الحذاء الذي كانت سترتديه، وكانت في كل مرة تسألها تنظر إلى سمير.

ـ أهذا ما جعلك تشعر بأن شيئاً سيئاً سيحدث؟

ـ أجل، كنت أنتظر أن تقع كارثة بين نسرين وليلى. أعلم بأن عدلان يشك في أن لنسرين معجباً في المنزل يراسلها برسائل سرية، بما أن الرجلين الباقيين في المنزل هما أنا وسمير. وأنا لا أراسل نسرين، فقد يكون سمير. لست متيقناً، ولست متأكداً إن كان هذا الشخص من

المنزل، لكن طوال وقت الفطور، لم تكف عن التلميح لسمير. لا أدري ما الذي أرادت أن تقول له... ثم ثمة أمر لست متأكداً منه، ولا أريد أن أجر أناساً إلى حبل المنشقة بدون أن أتأكد.

ـ أُعلمك بأن إخفاء معلومات تفيد في حل الجريمة، أو لها علاقة بها، قد يقودك إلى غرامة مالية... ثم صمتت وأردفت بعد قليل بنبرة تهديد: وحتى إلى الحبس.

ـ أرجو ألا تفهميني خطأً. لا أنوي إخفاء شيء... لكن لست متأكداً من أمر، لا أدري إن كان يمت بصلة إلى الجريمة، أم لا.

ـ شكراً لك يا سيد مروان، يمكنك الذهاب بعد أن توقع.

دخلت ليندة مرتعدة، كأنها ستقابل حُكماً بالإعدام. طمأنتها القاضية إلى أن الأمر لا يعدو أن يكون إلا تحقيقاً رسمياً، يدلي الشهود بما رأوه، أو بما سمعوه. وبمجرد سماعها هذه المقدمة المطمئنة، اعتدلت في جلستها، وأبدت استعداداً للإجابة عن الأسئلة.

ـ هل يمكن أن نعرف كيف حصلت على الوظيفة التي تشغلينها الآن؟

ـ قرأتُ إعلاناً في جريدة عن سيدة تبحث عن ممرضة براتب مغر، وبما أنني كنت في ضائقة مالية ونفسية، قررت أن آتي إلى العاصمة للعمل. كنت أريد التغيير... وحصلت على ما أريد.

ـ تغيير المكان أم الحياة؟

ـ كلاهما إن أمكن، فتغيير المكان يترتب عنه تغيير الحياة.

أجابت ليندة كأنها تحلم، ولم تتنبه إلى نبرة تشكيك القاضية.

ـ يبدو أن أمورك تحسنت، وأن الجو راق لك، لهذا فضلت البقاء والعمل كممرضة لسيدة عجوز، برغم أنه عمل ليس ممتعاً لشابة مثلك. ألا ترين أن العمل في شركة للمياه ممتع أكثر من جر كرسي متحرك لعجوز متعجرفة؟

رفعت ليندة كتفيّها بلا مبالاة، وقالت:

ـ أجل، لا أنكر أنني أشعر في بعض الأحيان، بالضجر، لكن هذا الأمر يؤمن لي العمل والمسكن براتب جيد، ولا أظنني سأجد عملاً أفضل بامتيازات كهذه... ثم إن راتبي في أي شركة مياه، يساوي ربع الذي أتقاضاه اليوم.

ـ أمن أجل هذا المبلغ انتقلت من تلمسان إلى العاصمة؟ إنها مسافة طويلة جداً.

ـ أجل، إنه مغر ويستحق الجهد الذي بذلته كله، بالإضافة إلى أنني أتلقى بعض المكافآت.

ـ ألم يكن قرار مغادرتك تلمسان بسبب خطيبك الذي تركك، وخطبته من فتاة غنية؟

توهج اللون القرمزي في وجنتي ليندة. رفعت رأسها بقوة، ثم عضت شفتها، واضطربت ملامح وجهها:

ـ يبدو أنكم استعلمتم عني كثيراً... هل تشتبهون فيَّ؟

ـ لا، لكن جمع معلوماتنا هو إجراء من إجراءات التحقيق.

ـ أجل، أعلم هذا، لكن جمع المعلومات بهذا الكم يكون دائماً عن المشتبه فيهم.

ـ هل تظنين أن لديك دافعاً إلى قتل مريم غزلان؟

ـ تقصدين نسرين غزلان.

ـ لا، بل مريم غزلان، فالتي سُممتْ في مسرحية «نسرين ستموت الليلة» لم تكن نسرين... بل مريم.

صاحت ليندة مندهشة، وقد ابيض وجهها حتى شفتيها:

ـ لا يُعقل... مريم غزلان اغتالها الإرهابيون في ١٩٩٥.

ـ هذا ما كان الجميع يعتقدونه، في حين أن التي ماتت في ذلك اليوم هي نسرين نفسها.

ابتلعت ليندة ريقها، وقالت وقد أخذ شيء من اللون يعود إلى وجهها:

ـ كيف حدث ذلك؟ إنه أمر لا أستطيع تصديقه.

نظرت ليلية إليها بغير اقتناع، وقالت:

ـ لقد انتحلتْ مريم غزلان شخصية شقيقتها طوال هذه السنوات العشر، حتى تضلل القاتل الذي أراد أن يستهدفها منذ البداية.

ـ ماذا! هل تقصدين أن الإرهابيين لا علاقة لهم بمقتل مريم، أقصد نسرين؟ يا إلهي، لا أزال لا أصدق.

ـ أجل... إنها جريمة قتل مدبرة حتى تبدو كأنها جريمة

إرهابية... أحدهم خدع الجميع، وجعلهم يتوهمون أن مريم غزلان اختُطفت من طرف جماعة إرهابية.

ـ لكن، أليس الأمر مرعباً وغريباً في آن معاً، أن يحمل الجثة إلى الجبل ويُلقي بها هناك. إن احتمال عدم تعرض القاتل للهجوم أو عدم دهسه قنبلة مضادة للأفراد، ضئيل جداً.

ثم توقفت عن الكلام، واستطردت بعد فينة بنبرة كأنها تحدث نفسها:

ـ ألا يبدو في الأمر بعض الغرابة. يبدو أن هذا القاتل جريء إلى درجة أنه كان مستعداً للتضحية بنفسه من أجل إنقاذ نفسه. وتفطنت قليلاً إلى الجملة التي نطقتها للتو. كان شيء غير منطقي فيها، حركت رأسها كأنها تبعثر بذلك ترتيب الكلمات لإعادة ترتيبها من جديد، لكن في كل مرة كانت تصل إلى النتيجة نفسها.

ـ حسناً آنستي، هل يمكن أن تحددي مكان تواجد كل واحد من أفراد العائلة وتحركاته، بين الثامنة عشرة والثامنة عشر وعشر دقائق.

فركت ليندة ذقنها وهي تفكر، ثم قالت:

ـ كنت أتحدث إلى أحد رجال الأمن في تلك الأثناء. أصله من تلمسان، وقد عرفته من لهجته، وبقيت أتحدث معه حتى سمعت تصفيق الجمهور في بداية الفصل الثاني. رأيت سمير مهرولاً إلى غرفة الكواليس، بمجرد أن أُسدلت الستائر، ثم ذهب مروان بعد ذلك بثلاث دقائق أو أكثر إلى غرف الكواليس، بعدها رأيت ليلى تحوم حول البوابة المؤدية إلى غرف الكواليس بعد أن أخذت لنفسها صورة أو صورتين أمام الخشبة. في تلك الأثناء، خرج مروان، وبعد أن ابتعد دخلت ليلى، أعتقد لتلحق بزوجها. أظن أن ثمة علاقة بين نسرين غزلان (مريم الحقيقية) وسمير فارس.

أومأت ليلية برأسها، ثم ألقت نظرة على دفترها، وقالت:

ـ وماذا عن مونية والعجوز ياسمين؟

ـ كانت جالسة مع طفلتها، ولم تغادر مكانها، فالعجوز ياسمين غفت، وكان يجب أن يبقى معها أحد.

عندما خرجتْ، كتبت ليلية في دفترها: فتاة مادية كثيرة، وسيكون الأمر مسلياً لها، إن كانت تجر سيدة تنام تحت ثروة طائلة... لكنها دقيقة الملاحظة.

العجوز ياسمين لم يكن لها ما تقدمه من جديد في التحقيق. كانت قد غفت بعد ربع ساعة من بداية المسرحية. أما سمير فارس فكان يبدو أن حالته استعصت، وطبيبه مدد مكوثه في المستشفى، ومنع عنه الزيارات نهائياً.

الفصل الثامن

الثلج يذوب عن المرج

تناولت ليلية قبل أن تذهب إلى جلسة تقييم مع رياض سلام، طبقاً من الحساء مع قطعة لحم خروف صغيرة، وسلطة البزلاء الخضراء. شعرت بعد أن أتمت تناول طعامها، بعدم تناسق هذه الوجبة، فهمّت أن ترتشف وراءها قدح قهوة، لكن سرعان ما تملكها فجأة ذلك الشعور الغامض بالذعر الذي ينتابنا عندما نشعر بأننا تأخرنا عن موعد مهم.

حاولت أن تجري إلى المرأب. وصلت إلى باب سيارتها في حالة قلق رهيب، لكنها كانت تدرك حتى قبل أن تتخطى العتبة إلى الخارج، أنها لن تتمكن من اللحاق بالموعد.

عندما وصلت، وجدت رياض جالساً على أريكته ينفث دخاناً قاتماً من سيجارته، وفوق المكتب تبعثرت الصحف، وأوراق ملف التحقيق، ورماد التبغ.

أشار إلى ليلية بالدخول، بدون أن يبدي تذمراً عن تأخرها. لكنه ما إن جلست حتى بادرها بالقول:

ـ لا يمكنك مطلقاً أن تكوني محققة مشهورة في المستقبل، إذا كان عدم القدوم في الموعد عادتك.

كانت ملاحظة قصيرة أطلقها رياض، وعاد من جديد يتحدث عن موضوع جلستهما:

ـ لقد اطلعت على ملف التحقيق. لماذا لم يتم استجواب سمير؟

ـ لقد استجوبنا جميع أفراد عائلتها، ما عدا سمير الذي تحدثنا مع طبيبه. يبدو أنه يعاني انهياراً عصبياً حاداً، وحالته حرجة، لا يُسمح لأي أحد بأن يزوره أو يستجوبه.

نظر رياض إليها وقد ضاقت عيناه حتى غدتا كعيني قطة، ولم تعد تظهر منهما إلا التماعة اللون العسلي، ثم قال: ما رأيك... هل هذا يؤشر إلى شيء؟ أتعتقدين أن له علاقة بمقتل نسرين غزلان (مريم الحقيقية)؟

ترددت ليلية لحظة ثم حزمتْ أمرها.

ـ لا أدري... لقد أخبرتنا زوجته أنه إنسان مرهف

الإحساس، وأعتقد أن مقتل نسرين وقع عليه كالصاعقة... لا أرى في الأمر دلالة أو مؤشراً إلى شيء ما.

أمالَ رياض رأسه علامة على أنه أيضاً لا يرى شيئاً لافتاً للانتباه في الانهيار العصبي الذي تعرض له سمير، ثم قال وهو يلقي نظرة على الملف الذي كان أمامه:

ـ يبدو أن نسرين غزلان (مريم الحقيقية)، كانت شخصاً غالياً على بعض أفراد العائلة... ألا ترين معي أن هذا السبب الذي جعل سمير يتعرض لصدمة عصبية.

أومأت برأسها بحيرة، وقالت: «ربما...»، لكنها سرعان ما استطردت: والبعض تحدث عنها بطريقة غير لائقة... ومسيئة.

ـ أجل... لقد قرأت شهادة زوجها. أعتقد أنه من النوع الذي يكنّ غيرة زائدة عن اللزوم، ما رأيك؟

ـ لا أعتقد أن غيرته ناتجة من العدم. لقد ذكر أن شخصاً ما يراسل زوجته بوسائل سرية، وعادة هذا النوع من الرسائل يثير الريبة... بحكم طبيعة إرساله. ثمة شيء اكتشفته حديثاً... عندما أتت مريم غزلان لتعيش مع جدتها في العاصمة، وقعت في غرام سمير فارس الذي كان آنذاك قد

تزوج حديثاً، وكانا يتراسلان بهذه الطريقة... ألا ترى معي أن هذا يؤكد أن الشخص الذي قُتل حديثاً لا يمكن أن يكون غير مريم غزلان. ربما برغم زواجها بعدلان مصباحي، إلا أنها عادت إلى حبها القديم.

- هل تقصدين أن سمير فارس كان يعرف أن مريم غزلان هي التي كانت تعيش معهم طوال هذه المدة؟

حركت ليلية رأسها نافية، وأضافت: إن كون سمير في مستشفى الأمراض العصبية يعيق عملنا. حتى وإن استطعنا أن ننتشل منه شهادة، لا أظن أن المحلفين سيأخذون بها، إذا اعتمدنا مثلاً عليها في توجيه اتهام إلى شخص ما... أي محام يستطيع أن يدحض شهادته باعتباره شخصاً لم يكن في قواه العقلية.

- لا تبقى أمامنا إلا مراجعة تواجد كل شخص حين ارتكاب الجريمة

فتحت ليلية حقيبتها، وأخرجت منها مخططاً حددتْ فيه موقع كل واحد أثناء ارتكاب الجريمة.

مكان كل شخص وقت حدوث الجريمة مع عدد التأكيدات:

مونية كانت ساعة الجريمة جالسة مع ابنها بالقرب من العجوز ياسمين.

أكد ذلك الجميع.

مروان كان حينها في غرف الكواليس عند الثامنة عشرة وثلاث دقائق، وغادرها عند الثامنة عشرة وخمس دقائق.

أكدت ذلك ليلى ومونية.

ليندة كانت واقفة تتحدث مع أحد رجال الأمن.

أكدت ذلك ليلى.

سمير كان حين حصول الجريمة في غرف الكواليس بمجرد انتهاء الفصل الأول من المسرحية.

أكد ذلك كل من ليندة ومروان.

ليلى كانت تلتقط صوراً لها عند مدخل الباب، في حين أن ليندة ذكرت أنها رأتها عند الثامنة عشرة وأربع دقائق تدخل غرف الكواليس.

العجوز ياسمين وعدلان كانا جالسين في مقعديهما.

حدق رياض ملياً في المخطط، ثم وضع الورقة على سطح المكتب، وقال وهو لا يزال ينظر إلى الورقة.

ـ مثير، أتدري أن الاستجواب أفضل وسيلة لمعرفة الحقائق، فالجميع يتفق على قول الشيء ذاته، لكن المشكلة أنهم لا يستطيعون أن يتكهنوا بأسئلتنا. يعتقدون أنها ستكون منحصرة في: أين كنتَ؟ وفي أي ساعة سمعتْ الطلقة؟ لكن، لا يعرفون أننا في الاستجواب نقوم بطرح الأسئلة والتحليل النفسي لشخصيتهم ووقع السؤال عليهم.

ـ أجل، إن هذا يذكرني بقضية سرقة الشاحنات التي حكمتُ فيها العام الماضي بخمس سنوات على الحارس الجبان. أتذكر أنه ترك السارقين يسرقون الشاحنات، ثم ربطه أحدهم حتى يظهر أنه كان مغلوباً على أمره. وعندما طلبت منه وصف السارقين، أخبرني أنه لم يرهم لأن الضباب كان كثيفاً. وعندما استجوبت حارساً في المبنى المقابل، كان أول سؤال سألته هو كيف كان الطقس في ذلك اليوم، وتفاجأ، فلم يتوقع أن أسأله، فلقد اتفق مع الحارس أن يعيد السرد ذاته الذي سرده هو عليّ، لكن لم يتوقعا أن أسأله عن الجو، فأخبرني أن الجو كان صافياً جداً. ومع تناقض الأحوال، قمت باستدعاء الحارس ومواجهته بالحارس الثاني في المبنى المقابل.

ـ أجل، أعتقد أن الجميع يستمتع بالتحقيق، وبلفت الانتباه إليه، وذلك بسرد أمور مثيرة، لكنها غير حقيقية.

ـ هل تقصد رواية زوجها عدلان؟

ـ أجل، يبدو أنه من النوع الغيور. إن كان كما قال، ثمة شخص يراسل زوجته، فكيف عرف أنه يراسلها إلا إذا رأى دليلاً قاطعاً. وإذا وجد دليلاً كهذا، فلماذا لم يواجهها؟ إن كان حقاً غيوراً كما يدعي.

ـ أعتقد أنه هو نفسه بالذات ليس متأكداً إن كانت الرسائل من معجب، أم شخص آخر.

ـ إن الأمر مثير: أن يكون شخص يرسل إليها رسائل سرية، هل تعتقدين أنها يمكن أن تكون رسائل تهديد من القاتل؟

ـ ربما، لا يمكن أن نجزم في أي أمر. لكن، إذا كان الأمر كذلك، فهذا الشخص يجب أن يكون من العائلة، أو مقرباً حتى يتمكن من معرفة أن مريم غزلان وسمير فارس كانا يتراسلان بوسائل سرية، ويعتمد على هذا الأسلوب لتمرير تهديده. ثم إن هذا النوع من الرسائل، عادة ما يسلم باليد، أو يوضع في مكان معين، ويخبر الطرف الآخر

بمكانه... الحقيقة ما زالت سطحية بالنسبة إلي. لم أتحدث جيداً مع العجوز ياسمين التي ربت نسرين (الحقيقية). ثم إن التحقيق الأولي كان مجرد التأكد من مواقعهم وقت ارتكاب الجريمة، لا أكثر. لا تنس أننا أمام جريمة متعلقة بجريمة حدثت قبل عشر سنوات. أحدهم خطط لقتل مريم غزلان لسبب لا نعرفه حتى الآن، لكنه أخطأ الشخص، لسبب أيضاً لا نعرفه. ثم بعد عشر سنوات، يعود هذا القاتل ويرتكب جريمة أخرى، لكن هذه المرة لا يخطئ الهدف. كل ما نعرف عن هذا القاتل أنه يحب المجازفة، لا أدري أي نوع من المجازفة، لكن ليندة قالت جملة في أثناء الاستجواب أثارت اهتمامي.

صمتتْ قليلاً، وأخذت تفكر في ما قالته لها ليندة: «قاتل جريء إلى درجة أنه كان مستعداً للتضحية بنفسه من أجل إنقاذ نفسه». كان في هذه الجملة تناقض، لكن ليندة لم تستطع إدراكه... برغم ذلك، كانت تشعر بأن الأمور واضحة كالماء.

* * *

ـ لا أصدق شيئاً... أكانت طوال تلك الفترة تخدعنا! كيف لم نستطع كشف أمرها؟

قال مروان هذا بصوت قوي، وهو يقف مُولياً ظهره إلى النافذة، بينما كان الجميع جالسين إلى طاولة العشاء.

ـ أرجو ألا تخبروا العجوز ياسمين بهذا الأمر. إن حالتها لا تسمح بتلقي مثل هذه المعلومات.

كان هذا اقتراح ليندة التي بدا صوتها كأنه يخرج من أعماق أعماقها. كانت جالسة على الكرسي إلى جانب مونية، وتعبير عابس على وجهها. كان يبدو أنها ستسقط بين لحظة وأخرى على مونية

قطع الجميع في هذه الأثناء، صوت مبحوح، قادم من البهو.

ـ كنت أعرف منذ زمن بعيد.

انتفضت ليندة، وهبت من مكانها، واقتربت من العجوز ياسمين، وأمسكت بمقبضي الكرسي المتحرك، ودفعتها إلى داخل حجرة الطعام التي كان الجميع فيها بوجوههم العابسة.

«لا تنسوا أن نسرين تربت بين يديّ، وأنا أعرفها أكثر من الجميع...»، قالت هذا بعد أن ركنتها ليندة في مكان مناسب بحيث تستطيع رؤية وجوه الجميع.

قاطعها مروان بنفاد صبر وهو لا يزال واقفاً أمام النافذة: ولماذا لم تخبرينا؟ يبدو أن هذا المنزل يعج بالأسرار... أخشى أن أستيقظ يوما وأجد نفسي شخصاً آخر.

كانت لهجة مروان قد انقلبت ساخرة فجأة. وعندما همت العجوز ياسمين بإسكاته، صاح قائلاً، لكن هذه المرة بجدية غريبة:

ـ الأمر لا يتوقف على من ماتت: نسرين أم مريم؟ إن الأمر أخطر من كل هذه التفاهات. أجل، الشرطة تعتقد أن ثمة علاقة بين مقتل الأختين، وتشك في أن أحداً من العائلة قد ارتكب الجريمتين، أتفهمون ما أقصد. تباً لهذا القاتل! أتعون ما يعني هذا كله. ثمة قاتل بيننا، قد أكون أنا، قد تكون ليندة أو مونية أو أي شخص آخر. أتدرون ما معنى وجود قاتل في وسطنا؟ قاتل ذكي، أراد للجريمة الأولى أن تظهر على أنها عملية إرهابية، فكان له ذلك. وجريمة أخرى، أراد أن تظهر على أنها جزء من المسرحية فكان له ذلك. أعرف أنه يسمعني الآن، لكني متأكد من أنه لن يجرؤ على أن يفعل لي شيئاً، لأنه إن فعل سيثبت أنه حقاً وعملياً، موجود بيننا. لكن مهما يكن هذا القاتل، فإنه خطير جداً، وأنا أنصح الجميع بالحذر. أنت أيتها العجوز

ياسمين، لقد أردت دائماً أن تجمعينا حولك. لم تتركي أحداً يستقل في عمله أو في حياته، فتَحملي ما سيحدث. لقد سهلت المهمة على القاتل. لا يحتاج الأمر إلى التنقل إلى أماكن عدة، فالجميع هنا. يكفي أن يضع شيئاً مسموماً في فطور الصباح، وسيجد أمامه جثثنا جميعنا تطفو حوله.

قاطعته ليندة بصوت خائف وهي ترتعش، برغم أنها كانت ترتدي وشاحاً ثقيلاً على كتفيها:

ـ توقف... إنك تتحدث، كأنك تخبرنا شيئاً طريفاً. هل حقاً يوجد قاتل بيننا؟

نظرت إليها ليلى، بطريقة كمن أمسك عليها في السابق زلة، وقالت لها كأنها لا توجه الكلام إلى أحد سواها:

ـ إن دور الممرضة التي تخفي وراءها سراً غامضاً، يثير دائماً الريبة. فتاة تتخلى عن مباهج الدنيا، لتسجن نفسها مع سيدة مشلولة. أليس الأمر مثيراً وغريباً؟

طرحت سؤالها الغريب، كأنها تنتظر جواباً من أي شخص، بينما اصفر وجه ليندة اصفرار الموت. وفي هذه الأثناء، قالت العجوز ياسمين:

ـ توقفوا عن تبادل التهم. ليس ثمة شيء اسمه أمر

مؤكد. الشرطة لم تتهم أحداً، إذاً، من الأفضل ألا يفضح أحدكم نفسه. يبدو أن الجميع يملك ميلاً إلى التخلص منا.

ـ إن كان للشخص ميل إلى أن يتخلص من أحد، فسيكون للتخلص منك أيتها العجوز ياسمين... ألا ترين أن طريقتك في استملاك الأشخاص قد لا تعجب الكثير منا، فالجميع يريد حياة مستقلة خاصة، ألا توافقينني أيتها العجوز ياسمين؟

طرح مروان تساؤلاته، وخرج تاركاً الجميع في دوامة من الشك، وتبادل نظرات الخوف والاتهام، بينما نهضت مونية وجمعت الأواني والأوعية من على طاولة الطعام، وحملتها إلى حجرة الغسيل.

دخلت ندى مكتب قاضية التحقيق. كانت تبدو كفأرة وقعت في مخالب قط. جلست بحذر على الكرسي، وهي لا تتوقف عن النظر بالتناوب إلى كل من ليلية والكاتب. قالت بسرعة:

ـ لم أقتل أحداً، وأريد محامياً قبل أن أنطق بأي كلمة...

أومأت ليلية برأسها، وقالت بصوت هادئ:

ـ يمكنك أن تدلي بشهادتك بكامل إراداتك، كما لك الحق في أن تستدعي محاميك.

أشعرَها اللجوء إلى المحامي بأنها متهمة، فهدأت من روعها، وأيقنت أن توترها سُدى، وقالت:

ـ حسناً، أرجو ألا يكون الاستجواب طويلاً، فهذا النوع من الجلسات يرهق أعصابي... لا أريد أن أجد نفسي مع علبة كبيرة لتهدئة الأعصاب.

ـ إنها أسئلة روتينية لا يمكننا الاستغناء عنها.

هزت رأسها بنظرة شريرة، وقالت:

ـ أين كنت ما بين الساعة الثامنة عشرة والثامنة عشرة وعشر دقائق؟

تفاجأت قليلاً ليلية. حدقت إليها لحظة ثم قالت لها:

ـ هل هذا هو تحديدك وقت الجريمة؟

رفعت ندى كتفيّها بلا مبالاة، وقالت:

ـ حسناً، إنه ليس تحديدي الشخصي... فأنا حتى هذه الساعة لا أعرف كيف سُممت نسرين... لكن الجميع يثرثر

بهذه الجملة: أين كنتَ ما بين الثامنة عشرة والثامنة عشرة وعشر دقائق... إن رجال الشرطة ينشرون الرعب بأسئلتهم. لقد استجوبوا جميع العمال، أعتقد أنه في المسرحية المقبلة لن يحضر أحد.

ـ من المؤسف أنه يبدو أنك ستأخذين دور نسرين غزلان منذ الآن؟

ردت ندى بشيء من الضيق:

ـ يا إلهي، يبدو أن رجال الشرطة لديهم عقول متحجرة. هل سأسعد بوفاة شخص لمجرد أنني سأحتل مكانه. يبدو من هذا المنطق، أنكم ترون كل شخص يستفيد عن قصد أو بدونه من وفاة شخص، المتهم الأول.

ـ لكن، ليس على هذا أشرت إلى هذه النقطة. بل لقد شهد في الاستجواب الأولي الذي أجرته الشرطة، الكثير من الممثلين معك في المسرحية وكذا المخرج، أنك ما بين الساعة الثامنة عشرة والثامنة عشرة وعشر دقائق اتجهت نحو غرف الكواليس.

أجابت ندى بكثير من الاضطراب:

ـ أجل، وقد أخبرت الشرطي الذي أتى واستجوبني، أنني ذهبت لتعديل طلاء الأظافر.

قالت ليلية بشيء من الحدة:

ـ هل تطلين عادة أظافرك في الوقت الفاصل بين فصول المسرحية التي تشاركين فيها

ـ لا، هل ترين في طلاء الأظافر شيئاً غريباً أو يثير الشبهة. إنني ممثلة وأظهر على الخشبة، وعليّ أن أكون في قمة الأناقة.

ـ ألم تلتقي أي شخص في الرواق المؤدي إلى غرف الكواليس في ذلك الوقت؟

زفرت ندى، وقالت بصوت أشبه بغمغمة:

ـ لا، بمجرد أن نزلتُ من خشبة المسرح، هرولت إلى غرفة الزينة في الكواليس.

ـ هل غرفة الزينة قريبة من الغرفة التي وضعت فيها البيتزا؟

ـ أجل، إنها ملتصقة بها.

ـ هل سمعت شيئاً في تلك الغرفة: أحدهم يدخل؟ وقع أحذية؟

ـ لا، لا أظنني انتبهت إلى شيء. فربما سمعت، وربما لا.

ـ هل تعرفين من يمكنه أن يكون قد وضع الفطر السام فوق البيتزا؟

ـ لا، لا يمكنني أن أعرف الفاعل. ربما هي جريمة قتل بالخطأ، ربما لا أدري لماذا تسألينني هذا السؤال؟ إني لا أعرفها جيداً، ولم تكن لي معها علاقة حميمة حتى أستطيع أن أتكهن بمن يمكن أن يكون فاعل هذا الجرم.

كان الاستجواب التالي مع المخرج. دخل كأنه يقفز. كانت ثمة ابتسامة غريبة تهز بشفتيه، وما إن جلس حتى أخذت عيناه الداهيتان تحدقان بطريقة غريبة في القاضية.

ـ أرجو ألا نكون قد أزعجناك، سنحتاج إليك لبضعة أسئلة.

ـ أنا هنا في خدمتكم، بل حقيقة أنني أجد في هذه الأحداث، منبعاً للإلهام. فربما بمجرد أن يغلق الملف سأكون قد أنهيت كتابة مسرحية جديدة، فأنا عادة أريد أن

يكون عملي حياً. إن حيوية المسرحية تجعل الجمهور يتقبلها أكثر.

ـ حسناً، يبدو أن مسرحيتك «نسرين ستموت الليلة» قد نالت حقاً إعجاب جمهورك. فنسرين ماتت فعلاً تلك الليلة.

ـ الحقيقة، أنني شعرت ببعض النشوة عندما سمعت... أرجوك دعيني أشرح لك، عندما تلقيت الخبر، لم أنظر إليه بمفاهيمه الواقعية: شخص مات، ما يعني حزناً في العائلة، ودموعاً غزيرة... بل نظرت إليه كعمل مسرحي حي إلى درجة أنه يصبح كواقع. أرجو أن تكوني قد فهمتِ ما أقصد. أعلم بأن مسألة الموت أمر كبير، لكن انظري إلى الأمور من زاوية أخرى. السينما أخذت الجماهير، لماذا، لأنها حقاً تجسد اللقطة التي يريد المخرج أن يصورها. فإن أراد أن يجسد شخصاً سقط من أعلى الجبل، فإنك ترينه يسقط من أعلى الجبل، وترين الدماء وصوت الارتطام وتحطم العظام. إنها هذا ما يجعل انتباه الجمهور مشدوداً، ويجعله يغرق في قصة الفيلم، بل أحياناً يتجاوز الأمر مجرد التأثر ليصبح المشاهد يشارك فعلاً بأحاسيسه في الفيلم، إلى درجة أن البعض قد يبكي في بعض اللقطات الحزينة، والبعض الآخر يصرخ في لقطات الرعب. لكن في المسرح الأمر جامد، بل إن الأمر يفتقر كثيراً إلى إثارة انتباه

الجمهور: مجرد مجموعة من الممثلين يتحركون فوق الخشبة بدون مؤثرات. لقد أردت دائماً عندما يوجد مثلاً في نص المسرحية سقوط من الطاولة، أن يكون سقوطاً فعلاً يشعر فيه حقاً الممثل بالألم، حتى عندما يريد أن يبين للجمهور أنه يتألم، يسهل عليه الأمر، لأنه فعلا يتألم، فتأتي الصورة صادقة. أعلم بأن المسرح لا يملك الوسائل التي تحوزها السينما، لكن يجب أن نحاول بالوسائل التي لدينا أن نحرك مشاعر الجمهور. أرجو أن تكوني قد فهمتني؟

تخيّلت ليلية في تلك اللحظة، المخرج وهو يضع الفطر على البيتزا بدون اهتمام كي يشاهد تمثيلية حيّة، وقالت بعد أن صرفت هذه الأفكار عنها:

ـ يبدو أن موت نسرين أشعرك بالغبطة، فهذا يجعل المسرحية حية بحسب ما قلت.

ـ أجل، لكن يبدو أنها ليست وفاة عادية، بل جريمة قتل، بحسب ما علمت.

ـ لكن حتى في نص المسرحية، كانت ستموت مقتولة بالسم. أعتقد أن السم الذي اخترته هو الزرنيخ، إلا أنها في الواقع قد ماتت بفطر سام.

ـ أجل، لقد استغربت ذلك. إن هذا القاتل يبدو أنه ذو دراية قوية بأنواع السموم، فعادة ما يختار البعض السموم المعروفة: الزرنيخ، الحموض، أو بعض المعادن. ثم إن طريقته في وضع الفطر على البيتزا، تُظهر أنه شخص مبدع إلى أقصى درجة. في رأيي أنه لو اتجه إلى ميدان تأليف المسرحيات، لكنا في غزارة في الإنتاج.

ـ هل تخمن من يمكن أن يكون الفاعل؟

ضحك بطريقة مبالغ فيها، وقال وهو يحاول كبت ضحكه:

ـ أعتقد أنك طرحتِ سؤالكِ خطأً، فهذا عملكم وليس عملي. وإن كنتِ تريدين أن أستعمل أفكاري كمخرج وكاتب مسرحي، وأتخيل لك من هو القاتل، فسأجيبك بأنه خطيب القتيلة، كما في المسرحية. وبما أن نسرين متزوجة، فسأقول إنه يمكن أن يكون زوجها، أو شخصاً يكنّ لها مشاعر دفينة. لقد سمعت وشوشات، لا أدري من يطلقها، أن نسرين كانت تتراسل مع شخص مجهول، وأن زوجها علم بالأمر.

ـ من كان سيقتل نسرين في نص المسرحية؟

ـ خطيبها الذي قامت بإبلاغ الشرطة بأنه يعمل مع جماعة إرهابية.

ثم قامت ليلية معه بمراجعة أماكن الجميع وقت ارتكاب الجريمة. بدا أن المخرج لم يضف شيئاً في هذه النقطة، بل أكد ما ذكره الجميع، ما عدا ندى عبد السلام التي تركت المجموعة لتتجه إلى إحدى غرف الكواليس.

كان الشخص الذي أدخله الشرطي للتو، شاباً قصيراً، ممتلئ البنية، برغم أن سمنته لم تكن توحي إطلاقا بالصحة الكاملة. كان ذا وجه وعنق برونزيين تماماً... عرفت أنه عامل النظافة في المسرح الوطني، وقد دخل وهو يرتجف، كأنه رأى شبح الموت... واتجه نحو الكرسي الذي أشارت إليه ليلية، بخطوات مترددة. كانت تشعر بأنه سيهرول إلى الباب بين فينة وأخرى ليهرب، وأول شيء قاله عندما جلس:

ـ هل استجوابي له علاقة بالجريمة؟ هل سيقومون بسجني؟

نظرتْ إليه المحققة بنظرة فاحصة، ثم قالت له بهدوء:

ـ أريد فقط أن أسألك، هل عندما أعطيت البيتزا المتبقية للمتشرد، كانت تحتوي على فطر.

ـ لا أدري، لم أنتبه... لكن دعيني أتذكر. لقد جلست أتحدث مع ذلك المتشرد البائس الذي أخذ يخبرني حياته... كانت سنوات مريرة، إلى درجة أنني شعرت بالرغبة في البكاء من أجله... آه، إني أتذكر الآن... لقد فتح غطاء البيتزا، وقال لي: أوه بيتزا بالفطر هذا ما أحبه، ثم أخبرني أشياء كثيرة. أخبرني أن الناس أصبحوا قساة، ومن النادر أن يقع الناس على أشخاص يفعلون الخير. وأخبرني أنه قبل أن يسمع التصفيق في المسرح (قبل نهاية الفصل الأول من المسرحية) مر به سيد، ومد إليه يده كي يجود عليه بقطعة من النقود، فزمجر في وجهه، ثم أخذ هذا الشخص يحوم حول المسرح، ورأى سيدة تخرج من المسرح بعد ذلك بعشر دقائق، وكانت ترتدي معطفاً أسود، وقدمت إليه كيساً أسود. وقد سمع صوت مشاجرة قصيرة، عادت بعدها السيدة إلى داخل المسرح، وغادر ذلك الغريب.

تأملت ليلية لوهلة ذلك الشاب الذي يقابلها، وهي تفكر في ما قاله، وقالت:

ـ هذا مثير، يبدو أنك الوحيد الذي أعطاه شيئاً يسد به جوعه في ذلك اليوم، لكن مع الأسف لم يكن يدري أنك قدمت إليه شيئاً مسموماً.

ـ أقسم إنني لم أكن أعلم بأن الفطر الذي كان فوق البيتزا مسموم.

ـ هل كنتَ أنت الشخص الذي مثل دور عامل البيتزا في الفصل الثاني.

توهجت وجنتاه فجأة، وقال: أجل، إنه دور لمدة دقيقتين، اقترحه عليّ المخرج، حتى أحصل على بعض النقود.

ـ من أحضر البيتزا من غرف الكواليس؟ عندما حان وقت دخولك المسرح.

ـ كنتُ أنا، أحضرتها عند الساعة الثامنة عشر وإحدى عشرة دقيقة، ووضعتها فوق الطاولة بالقرب من السلالم التي تؤدي إل خشبة المسرح... كان ثمة حشد كبير من الناس: المخرج، مروراً بالفنانين الذين يصعدون بالتناوب إلى الخشبة، أو ينزلون منها.

ـ هل بقيت البيتزا للحظة وحدها؟

ـ لا، فلقد كنتُ أمامها، وكان بالقرب مني المخرج، وقال لي بالحرف الواحد: احذر أن يتناولها أحد، قد يظن البعض أني أحضرتها لوجبة العشاء.

هزت ليلية رأسها، وقالت:

ـ هل ترى معي من يمكن أن يكون الفاعل؟

ـ لا أدري، لكن قبل أيام قليلة، كنت أقوم بتنظيف مرأب المسرح، وسمعت عادل، وهو الممثل الذي يمثل في مسرحية «نسرين ستموت الليلة» خطيبها، يخبرها أن أحدهم يحسدها على إبداعها وطريقة تمثيلها. فسألته إن كان يقصد أن ثمة شخصاً يضمر لها الحسد والحقد، وقد يفكر في إيذائها بسبب الغيرة، فأجاب عادل بـ: نعم.

كان استجواب بقية الممثلين وعمال المسرحية بدون فائدة. كرروا ما ذكروه في محاضر الشرطة بدون أن يُبدوا استعداداً لذكر شيء جديد. أما عادل فاكتفى بالإجابة بأجوبة قصيرة عن الأسئلة بدون أن يعطي شيئاً جديداً، ونفى ما قاله عامل النظافة عن حادثة المرأب.

الفصل التاسع

قصاصة الورق

كانت سيارة الأجرة تحمل كلاً من ليلية برفقة شقيقها، وابن خالتها مليك، والمطر يتساقط بغزارة على الزجاج. لم يتبادلوا أي كلمة، بينما كان مهدي يلتهم بنظراته شوارع المدينة. وعندما توقفت السيارة على بعد أمتار عدة من المقبرة، أسرع مهدي بالنزول، وقال لهما عندما نزلا، وانطلقت السيارة: أرجوكما، إن كنتما لا تمانعان، أريد أن أبقى وحدي مع والدي... أرجوك (أضاف عندما رأى ليلية تهم بالمعارضة)، أريد أن أرى والدي وحدي.

أومأت ليلية، أمام إصرار مهدي، وهي تغطي جسدها بالمطرية: سنبقى في مطعم صغير في الجوار، وعندما تنتهي اتصل بي.

أرسل إليها ابتسامة امتنان، ومشى بخطوات هادئة نحو باب المقبرة الأخضر، بدون أن يبالي بالمطر الذي أخذ يشتد في تلك اللحظات.

كان من الصعب الحصول على طاولة منعزلة قليلاً، مع كل ذلك الحشد الذي قرر فجأة أن يدخل المطعم، إما احتماءً من المطر، وإما لشرب شراب ساخن. وما إن جلست ليلية إلى طاولة بعيدة نوعاً ما عن ضجة الحشد وحديثهم الصاخب، قالت بعد أن طلبت شاياً بالليمون:

ـ أشعر بالأسف من أجل مهدي. لم ير والدي منذ سنوات، وعندما قرر أن يراه، كان ذلك العام ذاته الذي مات فيه في حادث مرور.

نظر إليها مليك، بدون أن يعلق على الأمر، واكتفى بإيماءة رأس خفيفة، ثم قال لها: هل أنتِ تتقدمين في عملك، هل وصلت إلى شيء جديد؟

ـ ظهر أمر جديد... لقد وصلني البارحة تقرير الطبيب الشرعي حول الملابس التي كانت ترتديها الضحية يوم الجريمة.

قال مليك متأنياً، وبدا أن أذنيه ارتختا كأنهما تستعدان لسماع حديث مطول: هل في ملابس نسرين... شيء قد يساعد التحقيق؟

تنهدت ليلية وقالت:

ـ عثُر في جيب المعطف الذي أتت به من المنزل، على ورقة كتب عليها: حذار... هذا المعطف نزعته قبل بداية الفصل الأول من المسرحية، حتى ترتدي ملابس الفتاة البسيطة الخاصة بدورها، وهذا المعطف كان في إحدى غرف الكواليس. . . وبالضبط في غرفة تزيين نسرين غزلان.

ـ هل لهذه القطعة من الورق صلة بالجريمة؟

حركت ليلية رأسها في حيرة: لا أدري، قد تكون مؤشراً، وقد يكون الأمر بعيداً تماماً عما نبحث عنه... لكن لا يمكن أن أغض نظري عن قصاصة ورق، وُجدت في جيب شخص مقتول.

ـ هل تم وضع هذه القصاصة قبل أن ترتدي ملابسها وتذهب إلى المسرح؟ أم عندما غيرت ملابسها وارتدت ثياب المسرحية؟

صمت كلاهما في هذه الأثناء، عندما دنا منهما عامل المطعم، ووضع فوق طاولتهما فنجانين من الشاي، كانت رائحة الليمون العطرة ترتفع من الشراب. وما إن ابتعد العامل، حتى قالت ليلية متابعة حديثها:

ـ لا يمكن الجزم في هذه الحالة... لا يمكننا التأكد من

ذلك. فليس لها وصيفة في المنزل تحضر لها ملابسها قبل أن ترتديها... يبقى فقط في حالة التأكد من أن الورقة وُضعت في ملابسها في المنزل، أن المشتبه فيهم هم حقاً عائلتها. أما إذا وُضعت في المسرح، عندما غيرت ملابسها، فإن القائمة تمتد لتشمل أيضاً زملاءها في المسرح... وهذا يعيدنا إلى نقطة البداية.

رفعت ليلية فنجانها، بعد هذه الجملة، ورشفت منه بعض الشاي الساخن. شعرت بأن جسدها يسترجع كل طاقته. وبدون أن تريد ذلك، جعلها الشاي تسرح في التفكير: إذا كان القاتل هو واحداً من أفراد العائلة، فهل يمكن أن يكون قاتل الأخت الأولى هو نفسه قاتل الأخت الثانية؟ ثم، لماذا أخفت مريم غزلان حقيقتها، وانتحلت شخصية الأخت الثانية؟ هل حقاً كانت تعرف القاتل؟ إذاً، لماذا لم تبلغ الشرطة، أو تقوم بأي شيء. لماذا... ما الذي منعها؟

والعجوز، ذات العينين الحادتي الرؤية، كانت امرأة عجوزاً مشلولة. هكذا قالت نسرين غزلان (مريم الحقيقية) في حصة التنويم، والشخص الوحيد المشلول هو العجوز ياسمين. لماذا كانت تنظر إليها بتلك النظرات؟ هل هي

نظرات اكتشاف الحقيقة، أم شيء آخر؟ هل يمكن أن تكون العجوز ياسمين قاتلة. لكنها مشلولة... النقود، إنها تملك النقود التي تجعل أي شخص يحمل الجثة بعد تسميمها؟ لحظة... أيمكن أن يكون مقتل الأخت الثانية، لأن القدر كان هكذا، أم لأن القاتل اكتشف الخدعة: مريم ما زالت حية؟ فالعجوز ياسمين هي الوحيدة التي تستطيع التفريق بين التوأمين؟ محتمل، لكن لنوسع دائرة من يمكن أن يرتكب الجريمة. ماذا كان يسبب وجودها من إزعاجات. هل كانت تَبتز أحداً؟ أم كانت مصدراً لمضايقات؟ هل كانت تسبب مشاكل لمروان. هل كانت مثلاً تقف عائقاً أمام دفع مروان زوجته مونية، كي تطلب من العجوز ياسمين أن تكتب لها مبلغاً محترماً في وصيتها؟ هذا جائز، فمونية ليست وارثة شرعاً، فهي مجرد فتاة أُحضرت من الملجأ، وهي امرأة ساذجة، تنصاع للأوامر بسهولة. وربما هذا ما جعل مروان يتخلص من مريم، لكنه أخطأ في الشخص المطلوب. لكن، لماذا لم تبلغ نسرين (مريم الحقيقية) الشرطة؟ ما الذي أعاقها؟ أو بالأصح، ما الذي منعها؟ أكان يهددها بالقتل أو بقتل ولديها؟ جائز أيضاً... وربما بسببه دخلت مصحاً عقلياً. أيكون هو من كان يدس لها المخدرات في القهوة! يجب أن أتحرى عن هذه القهوة... محتمل، فالقاتل اعتاد على

تسميم ضحاياه، لكن بعد أن قامت نسرين غزلان (مريم الحقيقية) بزيارة الطبيب النفسي ظهرت حقائق كثيرة استرجعتها، وربما عادت لمحاولتها إخبار الشرطة، بالإضافة إلى هاجس الرقم عشرة، الذي كانت تؤمن به كثيراً... فقرر القاتل هذه المرة أن يضرب ضربته القاضية، فاستغل فوضى الاستراحة الفاصلة بين الفصلين الأول والثاني، ليضع فطراً ساماً فوق البيتزا التي كانت ستُعرض في الفصل الثاني. ظن أن لا أحد سيراه، لكن ليلى رأت مروان يدخل رواق الكواليس، وشهدت بهذا... هذا كله جائز. لكن هذه الأدلة والاستنتاجات كلها يمكن أضعف المحامين أن يدحضها في أول جلسة. سيغلق حينها الملف، ويصفونني بالخيالية. لكن إذا كانت هذه هي الحقيقة، فسيترك القاتل دليلاً حتماً وراءه.

هزت ليلية رأسها بعنف، وضربت سطح الطاولة بقبضة يدها، انطلاقاً من مبدئها: ستجد الكثيرين من القتلة. فسمير مثلاً، يمكنه بسهولة أن يتخلص من مريم، فربما اكتشفت أنه لا يسيّر أموال العجوز ياسمين جيداً، أو ربما اكتشفت أنه يريد التخلص من العجوز ياسمين، فعرقلت مشروعه الخطير، فقام بالتخلص منها. يا إلهي، كل ما تعرفه عن القاتل أنه رجل. تعرفه نسرين (مريم الحقيقية). ولأسباب غامضة، رفضت أن تفضحه، حتى وهي على شفير الموت.

أيمكن أن يكون زوجها؟ أيمكن أن يكون هو!!! ولأنها تحبه كثيرا، رفضت الإبلاغ عنه. لكن عدلان مصباحي لم يظهر إلا بعد عامين من مقتل مريم (نسرين الحقيقية).

ـ بماذا كنت تفكرين، هل لديك فكرة عما تحمله قصاصة الورق، أو من يكون صاحبها؟

أفاقتها كلمات مليك من التفكير، وقالت بصوت خفيض:

ـ كنت أفكر في الدوافع التي يملكها كل فرد من عائلة نسرين لقتلها.

ـ وإلى أين وصلتِ، إن كان لي أن أسأل؟

رشفت من فنجانها، قبل أن تقول بيأس:

ـ إلى أنني خيالية من الدرجة الأولى. إني أرتكز على خيالي أكثر مما أملك من دلائل.

نظر إليها مليك بإمعان، وقال لها:

ـ حسناً، بما أنه لا دليل في حوزتك، فعليك أن ترمي بشبكتك في كل المياه، وانتظري ما ستحمله إحدى الشباك.

قالت ليلية بشكل حالم: إذا كنتَ تتحدث عن شبكة الصيد... فأُعلمك بأن استجواب عمال المسرح جاء بالكثير.

ـ ما هو الجديد ؟

ـ إن المخرج شخص غريب الأطوار... بل إني أشك في سلامة عقله. يحب كثيراً جعل أعماله المسرحية حية، بطريقة أنه يفضل أن يكسر ممثل ساقه حتى يبدو المشهد حقيقياً. بدلا من التظاهر بأنها كُسرت.

ـ أتقصدين أنه يمكن أن يكون قد قتل نسرين حتى تبدو مسرحيته حقيقية؟

ـ ممكن، لكنه يملك دليل البراءة. لقد كان في الوقت الفاصل بين الفصلين مع الممثلين، يقيّم المشهد الأول، ولم يتغيب ثانية.

ـ هل يمكن أن تكون جريمة مدبرة بين أكثر من شخص؟

ـ لا أعتقد ذلك. إن الأشخاص الذين كانوا في غرف الكواليس، هم: ندى عبد السلام، مروان وسمير. لقد شهد أكثر من واحد أنهم رأوهم يتجهون هناك، لكن هؤلاء الأشخاص حتى الآن لا نملك ما يثبت أنهم قاموا بارتكاب

الجريمة. فندى عبد السلام اعترفت بأنها كانت هناك وقت ارتكاب الجريمة لسبب يبدو منطقياً، هو طلاء أظافرها، فهي امرأة تهتم كثيراً بمظهرها، وذهبت في وقت الراحة لتحسين زينتها، ولا يوجد أي مانع من تواجدها هناك وقت ارتكاب الجريمة. أما مروان فقد اعترف بأنه ذهب إلى هناك لتناول دوائه، ولقد تأكدنا من أن مروان يعاني الآلام في رجليه. أما سمير، فلقد أصيب منذ مقتل نسرين بانهيار عصبي منعنا من استجوابه. لم يسمح طبيبه بالحديث معه... أشعر بأن يديّ مكبلتان في هذه النقطة... لكن نعلم بأنه كان هناك وقت حدوث الجريمة، فمروان وسمير لا يعرفان المخرج. أما ندى فهي على علاقة سيئة مع المخرج، ولا أظن أنها تتآمر معه لقتل نسرين.

ـ لديّ فكرتي الخاصة: لنفترض أن أحدهم قد قتل نسرين لأسباب شخصية، فسأقول إن الغيرة هي التي دفعت بندى إلى قتلها. كما أنها، تعرف أن قطعة البيتزا ستحضر عند الساعة الثامنة عشرة بالضبط، وهي من الطبيعي بحكم عملها في المسرح، أن تعرف أين ستوضع البيتزا. كما لا أظن أن نسرين قد أخبرت أفراد عائلتها بمضمون المسرحية. سيكون من السخيف حضور مسرحية سُردت عليّ تفاصيل مشاهدها. ثم إن نسرين كانت مرتبكة بسبب هاجسها بأن

أحداً سيقتلها. لا أظن أنها كانت في مزاج يسمح لها بسرد ما سيحدث في المسرحية.

قالت ليلية بصوت غامض يكاد يكون حالماً:

ـ هل ترى أن ندى يمكن أن تكون الفاعلة، لكن ظاهرياً لا أرى دافعاً لها إلى القتل.

ـ الغيرة! إن نسرين تنافسها في ميدان المسرح... أعتقد أنها تسرق منها الأضواء... ألا ترين معي أن الغيرة قد تدفع بالإنسان إلى ارتكاب أشياء لا تخطر في البال؟

ـ أنا أوافقك عندما تقول إن نسرين قد اختطفت الأضواء من ندى عبد السلام، لكن، ليس في كل الأحوال تدفع الغيرة إلى القتل. فثمة أناس يتحكمون في غيرتهم. ونحن لا نعرف من أي نوع هي ندى، لكن في كل الأحوال، إني أفكر في ما قاله لي عامل النظافة... أخبر عادل ـ وهو ممثل أيضاً في المسرح ـ نسرين أن شخصاً ما يشعر بالغيرة منها إلى درجة أنه قد يفكر في قتلها. إني أفكر في عادل؟ هل يكون هو الذي أرسل هذه القصاصة لتحذير نسرين من شيء مجهول.

ـ ما عليك إلا أن ترسليها إلى المعمل الجنائي وإلى خبير خطوط، فهكذا تقطعين الشك باليقين.

قبل أن تقول شيئاً، رن هاتفها، فأسرعت تُخرجه من حقيبة يدها. وعندما رأت اسم أخيها يظهر على شاشة الهاتف، نهضت، وقالت: إنه ينتظرنا أمام مدخل المقبرة... علينا أن نسرع. لدي إحساس بأن حالته النفسية ستسوء بعد هذه الزيارة لقبر أبي.

ارتدى مليك معطفه بدون أن يعلق، وخرجا معاً إلى الشارع. كانت الأمطار قد توقفت عن الهطول، تاركة الأرصفة غارقة في أوحال قذرة. عضت ليلية على شفتها، عندما تذكرت أنها ترتدي حذاءها العالي الساقي، وتذكرت أن لا طريق أخرى للذهاب إلى المقبرة غير هذا الرصيف الموحل. وما زاد في وطأة حسرتها، أنها تذكرت أنها لم تحضر سيارتها، لأن خالتها أخذتها لزيارة طبيبها. لم يكن ثمة حل آخر، إلا أن تدوس على قلبها وتغوص في هذه الأوحال.

كان مهدي واقفاً أمام بوابة المقبرة. كان يبدو أنه كبر عشر سنوات منذ أن نزل من السيارة. لم تكن الأمطار قد مسته بشيء، لكن شكله كان يبدو كأن أحدهم نزع معطفه، ورفسه برجله. عندما رأت ليلية الحالة التي كان عليها شقيقها، هالها ما شاهدت فحاولت أن تحثّ الخطى، لكنها

كلما حاولت أن تسرع، كانت خطاها تغوص أكثر في الأوحال. شعرت بأن مشيتها تتثاقل. وما إن وصلا إلى مهدي، حتى أشاح بناظريه عنهما، وغمغم: هل يمكننا أن نعود إلى المنزل؟

لم يجب أحد، فشعر مهدي بأن عليه أن يعيد السؤال، لكنه اضطر هذه المرة إلى أن ينظر إليهما. وما إن همّ بالأمر، حتى شعر بضربات قلبه تزداد. لكنه في النهاية، استدار وهو يقاوم دموعه: ألديكما مانع إذا عدنا إلى المنزل الآن؟

أومأت ليلية، بعدما زفرت زفيراً عميقاً، وقالت وهي تلتف إلى جهة الطريق، بعد أن كانت مولية ظهرها له: سنذهب... إن المكان يدعو إلى الكآبة... قبل أن تكمل كلامها، مرت بالقرب منهم سيارة أجرة، فصاحت على السائق ليتوقف لهم. عندما ركبوا، أخرج مليك علبة المناديل من الجيب الداخلي، وأعطى واحدة لمهدي. كانت الدموع تترقرق في ركني عينيه. في تلك الأثناء، كانت ليلية تستعد للركوب، بعد أن حاولت بدون جدوى أن تمسح قليلاً حذاءها. رأت ابن خالتها وهو يعطي المنديل الورقي لأخيها. ماذا أصابه. جمدت للحظة، وهي تحدق في

المنديل، ولم تفق إلا عندما نطق السائق بفظاظة مموّهة ابتسامة باهتة: والآن، إلى أين تريدون أن تذهبوا؟

همّ بأن ينطق مليك، ويطلب من السائق أن يوصلهم إلى منزل الخالة فريال، إلا أن ليلية قالت فجأة بدون توقع: هل يمكنك أن تقودنا إلى المسرح الوطني، «محيي الدين بشطرزي»؟

نظر إليها كل من مليك ومهدي، وقال لها ابن خالتها: لماذا تريدين أن تذهبي إلى هناك؟

كانت ليلية تفكر بسرعة. شيء ما لفت انتباهها، لكنها لم تستطع أن تفسر في تلك اللحظة ما هو ذلك الشيء، ولا حتى أن تقول شيئاً لمهدي ولمليك اللذين كانا يحدقان فيها في انتظار أي تفسير.

ـ ثمة شيء عليّ أن أتأكد منه... بسرعة.

لم يعترضا، بل أطرقا برأسيهما. كانا يعرفان طبيعة عمل ليلية، وأنه لا يعرف وقتاً محدداً. وبرغم أن مهدي كان يشعر بأنه في حالة نفسية سيئة، لم يعترض على الذهاب إلى المسرح الوطني.

كانت السيارة تشق طريقها، تارة في الأوحال، وطوراً

في بقع الماء، بينما كانت ليلية تشعر بأن قلبها سيتوقف بين لحظة وأخرى من سرعة دقاته. كانت تتمنى أن تصل إلى ذلك المكان في طرفة عين.

مرّ ربع ساعة بدا كدهر، من الارتجاج في السيارة بسبب الحفر التي سببتها الأمطار في الطرقات، حتى وصلت السيارة إلى ساحة بور سعيد. التف السائق يميناً، وتوقف. أسرعت ليلية بالنزول، بينما أنقد مليك السائق... وما هي إلا ثوان حتى ركضوا ثلاثتهم إلى المسرح.

قال مليك وهو يعدو: هل تبين لكِ خيط ما؟

صاحت ليلية، وهي ترتقي درجات المسرح: أجل... عليّ أن أرى غرفة الكواليس التي غيّرت فيها نسرين ملابسها.

ما إن وصلوا إلى باب المسرح، حتى كادت ليلية تصطدم برجل قصير القامة، ذي وجه مترهل من الخدين إلى الثغر. وبرغم أنها حاولت تجنب الارتطام به بسبب سرعتها، إلا أن الاصطدام كان لا مفر منه، ترنحت ليلية إلى الوراء. ولو لم يكن مليك خلفها، لكانت تدحرجت كالكرة على السلالم خلفها.

ـ أنا آسف... اعذريني.

قال هذا، وهو يمد يده إليها كي يساعدها على استرجاع توازنها، ثم أخذ يتحدث: أرجو ألا أكون قد تسببت لك في ضرر... لكن، ماذا تريدين أن أفعل، إن هؤلاء البشر الذين نعيش معهم، يجعلون أعقل الناس يفقدون صوابهم.

«هل يمكن أن أعرف ما سبب سخطك؟»، سأله مليك مستفسراً.

طأطأ ذلك الرجل رأسه، وأطلق زفيراً عميقاً، وقال بصوت كمن أصيب ببلاء لا داء له:

ـ لقد اضطررت إلى إصلاح سلك الكهرباء الذي تقطع في الرواق المؤدي إلى غرف الكواليس، وتغييره كلياً، لأنه يبدو أن الذي قطعه شخص أحمق وغبي... اعذروني إن كنت أستعمل عبارات فظيعة... لكنها الحقيقة... لقد قطع السلك من الوسط، فاضطررت إلى تغيير السلك كله. وفي النهاية يعطونني أجراً بخساً. إنهم لا يعرفون شيئاً مما يعني تغيير سلك الكهرباء.

أخرج السلك الذي غيره، وتابع بصوت ساخط وناقم على جميع البشر:

ـ إنهم لا يفهمون شيئاً في الكهرباء. إنهم مجرد أغبياء يمتهنون الفن بدون أن يعرفوا ما معنى فن العمل.

وتابع يتحدث، ويتحدث، لكن ليلية جمدت في مكانها تنظر غير مصدقة إلى سلك الكهرباء، وإلى نقطة وردية فوقه.

دخلت ليلية مكتب وكيل الجمهورية، ووجهها لا يعبر عن شيء إلا عن القلق والتوتر، وتحدثت مع رياض بنبرة تكشف عن مدى توترها. وأول شيء قاله لها عندما رآها تدخل مندفعة: أرجوك، لقد دخنت سيجارة الآن... إن رائحة التبغ ما زالت في الجو... هذا يعني أنني لست في مزاج يسمح بسماع أي شيء... لقد سمعت منذ الصباح شكاوى الناس... وجميعهم نساء.... يا للنساء، إنهن يحببن خلق المشاكل. الآن، أعرف لماذا عزفت عن الزواج، لا أريد أن أسمع المشاكل... جميعهن، يأتين ليشكين من جيرانهن.

لكنه، قبل أن يغوص أكثر في ثرثرته، وضعت ليلية، بضجة مفتعلة، كيساً بلاستيكياً أمامه كان في داخله سلك كهربائي. انحنى رياض ببطء، وتأمل ما كان موجوداً داخله. وبعد لحظة رفع رأسه إليها، وقال لها وظهره لا يزال منحنياً على الكيس:

ـ أهذا هو مفتاح الجريمة... الشيء الذي يفك الألغاز... سلك كهربائي مقطوع.

فتحت ليلية الكيس، وأخرجت السلك، وقربته من عيني رياض، بحيث يستطيع ملاحظة لطخة وردية عليه، وقالت بعد وهلة:

ـ أتفكر في ما أفكر فيه ... إنه طلاء أظافر وردي.

استقام رياض في هذه الأثناء، في جلسته، ومط شفتيه بقوة، وقال وهو يبتلع ريقه بصعوبة:

ـ هل هذا يعني أن ندى عبد السلام؟

توقف قبل أن يكمل جملته، وعادت إلى ذهنه صورة ندى، بشعرها الطويل، وأناقتها اللافتة. . . أيُعقل أنها كانت تخفي وراء هذه المساحيق امرأة... امرأة قاتلة؟!!!

أخرجه من دوامة أفكاره، صوتُ ليلية، وهي ترمي بجثتها على الكرسي إلى يمينها.

ـ ليس ثمة شيء أكيد... بحسب إفادتها، فبمجرد انتهاء المسرحية نزلت من الخشبة، واتجهت مباشرة إلى غرفتها في أول الرواق (إن نزلنا من الخشبة وذهبنا إلى غرف

الكواليس، فإن غرفتها هي الأولى، أما إذا أتينا من جهة مقاعد الجمهور، فإن غرفتها تأتي في نهاية الرواق) وأسلاك الكهرباء الموصولة بإنارة غرف الكواليس، موجودة في نهاية الرواق إذا أتينا من الخشبة.

ـ إذاً، بحسب شهادتها، فلقد نزلت من الخشبة، وذهبت تطلي أظافرها، ثم عادت إلى الخشبة، أي أنها لم تتنزه في الرواق ولم تقطع سلك الكهرباء.

ـ هذا دليل على أنها كذبت علينا... آخ (كان مسماراً صدئاً بارزاً إلى الجانب الأيمن من الكرسي الخشبي. تمنت أن تقول له أن يخصص شيئاً من ميزانية المحكمة لتجديد الكراسي، لكنها شعرت بأن هذا سيغير موضوع قدومها إلى مكتبه، فقررت متابعة موضوعهما الأساسي)... إن وجود الطلاء على هذه السلك... السلك ذاته الذي قُص لقطع الكهرباء في غرف الكواليس، يجعلني حائرة... أريد أن أعرف لماذا قطعتْ سلك الكهرباء؟ هل للأمر علاقة بالجريمة، أم أننا أمام أدلة ظرفية؟

ـ حسناً، مروان أخبرنا أنه شهد عندما دخل الرواق المؤدي إلى غرف الكواليس ظل شخص، وأكد أن الأمر يتعلق بامرأة. حسناً، إن كانت حقاً لم تقطع السلك، فإن

مروان لم يكن أصلاً قد لاحظها. فالحمام موجود في نهاية الرواق إذا أتيت من ناحية خشبة المسرح، وفي أوله إذا قدمت من ناحية المقاعد.

ـ هل الأفضل أن نعيد التحقيق مع كل من مروان ثم ندى؟

ـ أجل، إن ثبت حقاً أن ندى قامت بقطع سلك الكهرباء، فسيبقى أمامنا أن نجيب عن سؤال ثان: لماذا؟

ـ هل يمكن ندى عبد السلام أن تضع الفطر السام قطعاً على البيتزا؟

ـ لا يمكن أن نحدد إن كانت قادرة أو لا بمجرد اللجوء إلى أحاسيسنا.

تريثت ليلية قليلاً، وقالت بصوت خافت وهي تفكر:

ـ لكن يبدو أن الشخص الذي وضع الفطر القاتل، ذو دراية لا يستهان بها في السموم. فلماذا لم يضع حمض الفينول مثلاً... لأنه كان يدري أنه سيلفت الانتباه، برائحته القوية... أتدري مع كل عبقرية ذلك المخرج المغرور، فإني أرى القاتل أفضل منه في تخيل الأشياء. فبرغم كل عبقريته، لم يصل عقله إلا إلى تخيل الزرنيخ الأبيض فوق

البيتزا، كي يبدو ملحاً. لكن إذا رأى شخص المسحوق الأبيض بكثرة فوق قطع البيتزا، ألن يفكر في أن البيتزا قد تكون مالحة كثيرة، وعندها سيمتنع عن الأكل، هذا إن كان عقله سريع الملاحظة، وظنه ملحاً. وشخص أخرى، سيسأل مثلاً الطباخ ما هذا الشيء الأبيض، فهو لا يشبه ما هو معتاد وضعه فوق قطع البيتزا. وعلى خلاف تفكير المخرج، القاتل شخص أراد لجريمته أن تحدث فعلاً كضربة قاضية. قطع الفطر فوق البيتزا. إنه شيء عادي أن ترى قطع الفطر فوق البيتزا، ولن يشك في الأمر أذكى الناس أو حتى أدقهم.

رسمت جبهته ثمانية خطوط للتجاعيد، واقترب حاجباه وهو يقول:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أننا نتعامل مع قاتل ليس ذكياً فقط، بل يعرف كي يمرر الأشياء بدون أن يلفت الانتباه، حتى لو دققت فيها. إن الأمر لا يتعلق بالخدعة أو السحر، لكنه يعرف بمهارة كيف يعطي لأفعاله التي هي من المنطقي أن تكون مشبوهة، طابع النادية، فتبدو لنا كأنها أمور طبيعية تحدث كل يوم.

شعر رياض بصداع في صدغيه، وتاه عما كانت تقوله ليلية. وعندما انتهت من كلامها، قال لها:

ـ حسناً، يبدو أنك غرقت في التحليلات الفلسفية.

ابتسمت ليلية ونظرت إلى سقف الحجرة، وقالت كأنها لا توجه كلامها إلى وكيل الجمهورية:

ـ بحكم خبرتي، ولأني امرأة تحب طلاء الأظافر، فإن ثمة شيئاً لفت انتباهي... في الحياة العادية، عندما يطلي المرء أظافره، فإنه يبقى بعيداً عن الأشياء مدة معينة، حتى يجف الطلاء، وهذه الحقيقة البديهية يعرفها الجميع، وأظن حتى الرجال. إني أستغرب لماذا طلت ندى أظافرها إن كانت حقاً تريد وضع الفطر بدون أن تُبقي أثراً... إن شخصيتها تتناقض مع طبيعتَي الجريمة والمجرم الذي نطارده.

ـ هل حكمت لها بالبراءة؟

ـ لا، ليس بعد. إنها مجرد أفكار ستحملها الريح. في كل استجواب جديد تظهر حقائق جديدة، وأحياناً قد تغير مسلك التحقيق تماماً. بالمناسبة، لدينا جديد في قطعة الورق التي وجدناها في جيب الضحية. لقد كتبت على

قطعة من منديل ورقي، يوجد العديد منه في غرف التزيين الموجودة في المسرح.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ لقد كان هذا هو السبب الذي دفعني البارحة إلى الذهاب إلى المسرح الوطني... إن ظهور هذه الورقة يحمل الكثير من المؤشرات إذا كانت لها علاقة بالجريمة، فهذا يبين لنا أن أحدهم اشتمّ أن مكروهاً سيقع لنسرين غزلان (مريم الحقيقية)، وحاول بكل جهده أن يحذرها، مع إبقاء هويته في الظل. وهذه النقطة أجدها مثيرة وغامضة بعض الشيء. لقد فكرت في احتمال أن تكون هذه الورقة قد دُست في ثياب نسرين قبل أن تلبس ملابسها، لكن هذا الاحتمال بدا لي ضئيلاً، لأن نسرين تحضر بنفسها ملابسها. ليس لديها خادمة أو وصيفة تتكفل بهذا الشأن. ثم إن نسرين سترتدي ملابسها في غرفتها، بحيث تصبح مغامرة خطيرة إن أراد أحدهم أن يتسلل إلى غرفتها لوضع تلك القصاصة، مع وجود الجميع في المنزل... فكرة أن يتسلل أحدهم إلى غرفتها في إحدى حجرات الكواليس أقرب إلى الواقع. لكني أردت ما يؤكد لي هذا، وحدث أن رأيت ابن خالتي البارحة يمد إلى شقيقي منديلاً أبيض، وهنا جاءتني فكرة، وأدركت كم كنتُ غبية عندما لم أفطن إلى

طبيعة الورق التي كُتبت عليها تلك الكلمة. كان عليّ أن أتأكد، فهرولت إلى المسرح. هناك اكتشفت هذه اللطخة الوردية على سلك الكهرباء، واكتشفت أن القصاصة ما هي إلا منديل ورقي خاص بالمسرح. يوجد الكثير من تلك العلب في المسرح... وشاهدت في علبة المناديل الموجودة في غرفة نسرين في المسرح، القطعة التي قطعت منها القصاصة، لأن الفاعل أعاد القطعة إلى داخل العلبة، فلم يتخلص منها عامل النظافة... لأنه بكل بساطة لم يرها.

ـ هذا يقودنا إلى أن شخصاً ما دخل غرفة نسرين في وقت ما، لكن بعد بداية الفصل الأول، ومزق قصاصة من المنديل الموجود هناك، وكتب كلمته.

ـ أجل... لا نعرف من هو هذا الشخص، لأننا بقصاصة ورقية لا نخطو خطوة واحدة. علينا أن ننتظر نتائج خبير الخطوط، لنعرف من كتب تلك الورقة.

مر وقت قصير، صمت فيها الاثنان. كان صمتاً ثقيلاً، وكان يبدو أن كلاماً كثيراً حائراً بين شدقي ليلية، ثم فجأة كأنها أدركت وجود جو خانق قد خيّم على المكتب، سوّت خصلة من شعرها، وقالت وهي تدفع بها وراء أذنها: آه، أرجو ألا يثير الأمر أعصابك. أعلم بأنك لا تصدق تلك

الفكرة بأن الجريمتين مرتبطتان، لكن يجب علينا أن نعيد النظر في تلك الجريمة التي حدثت قبل عشر سنوات.

تحرك رياض في كرسيه باضطراب، ومط شفتيه بتذمر واضح، وحاول أن يقول شيئاً، لكن غمغمة مبهمة خرجت من فمه. شعرت ليلية بالحرج، وقالت كرد على ملامح التذمر التي غلفت تقاطيع وجهه: أرجو ألا تعتبرها وقاحة مني، لأنه إذا لم تصدقني، فأُعلمك بأن نسرين غزلان (مريم الحقيقية) تعرف من قتل شقيقتها، ولن أترك هذا الطريق بدون أن أرى إلى أين سيؤدي... حتى وإن رفضتَ...

لكنها، قبل أن تكمل كلامها، قهقه رياض وقال بصوت ضاحك: يا لك من لبؤة شرسة! هل تعتقدين أنني سأترك طريقاً بدون أن أمرر عليه عدسة مكبرة... برغم أنه لا يوجد شيء يشير إلى احتمال أن يكون مقتل تلك الصحافية جريمة قتل، لكن ثمة نقطة جعلتني أعيد النظر. ما قالته لك نسرين وهي على شفير الموت، بأنها مريم غزلان وليست نسرين.

حدقت فيه ليلية، وقالت: هل أخرجت ملف مريم غزلان من الأرشيف.

ـ أجل... لكن للأسف لا يوجد شيء في الملف... لم

يجر أي تحقيق، سوى تشريح الجثة. وعندما حكمت المحكمة بعدم إجراء تحقيق رسمي في جريمة يُعرف من فاعلها، رُمي بالملف فارغاً في رفوف الأرشيف... لكن لا تفقدي الأمل، فبعض الجرائد غطت الموضوع، لكن ليس بما نتمناه. فجريدة «الأيام» ذكرت بعض التفاصيل التي أراها مهمة، ذكرت أنه في صباح يوم اختطاف مريم (نسرين الحقيقية)، كان يوم عطلة، ذهب فيه مروان برفقة زوجته مونية إلى حديقة الحيوانات ببن عكنون، أما العجوز ياسمين فذهبت برفقة مرافقتها ليندة إلى حصة التدليك، وقصد سمير بحر «مخلوفي» للاستجمام، بينما ذهبت زوجته إلى طبيب العيون، وبقيت مريم مع نسرين، لأنها كانت تعاني صداعاً رهيباً. أما في البلاغ الذي قدمته عائلتها بعد اختفائها من المنزل، فقد كان يحتوي على شهادة نسرين (مريم الحقيقية) التي قالت إن شقيقتها شعرت برغبة في الترويح عن نفسها، فخرجت بعد أن أصرت على نسرين (مريم الحقيقية) ألا ترافقها... وبقية الرواية أصبح الجميع يعرفونها... عندما خرجت مريم غزلان (نسرين الحقيقية)، في تلك الأثناء، كان الإرهابيون يراقبونها، واستغلوا فرصة عدم وجود شخص معها، وقاموا بخطفها، ثم بقية القصة تعرفينها.

ـ أجل، هذا ما ظنه الجميع في ١٩٩٥، لكن أموراً

حديثة طرأت في ما بعد كي تغير هذه الفرضية التي كانت راسخة في أذهان الجميع. مريم الحقيقية أخبرتني عن جريمة رأتها، وبما أن آخر مرة كانت فيها نسرين الحقيقية حية كانت يوم العطلة، فإن الجريمة وقعت في المنزل... أحدهم أتى إلى المنزل، وارتكب الجريمة، ومريم الحقيقية رأته. شخص كان يريد قتل مريم وليس نسرين، لكن لسبب قد يبدو نسبة إلى التشابه الكبير بينهما، جعل القاتل يخطئ في هدفه.

ـ هل تلمحين إلى أن القاتل شخص يعرف جيداً العائلة؟

أكملت ليلية جملته قائلة:

ـ أو فرداً من العائلة... حتى تقبل منه نسرين شراباً مسموماً بالزرنيخ.

سكتت لحظة ذات مغزى.

ـ هل تقصدين أن أحدهم خطط لهذه النزهات المنفردة، ثم عاد من نزهته المصطنعة، وارتكب جريمته.

ـ إن هذا الاحتمال لا يمكن أيضاً استبعاده.

رفعت ليلية كتفيها بشيء من اللامبالاة.

هز رياض رأسه محبطاً، وقال: حسناً، إننا لم نتقدم كثيراً. لا شك في أننا مقيدو الأيدي حتى يصلنا تقرير المعمل الجنائي.

الفصل العاشر

الفطر القاتل

كانت الساعة تشير إلى التاسعة إلا خمس دقائق عندما دخلت ليلية المنزل، منهكة. كانت خالتها نائمة، فهي ليست من الطبع الذي يبقى يقظاً بعد وجبة عشاء دائما تكون دسمة، أو بدون مذاق. فبمجرد أن تتناول دواءها تخلد إلى النوم. كانت تعتقد أن شقيقها ومليك قد خرجا للسهر خارجاً، لكنها تفاجأت عندما لمحت خيال أخيها بشعره نصف الطويل يجلس مائل الظهر على كرسي في البهو، ووجهه غارق في الظلام.

نزعت المفتاح من القفل، ودنت إلى طاولة في وسط البهو، ووضعت فوقها معطفها وحقيبة يدها. تحرك في هذه الأثناء، شقيقها من كرسيه، وقال: مساء الخير ليلية.

كانت ليلية آنذاك، ترمي بمفتاح السيارة على الطاولة، ويسكنها تعبير قلق يملأ ملامح وجهها، فلم تسمعه حتى عندما قال لها «مساء الخير». دنت منه بخطوات هادئة،

وقالت عندما أصبحت تستطيع أن تميز وجهه في الظلام: لماذا أنتَ هنا؟ ألم تخرجا؟

بدا أن مهدي لا يملك الإجابة لهذا السؤال. بدا كأن قوة غريبة جعلته يجلس في البهو غارقاً في الظلام. رفع رأسه، وقال لها وهو لا ينظر إليها: هل تمانعين إن تحدثت معك قليلاً. أشعر بالضيق.

أومأت ليلية برأسها، وقالت: هل تريد أن نتحدث في الحديقة.

وقبل أن تتمكن من اقتراح مكان آخر، كان مهدي قد نهض، ومشى نحو الباب، ثم استدار وقال بصوت خافت: أفضل أن نتحدث في الخارج، لا أريد إزعاج خالتي. لقد تناولت دواءها للتو، وصعدت إلى غرفتها.

لم تُبد ليلية أي معارضة. كانت تشعر بأن زيارة مهدي قبر والدها، قد حركت في داخله ذكريات حزينة ومؤلمة في آن. فتح الباب بهدوء، فتسربت نسمات باردة إلى داخل المنزل، تذكرت معها ليلية أن تعيد لبس معطفها قبل أن تخرج. وعندما وجدا مكاناً قرب جذع شجرة الزيتون، قال مهدي وهو ينظر إلى الشارع: هل تألم أبي عندما مات؟

بد أن ليلية لم تفهم ما كان يقصد، فبقيت لفترة صامتة، فأعاد مهدي صياغة سؤاله: هل مات والدي على الفور في الحادث، أم لفظ أنفاسه في المستشفى؟

ضمت ليلية جسدها بين ذراعيها، وقالت بصوت حزين: توفي فور وقوع الحادث... ثم انفلتت فجأة منها أعصابها، وقالت: لا يجب أن تشعر بالذنب، فليس لك دخل، وليس ذنبك إن لم تكن تستطيع أن تعود إلى الوطن في الوقت الذي طلب منك أبي فيه أن ترجع إليه.

لم يهزه كلام ليلية، وكل ما فعله أن أطلق زفرة طويلة قبل أن يقول: لم يعد الأمر مهماً... ثم نظر حوله، وقال محاولاً تغيير الموضوع: كيف أحوالك يا ليلية؟

قالت وهي ترسل ابتسامة وضّاءة في ذلك الظلام الحالك، يكسر حدة ظلمته عمود النور القريب من منزلهم الذي كان يبث نوراً في الشارع: أموري جيدة، تسير على أحسن ما يرام.

ثم قال مهدي كأنه يريد أن يستطلع عن كل كبيرة وصغيرة في حياة شقيقته: أين وصلت في القضية التي لديك؟

رفعت ليلية كتفيها بإعياء ظاهر، وقالت بعد أن أصدرت زفرة تذمر: الأمور لا تتوقف عن التشابك. فالجريمة التي وقعت في المسرح الوطني، لها علاقة بجريمة ارتُكبت قبل عشر سنوات. والمحبط أن الأرشيف لا يحتفظ بشيء مفيد يتعلق بهذه الجريمة القديمة.

كان مهدي قد رمى بسؤاله بدون أن يريد أن يدخل في غمار النقاش حول شيء له علاقة بالجثث وأدوات القتل، لكن ثمة فكرة كانت في رأسه، وكان يريد أن يخبر بها ليلية.

ـ سأخبرك بشيء قد يساعدك في قضيتك... لقد قرأت بعض الأوراق التي تركتها في مكتبة حجرة الجلوس، أرجو ألا تعتبريها تدخلاً مني ووقاحة، لكني وقعت عليها صدفة عندما كنت جالساً في الحجرة لا أفعل شيئاً... وخطر في بالي شيء أنه قد يكون ذا فائدة: أن يكون القاتل شخصاً سافر حديثاً أو منذ مدة قصيرة إلى خارج الجزائر.

استدارت إليه ليلية، وأخذت تنظر إليه ولم تفهم ما كان يرمي إليه:

ـ ماذا تقصد بشخص سافر حديثاً إلى خارج الوطن؟

ارتبك مهدي، ولم يعرف كيف يشرح لها. كان يظن أن هذا الأمر خطر في بال ليلية أيضاً، وقال في محاولة يائسة لتبسيط ما يدور في رأسه:

ـ أكان سبب الوفاة تناول فطر الأمانيت السام، الذي يسمى مَلك الموت؟

أومأت نسرين برأسها بدون أن يظهر لها ماذا يريد مهدي أن يقول.

ـ كيف سأشرح لك... لقد درستُ الطب، وأعرف الكثير عن أنواع السموم والنباتات السامة.... هذا الفطر بقبعة بيضاء، ينمو في الغابات ذات الأشجار الكثيفة والأشجار الكبيرة. . . أي في المكان الذي تنمو فيه أشجار الزان، وهي ذات أخشاب صلبة قوية مرنة وصناعية. وكذلك في أماكن نمو أشجار البتولا، وهي أشجار حرجية، أو ينمو في غابات الصنوبريات، كما في أرض حامضة، وينتشر كثيراً في شمال فرنسا، ونادراً في جنوبها.

ـ هل تعني؟

سكتت سكتة ذات مغزى، وضربت جبهتها بقوة، وقالت: كم أنا غبية! كيف لم أنتبه إلى هذا الأمر، برغم

أهميته! لم أفكر إطلاقاً في ملاحظة: من أين يكون القاتل قد أحضر هذا الفطر السام.

* * *

إن النوم أمر غامض وعجيب ومعقد. فالمرء يأوي إلى الفراش قَلِقاً من بقاء نقطة بقدر كبير من الأهمية بدون أن يجد لها معنى أو تفسيراً، ومحتاراً من مئات الأمور الأخرى، فيأتي النوم ليأخذه بعيداً عن هذا كله. يسافر به بعيداً، ولا يدري أين كان. فإذا استيقظ فإنه يفتح عينيه على عالم جديد بلا هموم.

هكذا استيقظت ليلية، من ليلتها البارحة الأرقة، كأنها لم تبق تتقلب في فراشها باستمرار تفكر في ما قاله لها شقيقها عن الأمانيت السام ذي القبعة البيضاء. كانت تشعر بأن نشاطاً زائداً يغمر جسدها، فأمامها عمل كثير هذا النهار، فعليها إعادة استجواب مروان، والتأكد مما إذا كان الشخص الذي لمحه يركض في الرواق عندما ذهب إلى الحمام لتناول الدواء، يُحتمل أن يكون ندى أم لا؟

دخل مروان، وهو يرتدي بدلة أنظف من الأول. بدا وجهه مشرقاً، وأساريره مرتخية، وجلس على الكرسي بدون أن ينتظر أن تأذن له ليلية. كان يبدو أنه اعتاد على المكان،

فجلس على الكرسي مائلاً ظهره قليلاً إلى الوراء، وقال بصوت من تناول وجبة دسمة وذهب ليباشر عمله:

ـ حسناً، يبدو أنه ظهرت أشياء جديدة، جعلتكم تحومون حولي من جديد... هل أنا مخطئ؟

لم تعلق ليلية على هذه الملاحظة، وقالت:

ـ استدعيتك كي تؤكد لي بعض الأمور التي ذكرتها في الاستجواب الأول.

أشاح مروان نظره عن وجه ليلية، وأخذ ينظر إلى الحائط الأبيض الذي كان يقابله، وقال بصوت لا يخفي فيه حنقه:

ـ في ما يتعلق بمكان وجودي... أهذا ما تريدين أن تعرفيه؟ في بعض الأحيان، تكونين في مكان الجريمة، وفي وقت الجريمة، فيصعب على الآخرين تصديق أنكِ بريئة، وخاصة إن كان أشخاص آخرون أخبروا الشرطة بسجل سوابقي العدلية.

أخرجت ليلية ورقة من ملف طويل، وقالت كي تقطع ثرثرته:

ـ حسناً... ليست للأمر علاقة بمكان وجودك، بل بشيء آخر، سأراجعه معك. لكن هذه المرة سأطرح عليك أسئلة إضافية كي أعرف المزيد من التفاصيل... سأفعل ذلك بعد أن تؤكد ما قمت بإفادته في التحقيق الرسمي الأولي.

خف قلقه، وتمكن من النظر إلى ليلية بدون أن ترتجف يداه:

ـ لقد طرحتم عليّ العديد من الأسئلة، ولا أفهم ماذا تقصدين بتأكيد ما قلته في الاستجواب الأول؟

ـ ما يتعلق بأنك سمعتَ حين دخلت الرواق المؤدي إلى غرف الكواليس، وقع كعب حذاء عالٍ. وقد سألتك إن كنتَ تعتقد أن الشخص الذي كان يركض هو امرأة، وأجبت بكل يقين بأنه نعم سيدة.

تقارب حاجباي مروان في تعبير واضح عن الشك، وقال باستغراب:

ـ هل قلتُ هذا؟

رفعت ليلية حاجبها الأيسر، وتريثتْ قليلاً ثم قالت:

ـ إنها أقوالك، ولقد قمت بالتوقيع على هذه الشهادة، إلا إذا كنتَ تنوي أن تنفي ما ذكرته في الاستجواب الأول؟

ـ حسناً، لا أتذكر جيداً ما حدث، لكن الشيء الوحيد الذي أنا متيقن منه أنني لم أر أي أحد، ولم أسمع وقع حذاء على البلاط.

ـ هل أنت متأكد مما تقوله؟

ـ أجل، ربما تفوهت بتلك الحماقات، لأنني كنت متوتراً، ومحبطاً. إن الأقراص التي أتناولها ضد الإحباط تجعلني أتخيل أشياء لم تحدث، بل أحياناً أرى أناساً أو أشياء غير موجودة أصلاً.

أصرت ليلية: لكن وصفكَ سماعك صوت كعب حذاء عالٍ، لا يدل على أنك كنتَ تتخيل.

رفع مروان كفيه إلى الأعلى في إشارة إلى أن الأمر ليس في يده، وأن الدواء هو الذي يجعله أحياناً يهلوس، ثم أضاف عندما رأى شفتي ليلية ترتخيان في إشارة إلى أنها لا تصدق تماماً ما يقوله:

ـ لا أدري، يمكنكِ التأكد من الآثار الجانبية التي يسببها لي الدواء، إن كنتِ لا تصدقينني.

استسلمت ليلية للأمر، وطأطأت رأسها لحظة، ثم قالت بعدما راجعت بعض الأمور في دفترها:

ـ إذاً، أنت لم تر ندى عبد السلام؟

ـ أتقصدين تلك الممثلة الحسناء؟

ـ أجل، نعتقد أنها هي من قطعت سلك الكهرباء الذي تسبب في انقطاع التيار في غرف الكواليس. اكتشفنا بقعة من طلاء أظافرها فوق السلك الذي قُطع، لهذا أعتقد أنك سمعت خطوات كعب عال حقيقية، لأن ندى عبد السلام، كانت ترتدي حذاء ذا كعب عالي في ذلك اليوم. ربما تخيلت في ما بعد أنك توهمت الأمر، لكن في الحقيقة سمعته، لأن أقوالك تتطابق مع ما لدينا من الأدلة.

ـ أخبرتكِ أنني متأكد من أنني لم أر أحداً، ولم أسمع شيئاً. وهذا آخر كلام عندي.

ـ ما رأيك لو قلتُ إننا اكتشفنا شيئاً يتعلق بك.

ـ ما هذا الشيء؟

ـ لقد وجدنا قصاصة ورق في ملابس نسرين (مريم الحقيقية)، وهذه القصاصة أُخذت من ورق المناديل الورقية الموجودة في غرف كواليس المسرح. والأغرب أن في هذه الورقة كتبُ عليها: «حذار»، والمثير في هذا كله، أن كلمة «حذار» هذه كُتبت بخط يدك.

شحب وجه مروان، وبدا كأنه فأر وقع في فخ، لكن ليلية لم ترد أن يكون هذا الشحوب رداً على هذه المعلومة الخطيرة، وراحت تذكّره بأشياء قالها في الاستجواب الأولي: أخبرتنا أنك تعرف شيئاً مهماً، وأنك رفضت التصريح عنه خوفاً من أن تجر أناساً أبرياء. أظن أن الوقت قد حان الآن لتخبرنا بماذا اكتشفت، وماذا كنتَ تقصد بكلمة حذار؟

ـ لا أرى إلا أن أروي لكِ ما سمعته، إلا أني لستُ متأكداً من شخصية الذي كان يتحدث.

ـ هل سمعت محادثة ما جعلتك تسرع وتبعث بهذه القصاصة إلى نسرين غزلان؟

ـ أجل، في ليلة الثامن من آذار/مارس... كنتُ سأصعد إلى غرفة ابني، عندما مررت بالرواق وسمعتُ أحدهم يتحدث بصوت خافت عبر الهاتف. وبرغم أن الصوت كان ضعيفاً، إلا أنني سمعتُ مقتطفات من المكالمة. كان المتحدث، امرأة تقول إن عليها هي والشخص الذي كانت تحدثه في الهاتف، أن ينهيا مهمة ما... وكانا قد حددا القيام بهذه المهمة الغريبة في الدقائق الفاصلة بين فصلي المسرحية.

ـ هذا مثير... هل حاولت معرفة من كان يتحدث؟

ـ لا، لأنه في تلك اللحظة... نادتني ليلى من الطابق الأرضي، وأخبرتني أن العجوز ياسمين تريديني.

ـ وهل خطر في بالك بسرعة أن يكون قد قصد نسرين (مريم غزلان)؟

ـ ليس تماماً... لكن ما حدث في طاولة الإفطار، جعلني أفكر في نسرين.

ـ كم كانت الساعة عندما دخلت الرواق المؤدي إلى غرف الكواليس؟

ـ بمجرد أن انتهى الفصل الأول، رأيتُ سمير يهرول إلى تلك الغرفة، فلاحقته. كان قد اختفى عندما دخل، بسبب الظلام. ذهبت إلى الحمام، وتناولت دوائي، ثم ذهبت إلى غرفة نسرين، لأنتظرها وأحذرها، لكني خشيت أن تجد هذا التصرف غير لائق مني، إن وجدتني في غرفتها، فقررت أن أضع تلك الورقة في جيب معطفها الذي أتت به من المنزل.

عندما خرج مروان، بقيتْ نظراتها تتبعه حتى غادر، ثم كتبت في دفترها: عندما يكون المرء تحت تأثير دواء يؤدي

به إلى تخيل أشياء لم يسمعها ولم يرها، فأغلب الأحيان، عندما يدرك أنه ربما كان يتخيل، فإنه يقول ربما تخيلت ذلك، مع بقاء شعور داخلي، بعدم القدرة على التأكد إن كان حقيقة سمع أو رأى ذلك، أم هو مجرد خيال. لكن، يبدو أن حالة مروان شاذة. الإصرار... هل يريد به إنكار أقواله الأولى. لكن لماذا يريد أن ينفي أقواله الأولى؟ وهل حقاً سمع محادثة غريبة؟ ومن يكون المتحدِّث والمتحدَّث إليه؟

حملت ليندة حقيبتها، في صباح اليوم التالي، وصففت شعرها أمام المرآة، الموجودة بالقرب من الباب الخارجي، ومشطته، ورفعته بماسك للشعر.

بعد أن أتمت تصفيف شعرها، لبست حذاءها ذا الكعب العالي، فبدت طويلة نوعاً ما، ووضعت بعض الأحمر على خديها، ثم ألقت نظرة أخيرة على مظهرها، ارتخت بعدها شفتاها عن ابتسامة رضا، فشكلها لقي استحساناً منها.

خرجت من المنزل، وقطعت الشارع الرئيسي، وذهبت إلى هاتف عمومي إلى الجانب الآخر من الطريق، واتصلت بسيارة أجرة.

وما هي إلا بضع دقائق، حتى توقفت سيارة بيضاء تختلط مع طلائها الإعلانات.

استقلتها ليندة، وأشارت إلى السائق أن ينطلق بعدما حددت له وجهتها.

لم يمر نصف ساعة حتى توقفت السيارة. وعندما نزلت وتأملت لوهلة المبنى الزجاجي، سرت رجفة خفيفة بين ضلوعها، لكنها أسرعت وارتقت السلم الرخامي.

أصبحت أخيراً في الداخل. سألت عن ليلية إسعد، فطلبوا منها أن تنتظر قليلاً في قاعة الانتظار حتى يستأذنوها.

جلست ليندة على الكرسي، وأمسكت حقيبتها بكلتا يديها. أبصرت من خلال انعكاس صورتها على أحد الأبواب الزجاجية، سترتها التي كانت ملطخة بالدهان. تذكرت أن السائق أوصلها في الشارع الآخر، واضطرت إلى أن تمشي مسافة سبعة أمتار حتى تصل إلى هنا. وها هي من شدة سخطها من خدمات سيارات الأجرة، لم تنتبه إلى أعمال الطلي التي كانت تجرى على أحد الأبنية التي مرت بها.

شحب وجهها، ولم تجد شيئاً تفعله. همت بالذهاب

إلى الحمام كي تصلح ما تستطيع من هندامها، لكن شاباً طويلاً، تقدم منها، وطلب منها أن ترافقه إلى مكتب ليلية إسعد.

نظرت إليه بعينين مذهولتين، وبائستين. فبعد كل الاعتناء الذي أولت به مظهرها، تجد نفسها قبل ثوانٍ من الدخول إلى مكتبها، مُلطخة السترة.

استسلمت للأمر الواقع، ومشت وراءه، وهي تحاول جاهدة تقبل نفسها حتى لا ترتبك عندما تتحدث معها. قالت في سرها، وهي تنعطف إلى الرواق الطويل: يا له من حظ سيىء. لو كانت فقط اللطخة خضراء اللون بدلاً من هذا اللون الأبيض البغيض، لناسبت سترتي الخضراء... المشكل أنني سأذهب إلى قاضية التحقيق. قضاة التحقيق هم الوحيدون الذين يدققون في صغائر الأمور، فهذا عملهم. لو كنت ذاهبة إلى طبيب الأسنان لاختلف الأمر.

انقطع حبل تفكيرها، عندما فتح ذلك الشاب باب المكتب، وطلب منها الدخول. ترددت ثم دخلت، فرأت ليلية وراء مكتبها بكامل أناقتها تنهض وتمشي نحوها لتستقبلها. شعرت بالحرج، وبدأت تردد في رأسها بهستيريا: سترى اللطخة، ستراها..

طلبتْ منها أن تجلس، ثم أمرت لها بقهوة ثقيلة. كان ذلك طلبها هي، فمزاجها كان أسود وثقيلاً. وقبل أن تجلس في كرسيها، قالت لها:

ـ حتى أنت تلطخ ثوبك بطلاء تلك البناية اللعينة.

جمدت في مكانها، فهي لم تتوقع أن تحدثها مباشرة عن هذه اللطخة، واحمرت وجنتاها، فتابعتْ ليلية تقول:

ـ حتى أنا، فإن حقيبة العمل تلطختْ. لقد كلفتني ثروة لأشتريها. إن عمال الطلاء، لا يُحسنون تنفيذ عملهم بدون وجود «ضحايا».

كانت تلك الكلمة هي التي تناسب ليندة. فهي تهتم كثيراً بهندامها، وأي شيء يصيب مظهرها فإن الأمر يصبح كالكارثة... حوّلت نظرها إلى الحقيبة، ورأت مقدار الضرر، لم يكن كبيراً، لكنه مس المنطقة المرئية أكثر من لطختها التي اقتصرت على الجانب الأيمن لسترتها.

قطعت ليلية الحديث عن اللطخة، وقالت بصوت عملي:

ـ حسناً، أخبروني أنك أردت مقابلتي، هل الأمر يتعلق بالجريمة؟

أومأت برأسها، وتريثت قليلاً كي تسترد قوتها، واندفعت تقول:

ـ لا أريد أن أكون ثرثارة، لكن المرء يجب أن يقول كل ما يعرفه، خاصة إن كان الأمر يتعلق بجريمة نكراء... لقد سمعت أن الشرطة تعتقد أن قاتل مريم ونسرين هو شخص واحد... وتظن أيضاً أن مريم غزلان (نسرين الحقيقية) لم تُقتل من طرف جماعة إرهابية... فلهذا دعيني أخبرك بما حدث.. ويمكنكِ أن تتأكدي من كلامي من سجلات المحاسبة.

ـ يبدو أن ما تقولينه خطير جداً.

ابتسمت ليندة كأنها تلقت مديحاً.

ـ ربما ستصرفين لي مكافأة، لأن ما لدي معلومات خطير.

ـ أَسمعينا ما عندك؟

ـ قبل أسبوع من مقتل مريم (نسرين الحقيقية)، أتذكر أن مريم، وأقصد هنا مريم الحقيقية، نزلت إلى القبو لتطهيره من الجرذان بمادة الثاليوم. وبعد أن أنهت عملها، بحثت عن سمير وحصل جدال قوي بينهما. كانا يتحدثان

بمنتهى السرية، لكن سمعت بعض الجمل التي جعلتني أفهم مفتاح الجدال... كان سمير يقوم بسرقة أموال العجوز ياسمين، واكتشفت مريم ذلك بعد خمسة شهور من قدومها من تلمسان... وهددته بأنها ستخبر خالته.

ـ هل أنت متأكدة ؟

ـ أجل، مثلما أراك الآن أمامي... ثم ثمة وسيلة للتأكد مما قلته: تعيين خبير محاسبات، وإرساله إلى الشركة.

ـ لكن، إذا كان سمير مختلساً كما تزعمين، فسيكون قد خطط مسبقاً لتغطية الأموال المسروقة، فهو محاسب الشركة، فستكون المراجعة بدون فائدة.

ـ لا أفهم في هذه الأمور... لكن، إن كان الأمر كذلك، فكيف اكتشفت مريم الحقيقية نهبه؟

بقيت ليلية للحظة شاردة، ثم قالت:

ـ هل كان سمير يميز بينهما؟ أقصد بين الأختين التوأمين؟

ـ لا أستطيع الجزم، الحقيقة أن لا أحد كان يميز بينهما.

ـ حسناً، منذ متى وأنت تعملين عند العجوز ياسمين؟

ـ منذ العام ١٩٩٤، عندما أصيبت بنزف دماغي تسبب في شللها، وجعلها مشلولة، وعندما قرر سمير الزواج بليلى، فهي لم تكن تريد له أن يتزوج بها. كانت تخطط لتزويجه بفتاة من اختيارها هي.

ـ وكيف تقبلتها بعد ذلك؟

ـ ليس تقبلاً بمعنى الكلمة، لكن عدم القدرة على فعل شيء. فسمير يسيّر لها شركتها منذ فترة طويلة. صحيح أن الشركة مرت في أزمة مالية ١٩٩٤، لكنها عادت ليزدهر عملها، وإنتاجها. لا أدري كيف أشرح لك، لكن سمير شخص يعوَّل عليه في جميع الأمور، والعجوز ياسمين تحتاج إليه كثيراً.

ـ وماذا عن مريم الحقيقية، هل كانت تعرف شخصاً قبل زواجها بعدلان مصباحي؟

ـ لا أدري. أعتقد أنه في بادئ الأوقات عندما قدمتْ، كانت تميل إلى سمير أو هكذا بدا الأمر. كانا يتراسلان بالحبر السري، أو بشيء من هذا، لأن سمير كان آنذاك متزوجاً... لكن بعد تلك المشاجرات، لم يعد ثمة شك في أنهما لا يحتملان بعضهما البعض.

خرجت ليندة وقد خف تأثير الحماسة الذي دخلت به إلى القاضية.

استرخت ليلية على مسند كرسيها، بعد أن غادرت ليندة مكتبها، وشرعت تفكر في ما قالته لها ليندة للتو. لم تخرج من متاهات أفكارها، إلا عندما دخلتْ كاتبتها، ووضعت ورقة على الطاولة أمامها، وكان مكتوباً عليها: السيد عادل، ميلاد يريد رؤيتكم بشأن قضية نسرين غزلان.

استقامت في جلستها، وقالت: أحضريه إليّ.

وبينما كانت تنتظر وصوله، فركت ذقنها. إذاً، فعامل النظافة لم يخطىء. لقد كان عادل ميلاد يعرف شيئاً... ربما ليس بالشيء الكثير، لكنه شيء ما، وها هو يقرر إبلاغها به.

وقفت لتحيته عندما دخل، وأجلسته على الكرسي، وعرضت عليه قهوة رفضها، ثم سكت الاثنان لحظة. رأت أنه كان يحاول البحث عن الكلمات التي يريد قولها. مالت إلى الأمام وقالت: لقد جئت لتخبرني شيئاً يا سيد ميلاد. هل تمكنني مساعدتك؟ لقد كنتَ قلقاً من شيء ما؟ شيء صغير ربما ظننتَ أنه لا صلة له بالقضية، لكنه قد يكون متصلاً بها من ناحية أخرى. لقد جئتَ إلى هنا لتخبرني عنه، أليس كذلك؟ ربما كان له علاقة بندى عبد السلام.

ـ لا... ليس كذلك... أقصد أن الأمر ليس تماماً ما قلته... أنا متوتر كثيراً... أعتقد أن ما سأقوله لا يخدم شيئاً، لكن...

ـ لكن تشعر بأن ثمة احتمالاً بأنه يرتبط بالجريمة.

سكت عادل لحظات قليلة قبل أن يتكلم، ثم قال: سأقول لك كل ما حدث، وسأترك لك مهمة تقدير الأمر.

وروى لها في بضع كلمات الحديث الذي دار بينه وبين ندى عبد السلام، وفي خاتمة كلامه قال:

ـ لكن أقسم إنها فتاة ساذجة، ولا تجرؤ على إيذاء ذبابة صغيرة.

أنصتت ليلية بحرص شديد، ثم قالت بهدوء:

ـ لماذا رأيت الآن أن الوقت مناسب لإخباري بهذه المعلومة؟

ـ لم أعتقد أن التحقيق سيصل إلى صغائر الأمور، ودقائق الأحداث...

تلاشى صوته، فسارعت ليلية لتهدئته: لقد فعلتَ الصواب، بغض النظر إن كان الوقت مناسباً أم لا... لكن

الذي تجهله أننا عثرنا على طلاء أظافرها فوق سلك الكهرباء الذي مزق كي تنقطع الإضاءة عن الرواق وغرف الكواليس.

تلبد وجهه، وسارع يقول:

ـ إنها ألاعيبها، فهي تعلم بأن نسرين ستذهب لإصلاح زينتها. وبدون كهرباء فلن تتمكن من رؤية نفسها في المرآة، وإصلاح ما أفسده العَرَق، لكن لا يصل الأمر إلى مرحلة القتل، أستطيع أن أؤكد لكم هذا...

ـ هذا يبقى مهمتنا لإثبات العكس أو الصحيح... أريد أن أعرف شيئاً في خصوص ندى، هل لديها خبرة في أنواع الفطر السام؟

تردد عادل، وأجاب بعد أن ابتلع ريقه بصعوبة: ندى لم تكمل دراستها... إني متأكد من هذا. ثم إن كنتِ تقصدين الناحية الثقافية، فلن تجدي إجابة تختلف عما سأقوله لك: إن رأسها ليس أكبر من حبة حمص. ما يهمها هو فقط الزينة، ووضع المكياج والمساحيق على وجهها، وكيف تظهر جذابة فوق خشبة المسرح.

ـ أشكرك على قدومك... لقد فعلتَ الصواب، سأفعل كل التحريات للتأكد من الأمر.

نهض عادل وهو يتنهد بارتياح، وقال: أنا سعيد جداً لإبلاغك بما كان يقلق راحتي. لقد كنتِ لطيفة معي.

رافقته ليلية حتى الباب، وقالت له: أرجو أن يكون هذا الأمر الوحيد الذي تخفيه عني.

جاء رياض صباح اليوم التالي، لرؤية ليلية. لاحظت أنه هذه المرة كان متشوقاً إلى معرفة ما استجد في التحقيق. قال والبسمة تنفخ أوداجه: مرحباً، هل لديك شيء جديد... كان يتكلم وهو يدنو من المكتب، ويرمي بثقله على الكرسي: إن أفضل شيء يفعله المرء في هذا الصيف، أن يمدد ساقيه في الرمال الذهبية لشواطئ جيجل. إن هذه الجريمة أخذت أكثر من وقتها.

قالت له ليلية قبل أن يكمل كلامه: هل تريد أن تسمع إلى أين وصلت القضية؟

أومأ رياض برأسه في إشارة إلى أنه أتى لهذا الغرض:

ـ إذا كنتَ حقاً تريد سماع رأيي، فإني أشك في سمير. لمرات عدة يُذكر اسمه عندما يتعلق الأمر بمريم غزلان، وأقصد مريم غزلان الحقيقية. ممرضة العجوز ياسمين ليندة، أخبرتني أنه عند قدوم سمير، تطورت علاقة بينه وبين مريم

غزلان، لكن بما أن سمير كان متزوجاً آنذاك، فإن علاقتهما اقتصرت على إرسال رسائل سرية بينهما... والغريب في الأمر، أن عدلان مصباحي زوجها قال عند استجوابه، إن شخصاً ما يراسل زوجته بطريقة سرية، بأوراق بيضاء يُكتب فوقها بحبر سري. وقال أيضا إنه رأى ذات يوم نسرين تقرب ورقة بيضاء من شمعة.

سكتتْ سكتة ذات مغزى، تاركة رياض يستخلص لب ما قالته وحده. لكنه عكس ما توقعت، رفع حاجبه الأيمن، وهو ينظر إليها. لكن ليلية لم تكن مستعدة لأن تستمع إلى كلامه المشكك في كل شيء، واندفعت تقول: لا يمكن أن يكون الشخص الذي كان يراسل زوجة عدلان مصباحي إلا... سمير. وهذا يعني أنه كان يعرف أن التي ماتت كانت نسرين، وليست مريم.

لم يبدُ أنه تأثر لسماع هذه المعلومة الجديدة، واكتفى بأن تمدد في جلسته، وقال بدون اهتمام: وإلى ماذا يقودنا هذا؟

تأملته ليلية بقليل من التعجب: لا تقل لي أيها الوكيل إنك لا ترى أي غموض في هذه الطريقة لإرسال الرسائل؟

رفع رياض إبهامه، وفرك المنطقة التي توجد تحت أذنه،

وقال: ماذا سيتغير إن عرفنا أن سمير كان يعرف أن التي ماتت في ١٩٩٥، كانت نسرين وليست مريم؟

توقفت ليلية، وقد صُدمت عندما رأت رياض يتعامل مع معلومة بهذه القيمة بعدم الاكتراث هذا، فحاولت لمرة أخيرة أن تُشعره بأن هذا الخبر له دلالة قوية.

ـ ربما كان الأمر بدون معنى. لكن قبل أسبوع من حدوث اختطاف مريم غزلان (نسرين الحقيقية)، ومقتلها في الجبل، حدثت مشاجرة بينها وبين سمير، بسبب شكها في أنه يختلس أموال جدتها.

التمعت عينا رياض، وظهر أن ما تفوهت به ليلية للتو، مس وتر الانتباه عنده، فاعتدل في جلسته، وقال: من أخبرك بهذا؟

ـ ممرضة العجوز ياسمين، ليندة.

سكت عابساً، كمن يختلي بنفسه، ثم نهض من مكانه، ووضع يديه على المكتب، ومال نحو ليلية، وقال لها: أتدرين ما أهمية هذا؟ إذا كان حقاً سمير يختلس أموال العجوز ياسمين، وإذا كانت مريم اكتشفت عملية السرقة، فهذا يقودنا إلى أن سمير كان يملك دافعاً إلى قتل مريم قبل

عشر سنوات من الآن. وإن كان سمير استطاع أن يميز أن الشخص الذي كان يعيش معهم هو مريم وليس نسرين، فليس مستبعداً أن يكون قد حاول أن يتخلص من مريم من جديد.

ـ في هذه الحالة، كيف تفسر إصابته بانهيار عصبي عندما تلقى خبر وفاة نسرين غزلان (مريم الحقيقية)؟

شعر رياض عند هذه النقطة بأن أمامه جداراً يعيقه. طأطأ رأسه ثم رفعه، وقال: ليس من السهل معرفة لماذا أصيب سمير بالانهيار، ولماذا أخطأ في هدفه في المرة الأولى إن كان قادراً على التمييز بين الأختين؟ نحن لا نعرف كيف اكتشفت مريم الحقيقية أنه كان يختلس، ونجهل أيضاً لماذا عاد سمير من جديد إلى مراسلته السرية، وماذا يوجد هذه المرة في الرسائل؟ إذا كانت الرسائل الأولى غرامية، فماذا تحتوي الرسائل الثانية؟

أصغت ليلية إليه، وعندما انتهى، قالت وهي تتنهد: لا يمكننا سحب شيء من فمه... إنه يعاني انهياراً عصبياً حاداً، والطبيب مانع عنه جميع أنواع الزيارات.

نهضتْ من مكتبها فجأة، وقالت بسرعة وهي تتجه نحو حامل المعاطف: سأذهب وأرى ما سيقوله طبيبه عن سبب

حالة انهياره، وفي الوقت ذاته سأبحث عن الطبيب الذي عالج نسرين غزلان (مريم الحقيقية) ما بين ١٩٩٥ و١٩٩٧ من الإدمان..

كان رياض قد نهض من كرسيه، وقال لها: هل ثمة شيء حدث بين ١٩٩٥ و١٩٩٧، وكان ذا مؤشر؟

كانت ليلية تلبس معطفها، وقالت وهي تمرر ذراعها فيه: لستُ واثقة من نوع المخدر الذي كانت تتعاطاه نسرين أثناء تداويها من الإدمان، لكنها أخبرتني أنه بعد وفاة شقيقتها، أصبحتْ تتناول بشراهة القهوة، ولا أظن أن القهوة توصل المرء إلى دخول مصح عقلي.

ـ إلا في حالة إذا كان شخص ما يضع لها شيئاً في القهوة...

ـ هذا ما فكرتُ فيه، لكن لا أرى لماذا، ومن يكون هذا الشخص (كانت في تلك الأثناء، تمشي نحو الباب، ووراءها رياض) عليّ أن أعرف الكثير حتى أزيح بعض النقاط التي بدون معنى من طريقي.

ثم وقفت أمام عتبة المكتب، فجأة، واستدارت قليلاً نحو رياض: أعتقد أن الضباب بدأ ينجلي... ثمة شخص

أراد قتل مريم غزلان الحقيقية، وقد كانت الهدف منذ أول لحظة. وسمير أكثر المرشحين.

الأمطار تنهمر بغزارة، مُغرقة المدينة في مياه طوفانية، وكان من المعتاد أن تسبب غزارة تساقطها في الازدحام في الطرقات. كانت ليلية تستغل اللحظات التي تتوقف السيارات فيها عن التقدم بالبحث عن عنوان الطبيب الذي عالج نسرين غزلان من حالة الإدمان. سمعت أنه تخلى عن عمله في ذلك المصح، واستقل في عيادة خاصة به. وبينما هي تقلب أوراق كتاب كبير، دُونت فيه عناوين وأرقام هواتف الأطباء، سمعت من ورائها صوتاً قوياً لبوق سيارة. رفعت عينيها ونظرت إلى المرآة الداخلية للسيارة، فرأت تعابير الغضب على سائق السيارة خلفها. رمت الكتاب على الكرسي إلى جانبها، وانطلقت تسير في الطريق. ومن حسن حظها أن الطريق المؤدي إلى مستشفى الأمراض العصبية يظهر بمجرد الالتفات إلى اليمين.

ركنتْ ليلية سيارتها، في مرأب المستشفى، ثم اتصلت بالطبيب نعيم واهبي بعد أن عثرت على رقمه، وأخذت منه موعداً، نزلت من سيارتها بعد شيء من التردد فالأمطار كانت قوية جداً، وباب المستشفى يبعد أمتاراً عدة عن مكان توقف سيارتها، ولم تكن مطريتها قوية بما يكفي لتحمل قوة

المياه المتهاطلة من السماء، لكن لم يكن ثمة حل آخر، إلا النزول والاستحمام تحت هذه الأمطار. ما إن فتحت باب سيارتها، حتى سارع المطر بالتسلل إلى داخل السيارة، فأسرعت، بالنزول مسرعة، وفتحت مطريتها، التي بدت كأنها لعبة في مواجهة الأمطار العاتية. وقبل أن تصل إلى باب المستشفى الذي بدا أن كل عراقيل هذه الحياة تفصلها عنه، كانت مطريتها قد تكسرت، وشعرها خربته المياه، وطقمها كان مبتلاً من كل جهة. عندما دخلتْ ليلية بهو المستشفى، كان أناس كثيرون جالسين في قاعات الانتظار المكتظة. انتظرت قرابة نصف ساعة حتى جف تقريباً ثوبها، ثم أسرعت إلى الحمّام وعدلت زينتها وشعرها. وقبل أن تخرج من هناك، أطلقت نظرة أخيرة على شكلها، فارتسمت ابتسامة رضا على وجهها. اتجهت نحو مكتب الاستقبال، وسألت عن الحجرة التي يوجد فيها المريض سمير فارس. أرسلوها إلى قسم في الطابق الثاني، وهناك سألت عن الطبيب المتكفل بعلاجه، فتقدم منها رجل ضخم الجثة، بدين، أقرب إلى سن الأربعين منه إلى الثلاثين، ذو شعر أسود خط الشيب طريقاً في جوانب الصدغين. كانت ملامحه تدل على العدائية، والنفور، يرتدي مئزراً أبيض طويلاً حتى ركبتيه. وعندما تقدم من ليلية كان يضع يديه في جيبي المئزر.

ـ أقدم نفسي: ليلية إسعد، قاضية التحقيق.

كان الأمر بالنسبة إلى ذلك الطبيب، سيان عنده إن تحدث إلى قاضية التحقيق أم إلى أسمى الناس في العالم، بقي في مكانه جامداً بدون أن ينبس بكلمة، فتابعت ليلية كلامها: لقد جئت كي أستعلم عن حالة سمير... لقد ظهرت في التحقيق أشياء كثيرة، ومن الضروري أن أتحدث معه...

تحرك الطبيب قليلاً لسماع كلمة «التحقيق»، وقال بصوت رقيق لا يمت إلى ذلك الجسد الضخم بأي صلة: هل يمكن أن نتحدث في مكتبي يا آنسة؟

كان يبدو أنه لم يسمعها عندما قدمت نفسها في البداية: ليلية إسعد.

أحست ليلية غريزياً وهي تتبع ذلك الرجل إلى مكتبه، بأنه رغم صوته الرقيق، سيسيطر على المحادثة. وكانت تقول في سرها: لم آتِ لسماع تفاصيل مملة عن حالة سمير. سأفعل المستحيل لأحصل حتى على خمس دقائق معه. . .

أغلق الطبيب باب مكتبه، عندما دخلت ليلية، واتجه نحو كرسيه، وقال بصوته المضحك: أرجوكِ، اجلسي من فضلك...

جلست ليلية وهي ترسل ابتسامة هادئة، وقالت: شكراً.

لكنه لم يكن مستعداً للدخول في مجاملات أكثر من دعوتها إلى الجلوس، وقال بمجرد أن اعتدل في كرسيه:

ـ أرجو يا آنستي ألا تصري على مقابلة سمير فارس، لأن مريضي في حالة سيئة... بل أسوأ مما يتوقعه الجميع. إنه لا يتسجيب للعلاج. مكتبة

ثم تنهد قبل أن يتابع: إن الجميع يعتقد أن الانهيار العصبي يصيب الإنسان، في لحظة تلقيه حزناً كبيراً، لكن هذا خاطئ. إنه ينتابنا عندما تزداد الضغوطات النفسية علينا من حولنا، سواء أكان من داخل الأسرة أم في مكان العمل. الحقيقة أن الانهيار العصبي ليس مرضاً نفسياً أو عقلياً، بل حالة هستيرية تنتاب الشخص عندما يتعرض لضغوط اجتماعية أو عائلية أو ذاتية، تؤدي إلى فقدان التوازن مع النفس، حتى يصبح العامل الضاغط كالقشة التي تقصم ظهر البعير.

ـ هل تعني أنه لا يمكن أن يصاب الشخص بالانهيار العصبي إلا عندما تصبح الضغوط، أيا يكن نوعها، غير محتملة؟

ـ أجل، ثمة أعراض الانهيار الأولى، التي نادراً ما تكون ملاحظة من الأشخاص أنفسهم على حد سواء. وثمة ثلاث حالات يمكن اعتبارها جزءاً من الأعراض الرئيسية للانهيار: الاكتئاب، القلق، التغيير المفاجئ في الحياة الاجتماعية، وفكرياً، وما يترتب عن ذلك من متغيرات تطرأ على الجسم ذاته. فالشخص المكتئب لا يمكنه الشعور بالسعادة ولو موقتاً، بحيث يكون في حالة من التشاؤم المطلق، تراوده أفكار عن الموت، بما في ذلك فكرة الانتحار، ويمشي ببطء دائماً. يتكلم رويداً، ويسهو، بينما ذاكرته تبدو في حالة شلل شبه تام، حتى أنك تعتقدين للوهلة الأولى أنه فاقد الذاكرة.

ـ هل تعني أن سمير كان يعاني بداية انهيار عصبي قبل أن ينهار في المستشفى؟

ـ بالطبع.

التمع في عينيها وميض غريب، وراحت تُمطره بالأسئلة:

ـ لكن لا أفهم، ما هو، بحسب رأيك، الشيء الذي سبب له هذا الانهيار؟

ـ تبين عند حديثي مع عائلته مؤخراً، أن أحداً لم يلحظ

الأعراض الأولية لبداية الانهيار. هذا يدل على أنه حاول إخفاء قلقه عن العائلة، إما لأنه لا يثق بأحدهم، وإما لأن مصدر قلقه يوجد في العائلة. وعدم قدرته على مواجهة مصدر قلقه، جعله يخفي ما كان يشعر به... الحقيقة أن حالته لا تتقدم، فسمير يرفض التحدث، وهذا ما يصعب علينا التقدم في العلاج النفسي. أما العلاج بالأدوية، فيجب القول إن الأدوية المضادة للانهيار يتم تناولها بحذر، وبجرعات خفيفة في البداية، ليتعود الجسم عليها في ما بعد، وفق ما ينصح به الطبيب. ويجب التعامل مع تلك الأدوية بصبر، لأن نتيجتها ليست سريعة، لكنها فعالة، حيث إن استمراريتها تدوم بين ثلاثة أسابيع إلى شهر، وأحياناً أكثر من ذلك. والوقت الذي يجزم الأطباء بأنه يوازي استيعاب الجسم وتفاعله مع الأدوية المضادة للانهيار العصبي، هو ستة شهور.

لم تر ليلية أهمية لما يمكن سماعه أكثر من هذا، فشكرت الطبيب، وحملت حقيبتها، وخرجت من مكتبه. وعندما دخلت في المصعد الكهربائي، كانت تعيد النظر في كل ما قاله لها طبيب سمير فارس. وما حدث لنسرين غزلان (مريم الحقيقية) هو الذي صب الزيت على النار، وجعله يدخل في حالة انهيار عصبي حاد. لكن بحسب ما

قاله الطبيب، فإن بداية هذا الانهيار كانت قبل ذلك بكثير: ما الذي جعل سمير حزيناً وكئيباً، ألم يكن بالأحرى يسعده أن تموت مريم الحقيقية، فهذا سيبعد عنه شخصاً مملاً وحشرياً!!!

كان المصعد يقترب من الطابق الأرضي، عندما قالت ليلية في نفسها: لكن ثمة شيئاً مثيراً أن أحداً لم يلحظ بداية قلقه وحزنه. هل لعائلته دخل في إصابته بانهيار عصبي؟ إذا كان الأمر كذلك، فما هو هذا الضاغط الذي جعله يدخل في حالة انهيار لا مخرج منها؟!

انتهت من طرح تساؤلاتها، في الوقت الذي كان فيه المصعد قد توقف، وانزاح الباب الحديدي ببطء. مشت ليلية في البهو في اتجاه الباب الخارجي، عندما أوقفتها سيدة وهي تصيح باسمها. وما إن استدارت حتى رأت ليلى تركض نحوها، وقالت عندما أصبحت قريبة منها: كيف حالك آنستي؟ لقد كنتُ سأمر بك عندما أنتهي من زيارة زوجي، لكن الصدفة وحدها جعلتني ألتقي بك.

قالت لها ليلية بصوت بطيء كئيب:

ـ أوه! أنا آسفة لما حصل لزوجك، وأتمنى له الشفاء العاجل.

قالت ليلى متظاهرة برباطة جأش: لا شفاء له، أعلم بأن حالته لا تتقدم، بل في كل مرة لا أسمع كلاماً مشجعاً عن حالته...

ـ ألم تلاحظي سيدتي، قبل تعرض زوجك لهذه النوبة الحادة، أعراض القلق أو بداية اكتئاب لديه... التشاؤم المستمر القريب من اليأس الكامل، أو مثلاً فقدان القدرة على النوم، والاستيقاظ في منتصف الليل بدون رغبة في النوم ثانية؟

طأطأت ليلى رأسها، وخنقت العبرات الكلمات في حنجرتها، وقالت كمن أضاع كل بصيص أمل:

ـ لا... لا أدري حتى ما الذي سبب له هذه الحالة النفسية المزرية ؟! إني أشعر بعدم قدرتي على مد يد المساعدة إليه. لقد أخبرني الطبيب أنه سيشدد الرقابة عليه، لأن مثل هذه الحالات، غالباً ما يلجأ المصابون بها إلى الانتحار.

شعرت ليلية بالأسف، ورأت أنه من غير الضروري أن تواصل الحديث معها في هذا الأمر، وقالت مغيرة الموضوع: لقد قلتِ لي قبل قليل إنك كنتِ ستذهبين لرؤيتي بعد أن تزوري زوجك. **t.me/ktabpdf**

أومأت ليلى برأسها، وقالت: أجل... ثم أخرجت مغلفاً، وأعطته إياها:

ـ ما هذا؟

ـ إنها الصور التي التقطتها في المسرح الوطني، في مسرحية «نسرين ستموت الليلة». لا أدري بماذا ستفيدك، لكني رأيتُ أن أحضرها لك لعلها تبين لك شيئاً... ثم إنها لا تذكرني إلا بتلك الذكرى اللعينة.

شكرت ليلية ليلى على اهتمامها البالغ بسير القضية، ومساعدتها على حل الألغاز التي تكتنف هذا اللغز، ثم قبل أن تنصرف ليلى،أوقفتها ليلية قائلة بحيرة:

ـ لديّ سؤال أرجو ألا تعتبريه وقاحة مني... أريد أن أعرف هل كنتِ تعرفين أن مريم غزلان وزوجك كانا متحابين، وأنهما كانا يتراسلان بطريقة سرية جداً؟

تراجعت ليلى خطوتين إلى الوراء، واصفرّ وجهها، وقالت كأنها رأت ملك الموت: هذا مستحيل!

وقبل أن تستطيع أن تضيف كلمة، أسرعت إلى المصعد، وبقيت تنتظره بدون أن تنظر خلفها إلى ليلية، التي

كانت واقفة في المكان الذي تركتها فيه ليلى، وقالت في سرها: لا يمكنكِ أن تخدعيني... لقد كنتِ تعلمين!

خرجت ليلية من المستشفى. كان البرد شديداً في الخارج. الأمطار توقفتْ قبل قليل وبقيت الأرضية مبتلة... مشت مسرعة فوق طريق حديث الرصف إلى غاية سيارتها، تنهدت مترددة ثم نظرت إلى ساعتها، كانت تقارب الثالثة بعد الظهر. هل ما زال الدكتور بن واهبي في عيادته ينتظرها؟ أرجو ألا يكون قد خرج وظنها لن تأتي.

دست يدها في جيبها تبحث عن مفتاح السيارة، ثم ركبت وسوت بيدها شعرها. انتابها شعور بالحزن من أجل سمير.

ما الذي حدث معه حتى يصاب بانهيار عصبي؟ وهل لما حدث علاقة بجريمة القتل؟

أدارت مفتاح المحرك وانطلقت مسرعة. ثمة شيء مهم، يجب أن تحل لغزه: نسرين أخبرتها قبل المأساة التي تعرضت لها، أنها كانت تكثر من شرب القهوة، وهذا وحده يكفي لإثارة الريبة والشك. فماذا يوجد في هذه القهوة اللعينة؟ التي دفعت بنسرين غزلان (مريم الحقيقية) إلى دخول مركز للمعالجة من الإدمان... وإذا كان يوجد فيها

مخدر، فهل كانت تُدمن على المخدرات، أم أن أحدهم كان يدس لها شيئاً منه في قهوتها؟ وفي حالة إذا كان يوجد شخص يدس لها المخدرات في القهوة، فهل هذا الحادث له علاقة بمقتلها وبمقتل شقيقتها؟

كانت عيادة الطبيب نعيم بن واهبي الموجودة في شارع كريم بلقاسم، في إحدى العمارات الفاخرة هناك، في شقة منشرحة وواسعة، جدرانها مغطاة باللون الأبيض الذي يدل على الصفاء. كان الدكتور بن واهبي يقرأ عناوين الصحف اليومية. فلقد انتهى من مريضه الأخير قبل قليل. كان شخصاً يعاني هوس تنظيف يديه باستمرار، حتى أنه أصيب بجفاف ومرض جلدي بسبب الغسل المستمر لليدين. لم يكن مريضه الأخير متعباً، كالمريضة التي قابلها قبله. كانت سيدة تعاني رهاباً من رؤية الحشرات الزاحفة. كانت فوبيا مخيفة لها: حتى لو رأت حشرة زاحفة في الصور، لمزقت الصورة بأسرع ما يمكن. وبينما هو كذلك، رن جرس خفيف، رفع بن واهبي جهاز الاتصال الداخلي، وأصغى بعض الوقت، ثم ضغط الزر ليفتح الباب الخارجي، ويسمح لليلية بالدخول. برغم أنها تأخرت عشرين دقيقة عن موعدهما، إلا أن بن واهبي كان يتمتع بمزاج هادئ. نهض من مكانه في اللحظات التي كانت ليلية ترتقي فيها السلالم

المؤدية إلى عيادته، وقام بتسخين الشاي، وصبه في فنجانين كانا موجودين على طاولة زجاجية قصيرة ذات أرجل من الرخام، وحولها مجموعة من الكراسي من الخشب البني اللامع.

اقتحمت ليلية عليه خلوته بعد دقيقة. كانت محمرة الوجه نتيجة صعودها السريع الدرج.

مدت يدها لمصافحة الطبيب، وجلستْ على الكرسي الذي دلها إليه، وقالت وهي تحاول استرجاع أنفاسها بسرعة: أرجو أن تعذر تأخري. لم يكن مقصوداً.

ابتسم نعيم، وظهرت خلف ابتسامته الهادئة أسنان ناصعة البياض، وقال وهو يقرب فنجان الشاي نحوها: لا عليك، إن الأمطار دائماً تسبب ازدحاماً في السير غير عادي.

قال هذه الملاحظة بهدوء، لكنه سرعان ما فتح الموضوع الذي أتت من أجله ليلية: إن كنتُ فهمت جيداً ما حدث، فإن نسرين غزلان قُتلتْ، وأنتِ تشكين في أن دخول نسرين للمعالجة من آثار الإدمان، كان بسبب أن شخصاً ما كان يدس مهدئات لها في طعامها.

أومأت ليلية برأسها. شعر بالارتياح وهي ترشف فنجان

الشاي الجيد، لأن الطبيب وفر عليها مهمة شرح المسألة له مجدداً.

عندها، قال الطبيب بعدما تنهد بعمق ورشف رشفة من فنجانه:

ـ لا أدري إن كنتُ حقاً أستطيع أن أفيدك في هذه النقطة، فنسرين كانت تعاني صدمة رهيبة جراء فقدانها شقيقتها التي كانت إحدى ضحايا الإرهابيين.

ثم تريث قليلاً، ليرشف المزيد من فنجانه، وتابع بنبرة كئيبة: الحقيقة أن نسرين كانت تجهل نوع المادة المخدرة التي تتناولها، وكانت تكرر أنها تتناول القهوة باستمرار. ومن حسن الحظ، تحصلتُ على فنجان القهوة الذي تناولته، واكتشفتُ وجود مادة متطايرة فيه، وهي مزيل طلاء الأظافر. كان الأمر يمكن أن يؤدي إلى فتح تحقيق، لكن شيئاً أدى إلى عدم حصول الأمر، حيث عُثر في غرفتها على قارورات مزيل طلاء أظافر فارغة. أجمعنا أنا والفريق الطبي الذي كان يعالجها، على أنه ربما حاولت نسرين أن تخفي نوع المادة التي كانت تستهلكها كي تقنعنا بأنها لا تعاني الإدمان.

سألت ليلية بنبرة توحي بالشك:

ـ برغم أن ثمة احتمالاً كبيراً أن يكون أحدهم قد دس هذه القارورات الفارغة في حجرتها كي يوهمنا أنها تتعاطي تلك المادة؟

ظل صامتاً ولم يجبها. مرر فقط لسانه على شفتيه الجافتين، ثم قال كأنه استجاب لقوة داخلية دفعته إلى قول ما في داخله:

ـ محتمل... وفي هذه الحالة، فإن الفاعل قد يكون أراد أن تصاب نسرين بالتخلف العقلي أو الجنون، فلهذه المواد تأثير بالغ في الإنسان، وخاصة في مستوى الجهاز العصبي.

ثم توقف قليلاً، وتابع بعد ذلك، وقد بدا، في هذه المرة، مستعداً أكثر من أي وقت مضى لإعطاء كل ما لديه من معلومات بخصوص نسرين غزلان:

ـ الحقيقة أنني فكرت في هذا الأمر، وفي احتمال أن يكون شخص ما قد جعلها تدمن من أجل أن تنسى... أذكر أن نسرين عندما كانت تتعالج في هذا المركز، تحدثت مع إحدى الممرضات عن أنها كانت شاهدة على جريمة قتل

بدون أن تفعل شيئاً. أخبرتها أنها رأت القاتل، لكنها لا تصدق أنه هو القاتل. ثم مع مرور الوقت، بدأت تنسى ما قالته للممرضة، وكل ما بقي في ذاكرتها، الإحساس بشيء يضغط عليها.

ـ أتقصد الصراع الداخلي؟

ـ أجل! عندما تجد نفسها بين شيئين مصيريين، إبلاغ الشرطة بالجريمة التي رأتها، وعدم القدرة على إبلاغها لعدم التصديق أن ذلك الشخص هو القاتل الحقيقي.

ـ من كان يأتي لزيارتها؟

ـ لم يكن أحد يزورها، باستثناء عائلتها. ونادراً ما كان يأتي شخص من الصحافة. لا أدري كيف تصل الأخبار إلى الصحافة. لكن عائلتها أبلغت المصح بعدم السماح للصحافة بتصويرها أو إجراء حديث معها. أخبروني أنها فنانة مسرحية، وأن هذا النوع من الفترات التي يمر فيها الإنسان، يجعل سمعة الإنسان على شفير السقوط.

ـ سؤال أخير: هل تحدثت طوال مكوثها في هذا المصح، عن كونها مثلاً مريم، وليست نسرين؟

ـ لا ، كانت تتحاشى إطلاقاً ذكر اسم شقيقتها أو أسماء عائلتها.

ـ شكرا... أرجو ألا أكون قد ضيّعت وقتك الثمين.

عندما أطبقت ليلية جفنيّها ، ظهر كم هو لامع الظل الزهري الذي وضعته على جفنيها. وعندما فتحتْ عينيها ، شعَّ قلق فيهما ، عكس ما كان يقوله الظل الزهري. قالت كي تؤكد ذلك القلق الذي أطل من عينيها البنيتين: أنا حائرة في أمر العجوز ياسمين. لدي إحساس بأنها تخفي أكثر مما قالته في الاستجواب الأولي.

كان الشخص الذي تحادثه هو مليك الذي كان يجلس في الطرف المقابل للطاولة، وعلى الطاولة كان يوجد طبق القريدس المقلي مع الخضار، والخضار مع سلطة المحار. كان مليك يتناول وجبة عشائه خارجاً مع ابنة خالته، كون خالته فريال وصديقتها نجية ذهبتا لحضور العرض الأول للسيرك. كان الوقت ليلاً ، فرافقهما مهدي رغماً عنه، كان يفضل أن ينعم بنوم هادئ، لكنه أمام إلحاح السيدتين لم يجد إلا أن يستعد في أقل من دقيقة، ويذهب معهما. وبرغم أن مليك كره طعام المطاعم، إلا أنه لم يجد حلاً مع خالته التي كانت لا تتقن إلا فن اللباس والسهرات.

ومع هذه الصفة التي أورثتها ابنة أختها الكبرى ليلية، كان على مليك أن يبحث كل يوم عن مطعم جديد يقدم وجبة لذيذة... ونظيفة.

ها هما الآن في أحد مطاعم سطاوالي. لكن، برغم أن المكان جميل، والمأكولات لقيت كل استحسان من مليك، إلا أن ليلية لم تستطع أن تستمع بهذا كله. ثمة شيء ينمو ببطء في رأسها. كانت قد اتصلت بالعجوز ياسمين، مساء اليوم، وطلبت منها إن كانت تستطيع مقابلتها غداً، كي تتحدث معها في أمر مهم له علاقة بقضية نسرين غزلان، لكنها تفاجأت بأن العجوز ياسمين، هي التي ألحت على ليلية للحضور لتتحدث معها في شيء ذي أهمية بالغة. كان هذا الحدث العَرَضي برغم تفاهته، يسبب قلق ليلية، فكانت تريد أن تتحدث مع العجوز ياسمين، وتسألها إن كانت لها شكوك في من يمكن أن يرتكب مثل هذه الفعلة الشنعاء، وإن كانتْ في خلال هذه السنوات كلها، لم تستطع أن تفرق بين الفتاة التي ربتها والتي تربت مع ابنتها. لكن المكالمة التي أجرتها معها خلطت الأمور، فيبدو أن للعجوز شيئاً قررتْ أخيراً أن تضعه في الضوء، وتزيح عنه ستار الظلال، لكن ما هو؟! لم تكن ليلية تريد أن تذهب بدون أن تكون خمنت المجهول الذي ستكشفه العجوز ياسمين.

إن أكره الأشياء هي تلك الأمور غير المتوقعة، التي تباغت المرء بدون أن يكون قد استعد لها.

كانت الجملة التي رمتها، وهي تطبق جفنيها، تعبيراً واضحاً عما يخالج داخلها من توتر وحذر:

ـ ماذا تعتقدين أنها تريد إخبارك به؟

ـ هذا ما يقلقني. لا أرى شيئاً يمكنها أن تخبرني به... وفي الوقت نفسه، أشعر بأن هذه المرأة تخفي جبلاً من الأسرار داخلها... هي التي أخبرتْ نسرين غزلان (مريم الحقيقية) عند عزاء أختها، أن شقيقتها لا يمكن أن تكون وفاتها إلا جريمة ارتُكبتْ، ولا أظن أنها كانت تمزح في تلك الظروف. لكن في الوقت ذاته، كيف أدركت أن مريم غزلان (نسرين الحقيقية) قُتلت من طرف شخص غير الإرهابيين؟

حملق مليك فيها باهتمام، ثم قال لها:

ـ إن المسألة تتعقد... فبحسب ما رويتِ لي عن تلك السيدة المسنة، لا أظنها من النوع الذي يقول ما في داخله بهذه السهولة.

أشاحت ليلية بعينيها بعيداً عن مليك، وقالت وهي عاجزة عن إخفاء قلقها:

ـ هذا ما يحيرني. إنها ليست سهلة... إنها امرأة حذرة، لا تتفوه بدون أن تفكر ملياً في ما ستقوله... وما يحيرني أكثر، أنها فجأة تطلب مني أن أذهب إليها، لأن لديها ما تريد أن تقوله لي...

ـ ما عليك في هذه الأحوال، إلا أن تنتظري الغد، وتذهبي إليها وتعرفي ماذا يدور في خلدها.

هزت رأسها، وقالت بيأس:

ـ أجل، لا أرى حلاً آخر. ثم إن تلك السيدة غريبة، لا يمكنك أن تتوقع ما ستقوله.

صمتت للحظة، ثم استطردت وهي تقطب جبينها: لكن، في الوقت نفسه، أريد أن أتحقق مما قالته لي ليندة عن سمير وعلاقته القديمة بمريم غزلان الحقيقية.

وروتْ له باختصار بدون أن تهمل أي تفصيل مهم، ما أخبرتها به ليندة عندما حضرت إلى مكتبها.

ـ هل تظنين أن هذه الممرضة متطفلة بدرجة امتياز؟

ـ أجل، فإن كان حقاً سمير يسرق خالته، فسيكون هذا في سرية تامة... إن لم تكن قد تنصتتْ من الباب، أو قامت بشيء، من هذا القبيل، فكيف برأيك علمت بمشاجرة مريم غزلان الحقيقية مع سمير.

ـ هل ثمة شيء أستطيع فعله لك؟

احمرت وجنتاها الشاحبتان قليلاً، وقالت بثبات:

ـ أجل، أريد أن ترافقني غداً إلى منزل العجوز ياسمين، وأريدك في الوقت الذي سأتحدث فيه معها، أن تستغل الوقت وتتحدث مع ليندة، وتحاول معرفة كل ما يتعلق بالعلاقة السابقة لسمير مع مريم، وخاصة الطريقة التي كانا يتراسلان بها... لقد سمعت أقوالاً كثيرة من مصادر عدة، وأريد أن أعرف كيف كانت تصل رسالة مريم أو سمير إلى الآخر، بدون أن تكتشف ذلك زوجته ليلى.

نظر إليها باستغراب، وقال لها:

ـ هل تريدين أن استجوب ليندة؟ لكن، بأي صفة سأفعل ذلك؟

ـ لم أطلب منك أن تستجوبها، بل أن تتحدث معها وتتظاهر بانتظاري بدون أن تظهر هويتك. ستظن أنك من

الشرطة بما أنك أتيت معي. تحدث إليها عن الجريمة، وأَعط رأيك، واحرص على أن تجعلها تشعر بأنه رأيك الشخصي، عندها ستبدأ بالحديث من باب الرد على المحادثة؛ وعليك أن تنصت إلى أدنى ملاحظة تقولها، مهما تكن تافهة أو بدون معنى.

ارتبك صوته، وقال بتلعثم:

ـ أنا... أنا... لست واثقاً من أنني سأكون بالنفع الذي تتمنينه... ثم لا أدري ما هو المهم والتافه بالنسبة إلى القضية.

كانا في تلك الأثناء، قد أنهيا الطعام. رافق مليك ليلية حتى الباب، وساعدها على ارتداء معطفها، وقالت وهي تُدخل ذراعها الأيمن في المعطف: أنا أحتاج إلى ما تقوله هذه الممرضة. إن الاستجواب الرسمي يجعل المرء حذراً، وفي الكثير من الأحيان، ثمة أناس يرفضون الإدلاء بشهادتهم، ويكتفون بالقول إنهم لا يعلمون بالأمر، أو لم يروا شيئاً، بدلاً من الدخول في كم هائل من الأسئلة. لهذا، أريد شخصاً يقوم بهذا العمل، لكن أود شخصاً أثق به، ولن أجد أحداً غيرك.

كان الحديث قد حُسم بأن يرافقها مليك في زيارة الغد،

وأن يحاول أن يفعل ما طلبت منه ليلية، بدون أن يدري حقيقة كيف سيتصرف.

* * *

أضافت ليندة إلى فطائر الذرة المحشوة باللحم، البصل والتوابل، ثم وضعتها في داخل الفرن. لم تكن طباخة ماهرة، لكنها امتهنت هذه المهنة منذ قدومها إلى منزل العجوز ياسمين. فمع وجود مطبخ كبير مجهز بفرن واسع، وكثرة أدوات الطبخ ومستلزماته، راحت تميل أكثر فأكثر إلى تجربة أناملها في الطبخ. كانت في كل مرة تطبخ، تشعر بالسعادةِ والنشوة، لكن ليس في هذه المرة. كان شيء يقلقها وينمو ببطء في أعماق نفسها، ويصعد نحو حنجرتها، فتشعر بأنها غير قادرة على التنفس. فتحت الباب الخارجي للمطبخ، فهرولت نسمات هادئة تتسلل إلى الداخل، وتكنس من داخلها ذلك التوتر الجاثم على قلبها. وبينما هي تمشي في ممرات عشبية لحديقة المنزل، إذا بها تلمح من بعيد سيارة تتمايل ببطء وتتجه نحو المنزل. تطاولت بعنقها لترى من يقودها. ومع اقترابها، بدأت ملامح ليلية تظهر لها، فقالت في سرها بقلق زاد وطأة على غمها: هل سيلحقنا هذا الكلب المسعور إلى هنا؟

شطحت بعيداً في تفكيرها. كانت تتقدم بدون أن تدري

نحو ممر السيارات. وعندما وقفت على حافة الرصيف، كانت ليلية تركن سيارتها في مكان قريب من المنزل. تجمدت ليندة في مكانها، وقد ارتفع تلقائياً حاجباها استغراباً، عندما رأت مليك ينزل من الباب الآخر للسيارة.

دنت منهما ليندة، وهي تضم جسدها بين ذراعيها، متظاهرة بأنها تقوم بالنزهة. وأرسلت ابتسامة مسالمة قبل أن تقول بصوت هادئ يناسب الطبيعة: كيف حالك آنسة ليلية إسعد؟ أرجو ألا تكون لزيارتك علاقة بالجريمة... لقد بدأ المنزل بالنسيان منذ أن دُفنت نسرين... أقصد مريم، كي أكون صريحة. الوحيدان اللذان لن يتجاوزا هذه الحادثة هما طفلاها، فالصغير جمال، كان ينام مع أمه، ولا يوجد في البيت شخص يحسن التحدث مع الأطفال في هذه الأمور.

كانت ليلية قد أغلقت باب السيارة، ومشت نحو الممر المبلط، الذي كانت تقف إلى يمينه ليندة.

ـ أنا آسفة إن كنتُ قد أزعجتُ نزهتك.

ارتبكت ليندة، وقالتْ بعدما أرسلت ضحكة مبالغاً فيها بعض الشيء، وهي تلتقط زهرة الكمبيديوم وتقربها من أنفها: نحن الآن في فصل الربيع. إنه موسم الأزهار، وأنا

مولعة بها... أحب كل ما له علاقة بالورود. هل تريدين رؤية أحد ما؟

ـ أجل، كنتُ أريد التحدث مع العجوز ياسمين، وقد أخذت موعداً معها.

تفاجأت ليندة، لعدم علمها بهذا الموعد، لكنها لم تحاول إبداء صدمتها، وأومأت برأسها، وقالت لها:

ـ سأبلغها أنك حضرت...

تابعتها ليلية، وبقي مليك ينتظرها خارجاً، متكئاً على السيارة.

الفصل الحادي عشر

السيد كمال سناري

دخلت ليلية حجرة رحبة الأبعاد، لكن جاذبيتها تنتهي عند هذا الحد. الحجرة كانت مزدحمة بالأثاث والتحف، وعلى جدرانها ورق باهت اللون، وعُلقت عليها ـ بشكل مائل وبدون أي تناسق ـ منقوشات فولاذية ذات موضوعات مختلفة. أما قماش الكرسي الذي جلست عليه ليلية فكان يختلف لونه عما يوجد من ألوان في الحجرة. شعرت بأن كثرة هذا الأثاث الذي كان يتزاحم في فوضى، دليل واضح على شهوة التملك.

انتظرت فترة لا بأس بها قبل أن حضرت العجوز ياسمين. أحست وهي جالسة في كرسي فاخر من الخشب المنحوت ذي القماش الغريب، برطوبة هذا البيت الغريب، الذي أرادت أن تجعله العجوز ياسمين يضم عائلة حقيقية، بسلبهم حريتهم. وقبل أن تغوص أكثر في التفكير، فتح باب الحجرة. نهضت ليلية وانتظرت دخول العجوز بكرسيها

المتحرك ومن خلفها ليندة، وقد أحست بقوة غريبة وعجيبة في هذا الجسد الضامر.

ابتسمت العجوز ياسمين ترحيباً عندما اقتربت أكثر منها. طلبت من ليندة، أن توقفها، وأن تحضر العصير للضيفة. وقد لاحظت ليلية كيف كانت تلقي أوامرها بعزم، وثقة.

استدارت إلى ضيفتها، وأرسلت إليها ابتسامة هادئة، جعلت بعض تجاعيد عينيها ترتخي، فبدا على وجهها مسحة من الجمال الغابر.

ـ أنا آسفة، لأنني جعلتكِ تنتظرين. أرجو أن تعذريني. لكني كنتُ أبحث عن بعض الأوراق... بل عن ورقة ذات أهمية لا يمكن غض الطرف عنها.

وأخرجت من تحت الغطاء فوق رجليها، رسالة مصفرّة، وأعطتها إياها، فقرأتها:

«٧ آذار/مارس ٢٠٠٥

عزيزتي نسرين،

عندما أعطيتني صباح اليوم الورقة البيضاء، تعجبت، لكني تذكرت أنك توأم مريم، وأعتقد أن التوأمين تتشابهان

في طريقة التفكير. فشقيقتك وأنا كنا نتراسل برسائل سرية في ١٩٩٤. كنا نستعمل حامض الكبريت لإظهار الكتابة المحفورة في صفائح حديدية. لا أدري إن كانت شقيقتك قد أخبرتك أم لا، لكن أرجح أنك اكتشفت أننا كنا متحابين. وعندما تسلّمت ورقتك البيضاء، وطلبت مني قراءتها، تذكرت رسائل شقيقتك. صعدت إلى غرفتي، وقربت رسالتك من الشمعة، وظهرت حروف الرسالة. حتى أنتِ تعرفين خدعة الليمون.

الحقيقة لقد فاجأني ما كتبتِ لي. هل تريدين أن أساعدك على كشف قاتل شقيقتك؟ لكن، هل حقاً نسيت ما حدث ذلك اليوم؟ أعرف أنك لم تصدقي ما حصل؟ وليس من المنطقي أن تصدقي بالنظر إلى الظروف المحيطة؟ أرجوكِ نسرين، لقد تحدثنا كثيراً، لكن أعتقد أن ما حدث لك بين ١٩٩٥ و١٩٩٧ أثر في ذاكرتك، وربما محا ما تحدثنا عنه، أو هذا ما أخبرنا به طبيبك، أو قد يكون هذا ما فهمت.

لا أدري إن كان جيداً أن أرسل إليك هذه الرسالة بطريقتك ذاتها، أم لا، لكن يا نسرين من أجل ذكرى شقيقتك، لا تصعّبي الأمور كما هي معقدة.

سمير».

عندما توقفت عن القراءة، رفعتْ عينيها نحو العجوز ياسمين، تنتظر تعليقاً منها، لكنها، بدلاً من ذلك، بادلتها النظرات ذاتها، ورفعت حاجبيها في إشارة إلى أن الرسالة ذات معنى.

لم تستطيع ليلية أن تكون فكرة عما أعطته لها الرسالة لأول وهلة. وبرغم ذلك أدركت أنه يجب أن تدل على الكثير من الأشياء. أعادت قراءتها مرات عدة: فالرسالة تتكون من حزمة من الجمل، لا يمكن غير المُرسَل إليه أن يفهمها بحذافيرها. لكن ما أعطته الرسالة، أن كلا الشخصين، المُرسِل والمُرسَل إليه، كان يعلم أشياء كثيرة عن مقتل نسرين غزلان الحقيقية، وقد تناقشا في هذا الأمر من قبل. والرسالة تبين أيضاً أن سمير كان يهتم بأمر مريم الحقيقية، وكانا يتراسلان بطريقة سرية جداً، لكنها شعرت بغموض قاتم يكتنف ما جاءت به الرسالة إذا ربطتْها بالوقائع الحالية: ألم يشك سمير في أن نسرين المزيفة هي حقاً مريم الحقيقية؟

زفرت ليلية ببطء، وقالتْ لها، وهي تتأمل كوب العصير الذي وضعته للتو ليندة إلى جانبها:

ـ هل يمكن أن أعرف كيف وجدتها؟

ـ لقد وقعتْ في يدي عن طريق الصدفة، وضعتها نسرين (مريم الحقيقية) في كتاب الأدعية بدون أن تنتبه.

أطلقت ليلية همهمة مرتابة، بينما مضت العجوز ياسمين قائلة: وعندما طلبت منها الكتاب، عثرت على الورقة، واحتفظتُ بها.

ـ احتفظتِ بها لأي غرض؟

صمتت فجأة، لم تنتظر سؤالاً كهذا، فأجابت ليلية في مكانها:

ـ هل كي تستعمليها ضد سمير؟

فاجأها ما قالته ليلية، أو بالأحرى وقاحة كلامها، ونشزت كالسهم:

ـ أنا لا أسمح لك بأن تحدثيني بهذه الطريقة، ثم لماذا أستعملها ضد سمير؟

أطالت ليلية النظر إلى وجهها الأحمر المنفعل، ثم قالتْ:

ـ هذه الرسالة تبين أن سمير يعرف شيئاً عن مقتل نسرين غزلان الحقيقية، أهي طريقتك لمعاقبته لزواجه بليلى؟

كان وجهها قد احمرّ أكثر من ذي قبل، وبدا أن المحادثة أخذت طريقاً آخر غير الذي كانت تريده العجوز ياسمين، واحتجتْ بعنف:

ـ لقد تزوج بها وانتهى الأمر. هل سأقضي حياتي أعاقبه على خطئه.

ـ يبدو الأمر كذلك. إنكِ تستعملين كلمة «خطأ» لوصف زواجه بليلى.

قاطعتها وقالت وقد أحستْ بأن عينيّها الداهيتين تُمعنان النظر فيها:

ـ لا تجعليني أندم على مقابلتك، وإعطائك هذه الرسالة.

لكن ليلية لم تهتم بهذه الملاحظة، وقالت لها بحدة:

ـ أرجو ألا أكون شخصاً فظاً. لكن يا سيدتي، أنا محققة، ولا أنصاع لأوامر الآخرين. فإذا كنتِ تظنين أنني بهذه الرسالةَ، سأسجن سمير، وهذا ما تتمنين أن يحدث،

فأنا أُعلمك بأننا نملك أدلة (لكنها ليست كافية) تدين غيره أيضاً. . . وأقصد أشخاصاً موجودين في هذا المنزل.

ـ هل هو اتهام غير مباشر؟

ـ لا ، لكن يا سيدتي، أنتِ طوال هذه السنوات، كنتِ تعرفين أن الشخص الذي يعيش معك، مريم وليس نسرين، لكنك فضلت أن تحتفظي بالصمت، لماذا؟

ـ عندما تجيبين عن هذا السؤال: لماذا انتحلت مريم شخصية شقيقتها، سأجيبك أنا بدوري عن سؤالك؟

حركت عجلات كرسيها في إشارة إلى انتهاء المحادثة، لكنها أوقفتها بعنف وقالت لها:

ـ في يوم اختفاء مريم، بحسب تحقيق إحدى الصحف وبلاغ الاختفاء الموجود لدى الشرطة، خرج الجميع للنزهة. خرجت مونية مع زوجها مروان، وذهبا إلى حديقة الحيوانات في بن عكنون. ذهب مروان لأنني أعتقد أنه كان قد فقد الشهية للأكل، وبدأ وزنه ينخفض، لهذا أرادت زوجته أن تروّح عن نفسه، لعل نزهة تجعله يُقْبل على الأكل. وخرج سمير وذهب إلى بحر «مخلوفي». أما زوجته، فقصدت طبيب العيون، وأنتِ ذهبت إلى حصة التدليك مع ليندة، وبقيت مريم الحقيقية مع نسرين الحقيقية

في المنزل لأنها كانت مصابة بالرشح. أريد أن أعرف من عاد إلى المنزل بعد ذلك؟

ـ لا أدري، كنتُ في حصة تدليك برفقة ليندة، ولم أعد إلا مساءً.

وسارعت إلى سؤالها التالي:

ـ هل دبر أحد لهذه النزهات، أم كان اقتراح الجميع؟

ـ لا أتذكر. لقد حدث منذ زمن بعيد، لكني أتذكر أنه كان يوم عطلة، والجميع كان يستغل هذا اليوم للخروج و«الفسحة».

ـ لكني أشك في أنك تعرفين أكثر مما صرحت به يا سيدتي. عندما ذهبت مريم الحقيقية إلى طبيب نفسي كي تعالج نفسها من حالة البكاء المباغتة التي كانت تنتابها باستمرار، ذكرت له أنك كنتِ أنتِ أيضاً تشكين في أن موت نسرين الحقيقية كان جريمة قتل، وليس عملاً إرهابياً. وصرحت بشكوك لمريم الحقيقية.

ـ هل حقاً فعلت هذا؟ لا أدري. لقد كان المنزل غارقاً في حالة من الخوف وعدم الفهم، وأظن أن الجميع تخيل أشياء كثيرة قبل أن نتأكد من أن العمل كان إرهابياً.

خرجت العجوز ياسمين من الحجرة، وقالت عندما وصلت إلى الباب: أظنك تعرفين الباب بدون أن يرافقك أحد.

أومأت ليلية بهدوء، فهي حصلت على ما تريد أكثر مما توقعته. فالعجوز ياسمين أثبتتْ أنها تعرف أكثر مما تدعيه. لكن مرة أخرى، لماذا يريد الجميع أن يحتفظ بما يعرفه لنفسه؟ أحدهم رفض أن يقول كل ما عنده حتى وهو على شفير الموت، ثم هذه العجوز التي تفضل الصمت!

بقيت ليندة تراقب من النافذة سيارة ليلية وهي تبتعد، وكانت تمسك بالستار بقبضة غريبة، كأنها تريد أن تشد إحكامها على أعصابها. وانتفضت كمذعور من نومه عندما سمعت صوت مونية من ورائها، فاستدارت ومشت نحو فطائر الذرة، وقالت، هي تعيد ترتيبها على الصحن الأصفر: لقد جاءت تلك القاضية ليلية، وتحدثت مطولاً مع العجوز ياسمين... وخرجت بعد هذه المحادثة متوترة وغاضبة.

جلست مونية على أحد كراسي المطبخ، وقالت غير مصدقة: هل تعلمين لماذا أتت؟

شدت ليندة من قبضتها، حتى شعرت بأن أظافرها تخترق جلد يدها، وقالت وهي تبتلع ريقها بصعوبة: هذا ما

يقلقني... فتلك القاضية لم تحضر من تلقاء نفسها، بل كان لها موعد مع العجوز ياسمين (استدارت ليندة نحو مونية، كاشفة عن وجهها المحمر والقلق)... أتفهمين. . . العجوز ياسمين استدعت تلك القاضية إلى هنا... والأسوأ أنني لم أعلم إلا عندما أتت تلك المحققة برفقة شخص فضولي، لم يترك أي سؤال إلا وطرحه علي.

ـ هل أحضرت تلك القاضية شخصاً يستجوبك؟

ردت ليندة بجفاف:

ـ ليس استجواباً كذلك الذي تعرضنا له في بداية القضية. الحقيقة أنه... كيف سأشرح لك؟ ظننتُ في البداية أن ذلك الشرطي رافقها لمجرد المرافقة، أو ربما هو إجراء... وبقي ذلك الرجل ينتظرها في الخارج. ثم من باب الضيافة، طلبت منه أن يرافقني إلى المطبخ، وقدمت إليه كوب عصير، وبدأنا نتحدث. سألني عن أصناف كثيرة من الأزهار.

ـ هل قلتِ أزهار؟

استدارت ليندة نحو المجلى وأخذت تقشر البطاطا، وأخذت تنظفها من البثور المتراكمة عليها، ومضت تتحدث مع مونية بوجه متجهم:

ـ أجل، فعندما أتيا، شاهداني أمشي في الحديقة، ولا أدري كيف خطر في بالي أن أخبرهما أنني أحب الأزهار، ومولعة بدراستها... هذا ليس مهماً، فالحديث عن الأزهار لم يمتد إلا لدقيقة، حتى تحدث ذلك الشخص عن الجريمة التي حدثت في المسرح الوطني، وراح يخبرني بما يعتقده. وفي الأخير سألني إن كانت لي فكرة عن الموضوع... فتحدثت بكل طلاقة عن رأيي. ظننتُ أن الحديث مجرد كلام، فهذا الشرطي ما يحتاج إليه التحدث في انتظار تلك القاضية، لكني لاحظت بعد فوات الأوان، أن هذا الشخص دخل في أسئلة تفصيلية، لا يسألها شخص يريد تمضية الوقت، بل لمعرفة رأيي في الجريمة.

أخذت في هذه الأثناء تعمل بقوة بلغت حد جعل تلك البثور تتطاير في أرجاء المطبخ، وأصابت مونية إحداها في عينها، وسببت توقفاً موقتاً في الحديث، فقالت مونية وهي تجفف عينها بالمنديل: وماذا سألك؟

ـ عن كل شيء... لا أدري. أخبرته عن كل ما حدث بين سمير ومريم قبل أن يغتالها الإرهابيون، أقصد قبل أن يغتالوا نسرين (الحقيقية)

شحب وجه مونية، وقالت همساً وهي ترنو إليها:

ـ هل أخبرته بتلك المشاجرة التي سمعناها؟

ردت ليندة وهي تهز رأسها بأسى:

ـ أجل، وأظنني قد ارتكبت خطأً رهيباً. بإخبار الشرطة عن علاقة سمير ومريم السيئة قبل أسبوع واحد من اغتيال نسرين غزلان الحقيقية، سأجعل أنظارها تتجه نحو سمير... والأسوأ أنني قبل أيام ذهبت إلى القاضية ليلية إسعد، وأخبرتها عن كل ما عرفته عن سمير والمشاجرة التي حصلت مع مريم قبل تلك الجريمة النكراء.

رمقتها مونية بدهشة، ثم قالت لها:

ـ لقد أوقعتِ نفسك في مشكلة، سيستدعونك إلى المحكمة، ويأمرونك بأن تعيدي ما قلتِ لهم أمام الناس والمحلفين والقاضي، وعندها ستعرف العجوز ياسمين. لن تتركك تعملين عندها مجدداً.

أجابت ليندة متنهدة:

ـ هذا ما أخشاه... لكن أعتقد أن علاقة نسرين (مريم الحقيقية) وسمير تطورت في ما بعد إلى الأحسن.

سألتها مونية بارتباك: ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أن الأمر لم يعد في خانة علاقة سيئة.

اتسعت حدقتا مونية، وقالت والرعب يغلف صوتها، وارتعشت، وخشيت أن تتفوه بما يجرحها، فصرخت بحدة:

ـ ماذا تقولين بحق الله يا ليندة؟

ـ لا تتركي أفكارك تسرح بعيداً، لكن نسرين (مريم الحقيقية) وسمير كانا يتراسلان طوال السنوات السابقة... حتى وهي متزوجة... فالماكر سمير كان يعرف أن التي بقيت على قيد الحياة هي مريم وليست نسرين.

ـ ماذا، وكيف عرفت؟

تابعت ليندة حديثها بوشوشة خافتة:

ـ لم تكن رسائلهم عادية... لقد ذهب عصر عنترة وعبلة والرسائل الحبلى بالشعر. لقد كانت رسائل مكتوبة بالحبر السري، أو شيء من هذا القبيل. رأيت ذات يوم سمير يضع ورقة بيضاء في المزهرية بالقرب من غرفة نسرين (مريم الحقيقية). وفي المساء، عثرت على بقايا ورقة محروقة، ورأيت في بعض الأجزاء مقاطع حروف. كانت الورقة البيضاء ذاتها التي رأيتها في المساء داخل المزهرية... لقد

وجدت ذات يوم أيضاً قارورة فيها حمض الكبريت بقوة ١٠ في المئة في خزانة سمير.

نهرت مونية، وهي تتطلع إلى ما حولها بنظرات خائفة:

ـ إن هذا خطير جداً، ماذا كان مكتوباً في الرسالة؟ وماذا تفعل قارورة حمض الكبريت في خزانة سمير؟

تركت ليندة ما في يدها، وأخذت تذرع الحجرة جيئة وذهاباً. وبدت مونية التي كان شعرها منفوشاً كشعر قنقذ من وطأة الهلع، كطير تحت أنياب النسر. وعندما التقت عيونهما، لم تستطع ليندة أن تكبت زفرتها، فاندفعت تقول:

ـ لا أدري، لم أتمكن من قراءتها... ثم إني وجدت ذات يوم تحت سرير...

ـ رباه! إنك ستجنين على نفسك.

ـ اصمتي يا مونية، فلم يرني أحد... دعيني أخبرك بما وجدته، فالأمر في غاية الغرابة. لقد وجدت كتاباً عن الأحبار السرية، ووجدت قطع ورق موضوعة داخل الكتاب، في الصفحة التي تتحدث عن حمض الكبريت. أعتقد أن حمض الكبريت هذا يُستعمل لإظهار كتابة على سطح حديدي.

انقبضت ملامح ليندة، وركلت الأرض بقدميها من الغيظ، ثم قالت بغضب:

ـ أظن أن زوجها علم بهذه الرسائل اللعينة... فزوجها، ذلك الحقير، قال عند سماع شهادته، إن لزوجته عشيقاً، وهما يتراسلان منذ مدة.

مسدت مونية شعرها، بحركة لاإرادية بعدما شعرت بأنه يقف من الهلع: أقال هذا؟

أومأت ليندة برأسها، وقالت بصوت حزين: أجل... لكن ما يغضبني، أنه ما زال في المنزل. لماذا لا تطرده العجوز ياسمين نهائياً. ألم يكن هو الذي يهوى الترحال؟ فليرحل بعيداً، وليأخذ معه طفليه، برغم أني أخشى أنه لن يكون أباً جيداً.

راحت تبكي بدون أن تستطيع أن تقاوم دموعها: إني أشعر بالحزن من أجل نسرين. لم يعاملها أحد جيداً. بل حتى جدتها، بمجرد أن رأت أنها بدأت تستقل، وتسافر إلى تونس ومصر، حتى فعلت المستحيل كي تبقيها مقيدة هنا.

سيطرت أخيراً على دموعها، وجالت ببصرها الكئيب في زوايا المطبخ، ومضت في حديثها المتهدج: الشرطة تعتقد

أن مريم انتحلت شخصية شقيقتها كي تضلل القاتل، والآن ثمة شكوك كثيرة في احتمال أن يكون القاتل من هذا المنزل... يا إلهي، كم هو مرعب. لقد عاشت مريم غزلان عشر سنوات تحت سقف واحد مع قاتل شقيقتها، ومع قاتلها! إني أتفهم حالة الرعب والقلق اللذين كانت تعيشهما.

للمرة الثانية، أثار الإشفاق الدمع في عينيها.

عادت ليلية من عند العجوز ياسمين خائبة. شعرت بأن هذه السيدة تملك قدرة عجيبة على التهرب من الأسئلة، وأحست بالإرهاق وعدم الثقة بمحادثتها معها. وبلغ بها أنها أضحت شبه متيقنة من أنها وراء لغوها كانت تخفي أشياء كثيرة لم ترد أن تصرح بها. وأفضت بما كان يخالجها من شكوك لوكيل الجمهورية.

ـ هل أنت متأكدة من أنها مشلولة، أم تمثل دور مشلولة؟

أطرقت ليلية برأسها، وقالت:

ـ إنها حقاً مشلولة، فذراعاها مضموران، هذا أكيد. لكن ما يثير الاستغراب، أنها برغم عجزها عن المشي، فهي مسيطرة بإحكام على المنزل.

تمدد رياض على ظهر كرسيه، وقال:

- هل تفكرين في أنها قد تكون دفعت أحداً من أفراد العائلة إلى القتل؟

حركت رأسها نافية، ثم أردفت:

- لا أعتقد أنها من النوع الذي يجعل الشهود على جرائمهم يعيشون في وسطهم. إن ما يجعلها قوية وجبارة أنها تمسك على الجميع ما يلوي أعناقهم، ويعيق محاولتهم اعتراضها، بدون أن تترك لهم فرصة أن يلوا لها ذراعها.

- حسناً، لكن لا يمككنا أن نستبعد أن تلجأ إلى شخص من الخارج. فلو افترضنا أنها ارتكبت الجريمتين لسبب معين، فسوف تلجأ إلى شخص (لعجزها عن الحركة) لن يفتح فمه أبداً، ويكون آخر شخص قد يخطر في بالنا.

- هذا الاحتمال مستبعد. فالعجوز ياسمين لا تعرف أحداً بخلاف عائلتها. ثم إنها لم تنشئ أي صداقة طوال عملها في شركتها. كان سمير يهتم بكل شيء، وهي كانت مهمتها التوقيع.

- سمير، سمير، إن اسمه يُذكر في كل حادثة. ألم يزل عنه مرضه؟

ـ ما رأيك، بما أننا نملك دليلاً على أن سمير هو الذي كان يراسلها، وكان يعرف شيئاً عن مقتل شقيقتها (نسرين الحقيقية)، ألا يمكن أن نحقق معه بغض النظر عن انهياره العصبي. أعتقد أن حالته قد تكون تحسنت بعد هذه المدة.

ـ أعتقد أنه من الأفضل عدم التسرع. فكل ما لدينا ورقة قدمتها إلينا العجوز ياسمين، وأنتِ بنفسك أخبرتني أنك شعرت بأنها حينما أعطتك الرسالة لم تكن تهدف إلى خدمة القضية، بل إلى إدانة سمير. إنك تعرفين ما معنى هذه الرسالة وخاصة ما هو مكتوب فيها، فهو سيجعلنا نستدعي سمير. وسمير حتى هذه اللحظة، لم يخرج من المصح. انتظري لأريك ما وجدت بدوري، إنه شيء مثير.

مطت ليلية شفتيها، وقالت بتذمر:

ـ أرجو ألا يكون أمراً يعقد القضية أكثر مما هي معقدة.

ـ لا أدري كيف ستنظرين إليه... إنه سجل سوابق العدلية للبندة، ليس نظيفاً تماماً.

اتسعت حدقتا ليلية، وسألته:

ـ ماذا تقصد؟

ـ لقد حُكم عليها مرتين بالسجن في تلمسان بتهمة السرقة، ويبدو أنها كانت تسرق مع شريك لها... لا أدري إن كانت لهذا علاقة بالجريمة، لكنه يجعلنا نفتح أعيننا على ليندة.

ـ هل يمكن أن تكون قد عادت إلى ألاعيبها السابقة؟ أذكر أن مونية أخبرتني أنه عندما ذهب زوجها إلى الينابيع الحارة للعلاج من آلام رجليه، استدعتها العجوز ياسمين إلى مكتبها، وأخبرتها أن مبلغاً مالياً قد سُرق من الخزنة. أيمكن... أن يكون مروان شريك ليندة؟ ثم عندما اكتشفت مريم اختلاساتهما، قاما بقتلها.

ـ لا نملك شيئاً يثبت وجود معرفة سابقة بين ليندة القادمة من تلمسان، ومروان.

ـ ما علينا إلا أن نتبع ما أخبرتني به نسرين (مريم الحقيقية): الدليل في المنزل القديم.

قضت ليندة طوال النهار متوترة، بسبب مزاج العجوز ياسمين التي أزعجها لقاؤها مع القاضية. وفي المساء، عندما انتعش الجو، وضعت وشاحاً على كتفيها، ونزلت إلى الحديقة. عبرت الممر المغطى بالحصى، وتمنت في سرها أن تهجر هذا المكان. زفرت وحلت ياقة قميصها التي

كانت تضغط على عنقها، وأخذت تمشي إلى جانب نافورة الماء. وما هي إلا بضع دقائق حتى وجدت نفسها عند رصيف الشارع. لم تكن توجد منازل كثيرة بالقرب من منزل العجوز ياسمين، لهذا كانت طريقاً تقريباً خالية من المارة أو السيارات. ومضت ليندة تمشي ببطء. كانت تحتاج إلى الابتعاد قليلاً عن جو المنزل الذي كان يعيش أسوأ فترة حياته وأحفلها بالألم. لم تكن لها وجهة محددة. كانت تمضي في طريق غير منتهية، وتشعر بمويجات رطبة تتغلغل إلى داخل صدرها، فتطفئ كل التوتر الذي يغلي في داخلها. كان الطريق صامتاً ونظيفاً، والظلال المسننة تتراقص خرساء على الأرض، وفجأة لفتت انتباهها سيارة متوقفة في المنعطف تحت ظل شجرة وارفة الأغصان. لم تستطيع تمييز من كان في داخلها. وما هي إلا دقائق، حتى نزل شخص لم تكن هيئته غريبة عنها، وانطلقت السيارة بسرعة، ولم تستطع إلا أن تلمح شعر السائق، الذي ارتفع إلى الأعلى بفعل السرعة. كان السائق امرأة، شعرت بأنها رأتها من قبل بدون أن تتمكن من تحديد المكان والزمان. لكن السيد، ما إن اقترب أكثر، حتى شعرت برجفة تسري في جسدها. لقد كان مروان. وما إن لمحها حتى اصفر وجهه. تظاهرت ليندة بأنها لم تلمح شيئاً، وقالت بصوت تعمَّدت أن يبدو عفوياً:

ـ مروان، هذا أنت؟ يبدو أنك مثلي، تريد أن تتمشى قليلاً لتنسى المشاكل التي تملأ المنزل.

أومأ برأسه، وأضاف بصوت لا يعبر عن تأثره:

ـ أجل، المشاكل تعم المنزل. أتدرين يا ليندة، إن ما يحدث في المنزل يشبه قصة قديمة أعرفها عن فتى كان في المدرسة، وكانت نتائجه في النزول باستمرار، واكتشفت المعلمة أنه لا يكتب إطلاقاً الدروس. فأخبرت والدته التي ذهبت وفتحت محفظته، لتجد مصائب أخرى: علب السجائر، أقراص مخدرات. إن هذه القصة تشبه إلى حد بعيد ما يحدث في المنزل. إن مقتل نسرين، أو أياً كانت منهما، أزاح الستائر عن أمور كثيرة كانت في الخفاء. يبدو أن الجميع يغرقون في الأسرار.

قال هذا، ونظر إليها بطريقة أرعبتها، جعلتها تشعر بأن الكلام موجه إليها وحدها.

قالت محاولة تغيير الموضوع: الجميع أصبح غريباً، وخاصة بعد الإشاعة التي تروجها الشرطة، بأن أحدنا يمكن أن يكون هو القاتل.

سألها وهو يركز التحديق في وجهها:

ـ هل تشكين في أن شخصاً غير «أحدنا» يمكن أن يفعل الجريمة. لقد حققوا مع تلك الممثلة التي تدعى ندى عبد السلام، ولم يمسكوا أي شيء يدينها.

اعترضت ليندة وأمارات الاستغراب تغلف وجهها:

ـ لقد كانت في غرف الكواليس وقت الجريمة.

ابتسم مروان رغماً عنه، وقال بلهجة ساخرة:

ـ حسناً، إن تلك الحسناء، يكفيها أن تفرك شعرها الطويل، حتى يصدقها الجميع...

وفجأة، توقفت جامدة، كأن وحياً من الحقيقة أنار عينيها، وابتعدت بسرعة خطوتين إلى الوراء، وهرولت. لكن مروان شدها بعنف من يدها:

ـ ما بك؟

نظرت إليه نظرات خائفة. كانت تشعر بأن قوة بغيضة تطبق عليها، فتصهر معصمها. . . وتحس بالخوف وبعدم الأمان، فمروان انقلب إلى وحش بعينين دمويتين. أخذت عروق صدغيها تنبض، والحرارة تتصاعد إلى جذور شعرها، وقالت بصوت واهن:

ـ لقد تذكرت دواء العجوز ياسمين، عليّ أن أسرع إلى المنزل.

ركضت إلى المنزل غير مصدقة ما اكتشفته للتو.

عندما كانت تمشي في الممر الترابي المؤدي إلى المنزل، لمحتْ مونية تقوم بتنظيف المدخل متذمرة، وهي تضرب الأرض بالمنكسة.

مكتبة

ـ ما بك يا عزيزتي؟

توقفت مونية عن العمل، واتكأت على ذراع المكنسة، ومسحت عن جبينها العرق، وقالت وهي تتنهد بعمق:

ـ لقد قرع الباب قبل قليل، متشرد يجمع الخبز، وكان يتحدث بلهجة لا توحي بأنه في العاصمة. أعتقد أنها تشبه لهجتك. أخبرته أنه ليس لدينا خبز يابس، فأخذ يصر، وأخبرني أنه أعتاد أن يأتي هنا، وخادمة ألطف مني، كانت تفتح له الباب، وأعطاني مواصفاتك.

غمغمت ليندة:

ـ حقاً!

ـ أجل، متشرد فظ. وأخذ يثرثر، وطلب مني أن أعطيه

أي شيء قابل للهضم، ولم يغادر إلا عندما أعطيته قطع الكعك الذي بقي البارحة. ثم عندما غادر، اكتشفت أن حذاءه قذر، وقد وسخ الأرضية كلها.

اندفعت ليندة تسألها بفضول زائد:

ـ هل أنفه معقوف قليلاً؟

ـ أجل، هل تعرفينه؟

ـ أجل، لقد اعتدت أن أعطيه بقايا طعام.

ـ لكن لم أره قبل اليوم مطلقاً، أين كنت تعطينه الطعام؟

ـ لا يهم... سأصعد إلى العجوز ياسمين، أعتقد أنها تحتاج إلي.

عندما عادت ليلية إلى المنزل، كان التعب واضحاً عليها، تكاد لا تستطيع بسببه الوقوف على رجليها. وما إن دخلت حتى سمعت خطوات مليك على السلالم مسرعة. وصل درجات السلم الأولى، فرأت كم كان وجهه محمراً، أسرع إليها، وقال: لدينا شيء مهم نريد أنا ومهدي أن نخبرك به.

أومأت ليلية بتثاقل وقالت: أعلم، ليندة لم تكن في الحديقة لتأمل الأزهار، كما أوهمتنا.

ـ كيف عرفتِ؟

ـ عندما رأيتها، تشم زهرة الكومبيديوم. لو كانت حقاً مهتمة لعرفت أن هذا النوع من السحلبيات ليست له رائحة.

ـ أجل، أعتقد أنها كانت تنتظر قدوم شخص أو رؤية شخص، فلم تتوقف لحظة عن النظر من خلال نافذة المطبخ. لكن، ليس هذا الذي أردتُ أنا ومهدي إخبارك به.

جرجرت قدميها إلى غرفة الجلوس، وقالت:

ـ ماذا هناك؟ إنك ترعبني.

لحق بهما في هذه الأثناء، مهدي الذي كان أشعث الشعر، يهده النعاس، وقال عندما دخل غرفة الجلوس:

ـ الأمر متعلق بالمكان الذي أُحضر منه الفطر السام الذي قُتلتْ به مريم غزلان.

ـ حقاً؟

ـ أجل، الفطر أُحضر من عند كمال سناري.

صمت، ظن أن ليلية ستدرك في لمح البصر العلاقة بين الفطر السام وكمال سناري. لكن بدا أن هذا الاسم لم يعن شيئاً لليلية، فأسرع يقول: ألا تعرفين كمال سناري؟

وأعاد مليك السؤال ذاته: أحقاً، لا تعرفين من هو كمال سناري ؟

رفعت ليلية كتفيها، وقالت: لا، هل هو شخصية معروفة؟

ـ إنه صاحب الكتاب «النباتات القاتلة». هو عالم أحياء، درس في روسيا إبان العهد الاشتراكي، ثم كتب كتابه الشهير عن النباتات القاتلة التي يظنها الناس نبتات مسالمة.

ـ وما علاقة عالم الأحياء كمال سناري بمقتل مريم غزلان؟

ـ هنا، يكمن لب الحديث. فهذا الشخص عاد إلى الجزائر منذ اثنتي عشرة سنة، وهو يقطن المنزل المجاور لعائلة مريم غزلان.

تريثت ليلية، ونزعت معطفها، وعلقته على المشجب، ثم قالت: وكيف عرفتما؟

تدخل مليك وقال: صباح اليوم، عندما ذهبتُ معك إلى منزل العجوز ياسمين، قرأت اسمه على باب الفيلا المجاورة لفيلا العجوز. قرأته مصادفة، وعندما عدتُ شعرت بأن هذا الاسم ليس غريباً، وأنني صادفته قبل اليوم. وعندما سألت مهدي إن كان اسم كمال سناري يعني له شيئاً، أخبرني أنه عالم الأحياء الذي درس النباتات القاتلة.

ـ هذا مثير... لكن هذا لا يقودنا إلى شيء محدد، فقد يكون الأمر مجرد صدفة لا غير.

ـ لا أظن أنها صدفة، خاصة أن كمال سناري انكبّ في خلال السنوات الثلاث الأخيرة، على دراسة فطر الأمانيت.

تريثت قليلاً قبل أن تقول وهي تمرر يدها في شعرها:

ـ إن هذا مثير، لكن في الأمر شيئاً لا أرتاح إليه... فإذا كان هذا العالم يهتم حالياً بالأمانيت، وفي المنزل المجاور له، تُقتل امرأة بأحد أنواع الأمانيت، فإن احتمال وجود رابط بين الأمرين كبير. لكن، لا أرى كيف يمكن أن يكون هذا الرابط. هل يمكن أن يكون القاتل لجأ إليه للحصول

على الفطر؟ وفي حالة إذا كان فعلاً قد اعتمده، فهل العالم يعلم بالغرض من أخذ الفطر؟

قال مهدي بارتياب:

ـ إن عدنا إلى الاحتمالات، فثمة الكثير من الاحتمالات. وفي النهاية، قد يكون الأمر مجرد صدفة غريبة، وليس لهذا العالم والأمانيت الخاص به علاقة بالجريمة.

هز مليك كتفيه، وقال:

ـ الحل الوحيد هو أن نذهب ونتحرى، وبعدها يمكننا أن نكون فكرة

قاطعه مهدي:

ـ أجل، لكن ليس بصفة رسمية، لأن كمال سناري من الشخصيات التي تتجنب التعامل مع الشرطة، بسبب حادثة تسمم وقعت في مخبره، وكادت تؤدي إلى سجنه.

نظر إليه مليك وسأله: وماذا تقترح؟

ـ سنذهب أنا ومهدي، وسوف ندعي أننا طبيبان نستعد لدراسة علم السموم، ونريد أن نعرف أكثر عن النباتات السامة.

تحمست ليلية للفكرة، وقالت: وماذا تنويان أن تسألاه؟

مسَّد مهدي ذقنه، ثم قال:

ـ لا أدري بالضبط، لكن سنرى إن كان له مخبر في منزله، وإن كانت له عينات من الفطر الذي نبحث عنه.

أومأت ليلية برأسها، ومضت نحو السلالم، وقالت وقد شعرت بأنها لن تقاوم أكثر، وأن جسمها خال من القوة التي سترتقي بها السلالم:

ـ افعلا ما ترينانه مناسباً. أما أنا فسأصعد للنوم.

في صباح اليوم التالي، في وقت الضحى، كان كل من مليك ومهدي أمام منزل كمال سناري. المنزل كبير، ويبدو نوعاً ما يقتبس عمارة الطراز قديم، يعود إلى عصور الاستعمار الفرنسي. وكانت الحديقة تنمو في فوضى. طرق مليك طرقات عدة على الباب، وبقيا ينتظران خمس دقائق قبل أن يتحصلا على جواب. انفتح الباب ليظهر رجل تخطى الستين. أسفل وجهه يكشف ذلك، فقد شحب لون جلده وبرزت اللحمة بين الحنك وصفحة العنق. نظر إليهما بعينيه الواسعتين الهادئتين وجبهته العريضة. كان مهدي قد عرفه من صورته الموجودة خلف كتابه، إلا أن الذي تغير

هو ذلك الترهل الخفيف الذي مس جزءاً من عنقه وزحف نحو الثغر والخدين.

ـ أرجو ألا نكون قد أزعجناك.

كان مليك ابتدأ الحديث، قبل أن يقول مهدي: لقد علمنا صدفة بأنك تقطن هنا أيها العالم. الحقيقة أننا ندرس اختصاصاً جديداً عن أنواع السموم. وبما أنك أفضل مرجع في النباتات السامة، فلقد فضلنا أن نأتي إليك شخصياً ونستفيد منك.

ابتسم كمال لهذا المديح المطنب، وقال بلطف بالغ: أوه! يسرني أن أقدم إليكما جميع المعلومات التي تحتاجون إليها... تفضلا أرجوكما.

ابتعد عن المدخل حتى يسمح لهما بالدخول، ثم أخذهما إلى حجرة على جدرانها ورق قذر وقديم. جلس مليك بحذر على أريكة، فانخسفت لوالبها المكسورة تحته، فنهض بدون أن يثير انتباه العالم الذي كان يبحث في أوراقه. وعندما استدار إليهما رأى مليك يجلس على كرسي الطاولة، لكنه لم يعلق بل دخل في الموضوع الذي أتى من أجله الشابان: هل تقومان بدراسة موضوع معين؟

أومأ مهدي وقال، وقد فكر في إجابةٍ واقعية بسرعة: أجل، نحن نحاول أن نجد تصنيفاً للنباتات الطبية والنباتات السامة.

اتسعت حدقتا كمال، وأنصت باهتمام بالغ إليه قبل أن يشبك أصابعه ويقول كأنه يلقي محاضرة:

ـ لا يمكننا أن نتحدث عن تصنيف دقيق للنباتات الطبية والنباتات السامة، ثمة كثير من النباتاتِ لها قيمة طبية في حالة استعمالها ضمن شروط المراقبة، لكن في بعض الظروف، فإن هذه النباتات ذاتها قد تسبب الإزعاج، أو آلاماً مختلفة، وحتى الموت. فمثلاً، المادة الكميائية ألكلويد في نبتة السورجان أصبحت محل الدراسات والتجارب للعلاج من السرطان، باعتبار أن هذه المادة تمنع انقسام الخلايا، وخاصة الخلايا العصبية. وأيضاً عاكوب الشليم، وهو فطر مجهري، ومنه الشليم، ويسبب اسوداد الحبوب كالقمح والشعير. وهذا الفطر هو مصدر طبيعي للمادة المهلوسة «ل.س.د.»، لكن بعض المستخرجات من هذا الفطر يُستعمل أحياناً للسيطرة على النزف، وآلام الرأس الحادة، إلا أن التناول العشوائي له قد يؤدي إلى أعراض الهلوسة، واضطرابات. وثمة مثال آخر، هو نبتة القمعية، أو ما يعرف بإصبع العذراء، وهو نبتة ليفية من فصيلة

الخنزيريات، تُعتبر مصدراً لدواء القلب، إلا أن مستخرج القمعية يُعتبر مادة سامة جداً، وجرعات إضافية منه تسبب الموت... هل تهتمون بنوع معين من النباتات، لأن الحديث عن النباتات القاتلة طويل جداً؟

ـ أجل، أريد أن أعرف هل تقوم حالياً بدراسة عن أنواع الأمانيت؟

ـ أجل، لقد كنتُ حديثاً في شمال أميركا، وعرضتُ ما توصلت إليه في خلال دراساتي عن الأمانيت.

نهض، وقال لهما: هل تريدان أن تطلعا على مخبري، لديّ عينات كثيرة من أنواع الأمانيت.

أومأ كل من مهدي ومليك، ورافقا العالم إلى مخبره، وهو يتحدث في سياق الموضوع: إن أخطر أنواع فطر الأمانيت هو الفطر السام ذو القبعة البيضاء، وفطر القضيبي الشكل إلى يومنا هذا. لهذا يجب التعامل معهما بحذر، وأنا أنصح الكثير من المبتدئين باستشارة أشخاص ذوي خبرة حتى لا يصابوا بتسمم. فبعض النباتات لا تحتاج إلى أن نأكلها، بل يكفي أن نلمسها لنتسمم بسمها. والنوعان اللذان ذكرتهما قبل قليل، يكفي ثلاثون غراماً من أحدهما، أو نصف قبعة الفطر، لقتل شخص ناضج بكامل صحته.

حالياً، أنا أدرس نوعاً جديداً من الأمانيت قاتل الذباب. سأريكما عينة من هذا الفطر، ثم ننزل إلى مكتبتي التي أحتفظ فيها بعينات أخرى من الأمانيت.

دخل مخبراً مجهزاً بخزانة كبيرة ممتلئة عن آخرها بمواد كيميائية، وعلى كل قارورة زجاجية كُتب عليها اسم ما تحتوي عليه باللاتينية، وكانت توجد طاولة كبيرة من الرخام الأبيض تتوسط المخبر، فوقها قارورات بمختلف الأنواع والأحجام، ثم دنا من علبة زجاجية، يوجد فيها فطر ذو قبعة حمراء، وقال لهما:

ـ أمانيت قاتل الذباب، هو أكبر أنواع الفطر وأكثره تلوناً. كما تريان، فإن قبعته حمراء فاقعة.

ـ هل لديك عينة من الأمانيت السام ذي القبعة البيضاء؟

ـ أجل، لقد درست هذا النوع الشهر الماضي، وحاولت أن أجد خصائص جديدة له.

ـ هل يمكن أن نرى عينة منه؟

ـ أجل، لديَّ عينتان منه في المكتبة.

خرج من المخبر. لاحظ مليك أن كمال لا يغلق

مخبره، وصعد السلالم التي نزلها قبل قليل، ثم مشوا في رواق طويل وانحرفوا يميناً، ووصلوا إلى قاعة ذات باب بمصرعين. وعندما دخلوا، شعر كل من مليك ومهدي بأنهما دخلا غابة كثيرة النباتات. كانت المكتبة عبارة عن معرض لمختلف أنواع النباتات. مشى كمال وقال لهما: اتبعاني، فأنا أحتفظ بالأمانيت السام ذي القبعة السامة في الرفوف الأخيرة من المكتبة.

كان هو يمشي، بينما هما ينظران إلى مختلف النباتات التي كانت تظهر من خلال الأقفاص الزجاجية، ولم تقطع تأملاتهما إلا صرخة أطلقها كمال سناري وهو ينظر إلى شيء على أحد الرفوف. أسرع كل من مليك ومهدي إليه، وقال مليك: ما الذي حدث؟

قال كمال وقد نفر لونه من وجهه، وعيناه لا تفارقان قفصاً زجاجياً فارغاً: عينة من الأمانيت السام اختفت.

صاح مليك بدون أن يستطيع كبت دهشته: ماذا؟ علينا إبلاغ الشرطة، فقد يكون الأمر له علاقة بجريمة قتل حدثت منذ مدة في المنزل المجاور.

* * *

ربت رياض على كتف ليلية، وقال بصوت يكشف عن مدى غبطته وسروره:

ـ إني أهنئك. لولاك لما توصلنا إلى هذه المعلومة التي ستغير مجرى التحقيق جذرياً.

ـ أوه! لست أنا التي اكتشفت أن الأمانيت السام أُخذ من منزل عالم الأحياء كمال سناري. الفضل يعود إلى شقيقي مهدي وابن خالتي مليك في اكتشاف الأمر، وإقناع كمال سناري بإبلاغ الشرطة. لم يكن بالأمر السهل. لقد أخبرني شقيقي أنه لا يحب التعامل مع الشرطة بسبب قضية سابقة تعرض فيها للإهانة، وكاد يُتهم بالقتل.

ابتسم رياض، وقال: لا أعرف شيئاً عن قضيته القديمة، لكنه قدم لنا هذه المرة عوناً كبيراً إلينا لا تمكن الاستهانة به. فشهادته أن أفراد عائلة نسرين اعتادوا زيارته والتحدث معه من باب الملاطفة، كونه رجلاً وحيداً، وطاعناً في السن، خدمت التحقيق كثيراً. وقال إنه اعتاد أن يُري عينات كثيرة من نباتاته لكل من مونية وزوجها وليندة. وذكر أن نسرين زارته ذات مرة مع ولديه في عيد الفطر.

علقت ليلية عابسة:

ـ هذا يقودنا إلى أن القاتل واحد من المنزل المجاور له.

تلاشت البسمة عن وجه رياض، وعادت ملامح الجدية تغلّف تقاطيع وجهه.

ـ أجل، لكن كيف تمكن هذا القاتل من الدخول إلى منزله وسرقة الفطر؟

ـ أخبرني مليك أنه لاحظ أن عالم الأحياء لا يغلق أبواب مخبره، وكذلك المكتبة، بمفتاح أو شيفرة. لهذا، فمن السهل لأي شخص أن يدخل ويأخذ العينة التي يريدها، خاصة إن كان قد رأى ما يريد أخذه وعرف تأثيره.

نظر إليها وكيل الجمهورية وفرك ذقنه بيده، وقال: هذا محتمل. لكن، برغم أننا عرفنا أن القاتل يوجد في منزل العجوز ياسمين، فهذا لا يجعلنا نتقدم كثيراً، فذلك المنزل يعج بالمشتبه فيهم.

أمعنت ليلية النظر فيه، وقالت بصوت رقيق: ستعود إلى كلامي، وهذه المرة ستصدقني، لا يبقى لنا إلا تقفي أثر الدليل الذي أخبرتني به مريم غزلان قبل وفاتها في المستشفى: إن المنزل القديم للعجوز ياسمين يقع في بئر خادم.

تنهد في النهاية، وقال: حسناً، ابحثي عن هذا المنزل.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف، عندما وصلت ليلية بسيارتها إلى انحراف يؤدي إلى بئر خادم. كان الطريق السريع قد تحول إلى كابوس مع ازدحام السيارات التي لا تنتهي. أما بقية المسير فلم تكن مريحة. وأخيراً بعد خطأ في الطريق، وثقب في عجلة، خفضت ليلية سرعة السيارة لمراجعة العنوان الذي دونته في قصاصة ورق، مع إبقاء عين على اللافتات التي كانت تتزاحم قبل الانحراف المؤدي إلى بئر خادم. وبعد ساعة ونصف الساعة من المسير، قال لها مليك:

ـ أعتقد أن هذا هو الحي الذي كانت تعيش فيه العجوز ياسمين.

كان المجمع راقياً نوعاً ما، مع واجهات للمحلات التجارية تطل على الطريق. أما المنازل فكانت في داخل المجمع، ويحيط بها سور طويل.

أوقفت ليلية سيارتها أمام منزل العجوز ياسمين، ونزلت مع مليك. ابتعدت قليلاً عن السيارة وحركت رجليها بعد أن قضت أكثر من ساعة في القيادة. دنا مليك من السور،

وشرع يتأمل ذلك المنزل الذي كان قد اهترأ بفعل الزمن وعدم الصيانة، ونمت حوله الأعشاب، وأصبح أقرب إلى منزل للأشباح. التحقت به ليلية وقالت وقد شعرت بأن هذا المنزل يخفي بين جدرانه وخلف أبوابه مفتاح اللغز: أرجو ألا يذهب هذا التعب سدى.

وبينما هما يقفان يتأملان المنزل، إذ بسيدة من المنزل المجاور تركض نحوهما وتصيح بصوت عالٍ.

ـ لا تقتربا من هذا المنزل... إنه مشؤوم... احذرا.

التفتا إلى صاحبة التحذير التي كانت تخرج من السور الخشبي لحديقة منزلها، وتتجه نحوهما. كانت امرأة قوية ممتلئة الجسم في نحو الأربعين من عمرها، ذات شعر بني بدأ يغزوه الشيب وعينين خضراوين وفم كبير.

ما إن أصبحت بالقرب منهما، حتى قالتْ وهي تسترجع أنفاسها بسرعة:

ـ أشكر الله أنني لمحتكما من نافذة مطبخي قبل أن تدخلا هذا المنزل الملعون... لقد ماتت أرانبي جميعها بسبب هذا المنزل المشؤوم. كل أرنب يدخل هذا المنزل ويعود إلى بيتي، يموت بعد ثلاثة أسابيع. إنها لعنة أصابت

المنزل... أخبروني أن سكان المنزل تركوه بعد أن قُتلت ابنتهم أو قريبتهم. . . أو شيء من هذا القبيل.

وبينما هي تتحدث، ارتفع نظر ليلية إلى ما وراء تلك السيدة، ورأت شاباً نحيفاً شاحباً، له لحية خفيفة، سريع الخطوات يخرج من السور الخشبي ذاته الذي خرجتْ منه المرأة. دنا منهم، وقال وهو يسحب والدته من ذراعيها:

ـ أمي، أرجوك لا تروي هذه الرواية المشؤومة لجميع المارين.

شد أمه بقوة من ذراعها. أوقفته عندها، ليلية وقد التمع فضول غريب في عينيها:

ـ عن أي رواية مشؤومة تتحدث؟

صاحت المرأة:

ـ ليست رواية بل حقيقة، فأي منزل تقع فيه وفاة غامضة يصبح مسكوناً بالأرواح... وأرانبي المسكينة! راحت ضحية لأرواح قادمة من الجحيم.

قاطعها ابنها بلهجة لاذعة:

ـ أمي، أرجوك كفاك هذياناً.

شد هذه المرة بقوة أكثر على ذراعها حتى صاحت من الألم. نظرت ليلية إليه وقالت:

ـ ألا تصدق أن هذا المنزل قد يكون مسكوناً بالأرواح الشريرة... وقد تكون هي التي قتلت أرانب أمك؟

نظر الشاب إلى ليلية بنظرات تذمر، فأمه تحتاج إلى شخص تشعر بأنه يقاسمها اعتقادها فينفجر خيالها الواسع. ترك ذراع أمه وقال بصوت لا ينم أنه يريد الخوض في الحديث أكثر:

ـ إن الأرواح لا توجد، وكل هذا هراء... ربما تناولت الأرانب طعاماً فاسداً، أو عشبة سامة، أو لدغتها حشرة وماتت... كل هذا قابل للحدوث لكن الأرواح لم يثبت العلم الحديث قدرتها على القتل عن طريق قوى خارقة... ثم إن أرواح الميتين لا تستطيع أن تخرج من البرزخ. أين تذهب عندما تغادر جسد الإنسان.

أومأت ليلية برأسها في إشارة إلى أنها لا تريد إزعاجه أكثر، لكن بدلاً من أن يسحب أمه إلى المنزل، استدار إليهما وقال وقد نال منه الفضول:

ـ هل يمكنكما أن تخبراني من أنتما؟ ولماذا أتيتما إلى هذا المنزل؟

ـ أقدم نفسي، قاضية التحقيق، وأنا أحقق في جريمة قتل، لها علاقة بجريمة أخرى ارتُكبت في هذا المنزل.

ارتجف الشاب، وقال وهو يفتعل سعلة قوية:

ـ يا إلهي... إن هذا رهيب... لقد مرتْ فترة طويلة لم يأت أحد إلى هنا. هل تحققين في جريمة مقتل ابنة صاحب المنزل، أو قريبته، أو شيء يشبه هذا؟

أومأت ليلية بدون أن تبدي رغبة في إعطاء المزيد من المعلومات، ففتح فمه بحذر ونبس:

ـ ألم يكن الإرهابيون هم الذين قتلوها؟

التفتت الأم إلى ابنها، وحدقت فيه بنظرات غاضبة:

ـ أكنتَ تعرف هذا كله، ولم تخبرني؟

بدا أن الشاب ارتبك بسبب تصرف والدته التي ضربته على كتفه، فارتسمت دائرتان حمراوان على خده، وقال متعلثماً:

ـ لا أعرف شيئاً... بل سمعت ذات يوم أشخاصاً يتحدثون عنها في المقهى. ثم إن الأمر كان مجرد مقطع من الحديث.

توقف عن الكلام للحظة. ظهر أنه كان يناقش شيئاً في عقله... ثم قال، وبدا أنه حسم الأمر وقرر أن يبوح بشيء ذي قيمة: ثمة شيء غريب في المنزل.

ارتفع حاجب ليلية، دلالة على التعجب، وقالت بحذر:

ـ ماذا تقصد؟

ـ قبو هذا المنزل معالَج بمادة الثاليوم. إن أرانب أمي ماتت متسممة بالثاليوم.

نظر الجميع إليه باستغراب، وسألت ليلية وقد اشتعل الفضول في داخلها:

ـ ماذا تعني بهذا؟

ـ لا أدري، لكن أقسم لكِ، إنني لم ألمس شيئاً. وأقسم إن الكمية قليلة جداً. ربما كان أحدهم يحتفظ بها هناك، لشراء شيء، مثل قيثارة كهربائية، أو سيارة صغيرة.

بدا أن الفضول وصل إلى ذروته، حيث إن ليلية صاحت بدون أن تشعر: ماذا تقصد؟

أسرع إلى منزله مهرولاً، وأحضر شيئاً في يده. وعندما عاد إليهم، تبين أنه يحمل في يديه ثلاثة أقنعة للأنف مثل التي يضعها الطبيب على فمه وأنفه عندما يقوم بعملية جراحية، وأعطى كلاً من ليلية ومليك واحداً، ثم قال لهما:

ـ البسا هذا، إنه قناع الأنف، وسأريكما ما رأيت.

لبست ليلية قناع الأنف وكذلك مليك، ودخلا برفقته المنزل، واضطرا معه إلى المرور عبر نباتات متداخلة الساقين. عندما وصلوا إلى خلفية المنزل، رفع ذلك الشاب غطاء باب أرضي يؤدي إلى قبو المنزل

دخلوا قبواً مظلماً، ونزلوا السلالم بحذر. وفي تلك الأثناء، أشعل الشاب مصباحاً يدوياً، فرأوا حزماً من النقود مرتبة على زاوية الأرضية. قال الشاب بصوت مخنوق وهو يشير إلى طبقة الغبار التي كانت تغلف الأرض.

ـ أتريان الطبقة الموجودة بالقرب من حزمة النقود، وتلك الموجودة هناك في تلك الزاوية إلى يساري، إنها أرفع من تلك الوحيدة في الزاوية إلى يميني، هذا يعني أنه كان

ثمة مبلغ من المال هنا. وإذا رأيت الحائط، ومستوى الغبار الذي وصل إليه، حيث المنطقة العليا من الغبار أسمك من المنطقة السفلى، وبما أن جميع الأوراق النقدية الموجودة هنا من فئة ٥٠٠ دينار، فأرجح أن المبلغ كان... نعم... مليارين ونصف المليار.

انحنى مليك، ومرر يديه على الغبار الذي كان يملأ الأرضية. أطلقت ليلية زفيراً عميقاً، وأخرجت هاتفها واتصلت برياض، وقالتْ له بمجرد أن رد عليها: يجب أن تأتي بسرعة إلى المنزل القديم مع فرقة من رجال الشرطة الجنائية. ثمة الكثير لتراه... أعتقد أنني وجدتُ أين كان سمير يخبئ الأموال التي كان يسرقها في الماضي.

بعد نصف ساعة من مكالمة ليلية، حضر رجال الشرطة الجنائية، ومعهم رياض الذي بدا متشوقاً إلى رؤية ما توصلت إليه. صافح مليك بحرارة وتقدير بالغ، فهو لم ينس ما قدمه هذا الشاب صاحب الوجه الهادئ والمبتسم، من عون لاكتشاف مصدر الفطر السام.

ألقى نظرة فاحصة وقصيرة على القبو، ثم نظر إلى ليلية نظرة ذات مغزى، ففهمتْ الإشارة، وخرجا معاً إلى الحديقة ورافقهما مليك.

نزع رياض القناع عن أنفه، ثم تريث قليلاً. زم شفتيه وقال:

ـ هل اتصلت بالسيدة ياسمين؟

ـ أجل، وستحضر مع مروان إلى مكتبي بعد أن نرى ماذا يمكننا أن نجد في هذا القبو العفن.

تريث رياض قليلاً قبل أن يقَول وهو يفكر:

ـ هل أصبحتْ تشعر بالأمان مع مروان. ألم تخبريني أنها اتهمته مرة بالسرقة؟

التفتت إليه وقالت وهي تشعر بأن هذه القضية أشبه بكومة خيوط متشابكة مع بعضها البعض:

ـ سمير الذي كان يُعوَّل عليه وقت الشدة، ما زال يتعافى من الانهيار العصبي... وفي حالة سمير السيئة، لا يبقى رجل في البيت إلا مروان.

أطبق رياض أصابعه في قبضة قوية، وكان الحنق يلمع من عينيه:

ـ سمير، سمير، لقد سئمت أن أرى يديّ مكبلتين. فهذا اللعين يخفي الكثير. أعتقد أن علينا استجواب زوجته،

ونحاول أن نعرف ما الذي سبب له الانهيار العصبي... برغم أن في تلك المرأة قوة ... فبسببها أُصيبت العجوز ياسمين بنزف دماغي أقعدها في كرسي متحرك.

ـ أخبرتني ليندة أن ليلى تمارس عليه نوعاً من السيطرة، الأمر يشبه الصلصال في يد الحرفي. إنها تحركه كما تشاء... كما يفعل الحرفي بالصلصال. فإن أراد أن يجعل منه مزهرية، كان الأمر كما يريد. وإن أراد أن يجعل منه صحناً، فعل به ذلك.

ـ لكن لا يبدو سمير خاضعاً لليلى. إنه يبدو صاغراً تحت قدمي العجوز ياسمين؟

ـ إنها تمارس نوعاً من السيطرة عن بُعد. إنها امرأة قوية، تحرك زوجها كلعبة الدمى المتحركة. خيوط اللعبة في يدها، لكنها لا تكشف للجميع ورقتها الرابحة.

استمع إليها بانتباه، وأطلق زفرة عميقة، ثم قال مطرقاً:

ـ ربما لهذا السبب رفضت العجوز ياسمين أن يتزوج بها سمير. فهي لا تريد امرأة غيرها تشاطرها السيطرة.

ـ ربما، لكنها لن تمارس السيطرة بعد الآن، فزوجها سيُزَج به في السجن.

رفع عينيه نحوها:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لقد أخبرتني ليندة، أنه قبل أسبوع من مقتل مريم غزلان (نسرين الحقيقية)، حدث شجار بين مريم الحقيقية وسمير. قالت لي إن مريم الحقيقية اتهمت سمير بسرقة أموال جدتها... يبدو أن مريم هذه تتمتع بعيني الصقر. فسمير محاسب، ولا أظن أنه سيترك شيئاً يدينه في دفاتر المحاسبة... لكن الآن، عرفت كيف اكتشفت سرقته. لقد أخبرتني ليندة أن مريم الحقيقية أرادت تطهير القبو من الجراد بوضع الثاليوم. وبعد أن أنهت عملها، بحثت عن سمير وكانت في أوج غضبها، وحدثت المشاجرة التي أخبرتك عنها.

ـ أتقصدين أن سمير كان يُخفي المال في القبو، وأن مريم عندما نزلت لتطهيره من الجرذان اكتشفت النقود، وعرفت أن سمير كان يسرق جدتها.

ـ أجل.

ـ لكن يبقى شيء قبل أن نترك هذا المنزل، ونحقق مع سمير: أين الدليل الذي جئتِ تبحثين عنه.

ـ الشرطة تبحث عنه، أرجو ألا تكون قد قصدت هذه الأموال، فهذه الأموال لا تحل الغموض الذي يلف الجريمة.

مر ربع ساعة والشرطة تبحث في القبو. وفي هذه الأثناء، خرج شرطي، وفي يديه كيس بلاستيكي شفاف، في داخله سكين ملطخ بدم جاف.

نظرت ليلية إلى السكين، وقالتْ بدون أن تشعر:
وأخيراً، رأيت الدم في هذه الجريمة!

الفصل الثاني عشر

الألغاز القديمة

دخلت ليلية مكتبها فوجدتْ العجوز ياسمين بوجهها يفيض قلقاً. شعرتْ من جديد بأنها لن تأخذ شيئاً من هذه العجوز المخادعة. وقالتْ مباشرة بعد أن كانت شرحت لها في الهاتف السبب من استدعائها:

ـ هل كنتم تستعملون القبو طوال فترة إقامتكم في منزلكم في بئر خادم؟

تحركت العجوز ياسمين بإعياء في كرسيها، كأن هذا النوع من التفتيش الذي تعرض له منزلها لم يرق لها.

ـ لا، لقد كانت في المنزل غرف كثيرة، وجعلت بعضها مخزناً للأغراض التي كنتُ في غنى عنها. لهذا، لم نكن نستعمل القبو.

ـ هل حدث يوماً أن استعنت بشركة لتنظيف القبو من الجرذان، أو هل تطوع أحدكم لتطهيره منها؟

ـ أجل مرة، قامت بالأمر مريم.

قالت ليلية متأنية: حقاً! هل اقترحت ذلك من نفسها، أم قام شخص باقتراح ذلك؟

فكرت العجوز ياسمين ومررت لسانها على شفتيها الشاحبتين، ثم رفعت بصرها أخيراً بعينين فيهما أثر لا يكاد يُرى من المراوغة:

ـ لا أتذكر، لكن مريم أخبرتني ذات يوم أنها قامت بشراء دواء لقتل الجرذان، ونزلت بعد ذلك إلى القبو.

قالت ليلية بهدوء: هل عارض أحدهم؟

ـ لم تستأذن أحداً.

قالت ليلية مسرعة: هل كان أحدهم يستعمل القبو... أقصد لأغراض معينة، غير رمي ما هو غير صالح؟

أجابت عابسة: لا، بحسب علمي.

قالت ليلية مسرعة:

ـ لقد اكتشفنا أن القبو كان يُستعمل لتخبئة مبلغ كبير من المال، وأعتقد أن مريم اكتشفت هذه الأموال.

رفعت العجوز ياسمين حاجبيها مندهشة:

ـ هل تقصدين أن مروان اكتشف أن مريم عرفت مخبأ الأموال التي يسرقها، فقتلها؟

ـ ليس لدينا أي دليل حتى هذه الساعة يُدين مروان. لكن، لماذا تشكين في مروان. هل ضبطته مرة يختلس أموالك؟

أشاحت بعينيها عن النظر إليها، وأجابت:

ـ لم أضبطه متلبساً. لكن ذات يوم، تركت الخزنة مفتوحة، وعندما عدت رأيت مروان في الرواق بالقرب من الحجرة التي توجد فيها الخزنة، ثم اكتشفتُ أن عدة حزم قد اختفت منها. أردت أن أبلغ الشرطة، لكن مونية أتت تبكي وتوسلت إلي.

ـ حسناً، أريد الآن أن تعودي بذاكرتك إلى الماضي، وتجيبيني: هل تتذكرين إن حدثت مشاجرة بين سمير ومريم غزلان (الحقيقية) قبل أسبوع من حصول المأساة في ١٩٩٥؟

كانت على وشك الاعتراض، لكنها اكتفت بالقول:

ـ لا أدري، لا أملك ذاكرة الفيل.

ـ حقاً!

ارتسم على ملامحها شيء من القسوة وظلّ الكبرياء، وصاحت:

ـ هذه إهانة أيتها القاضية.

إلا أن ليلية لم تترك لها فرصة للاعتراض، وقالت لها بصوت قوي:

ـ هل تعلمين بأن سمير كان يختلس الأموال، وأن الحزم الموجودة في القبو هي الأموال التي كان يختلسها من شركتك، ولم يشأ أن يضعها في البنك كي لا يُكتشف أمره..

اصفرَّ وجهها وابتلعت ريقها، ونادت على مروان ليأخذها.

* * *

تبادل كل من ليلية ورياض نظرات ذات معنى بعد أن اطلعتْ ليلية على تقرير المعمل الجنائي الذي أعطاها إياه رياض، ثم قالتْ:

ـ بصمات أصابع نسرين غزلان على مقبض السكين، ودماء سمير فارس على الجزء الحاد منه، إن هذا مثير!

ـ أجل، إن هذا دليل على أن نسرين طعنتْ سمير. لكن، متى وكيف. وإن كانت مريم غزلان الحقيقية أخبرتك أن هذا السكين دليل على إدانة القاتل الحقيقي لشقيقتها... فهذا يعني أن القاتل هو سمير فارس.

توقفت لحظة ليلية وقالتْ: هل ستصدر أمراً باعتقاله.

ـ أفضل أن نستجوبه قبل كل شيء ونصارحه بالأدلة التي في أيدينا. أعتقد أنه سيكون له جواب مقنع.

ـ هل تشك في أنه ارتكب الجريمتين. كان يجب أن نفكر في أنه هو القاتل. فالجميع كان يعلم بأنه قبل أسبوع من مقتل مريم (نسرين الحقيقية)، حدث شجار بين مريم وسمير حول اختلاسه أموال جدتها. كنا قد وصلنا إلى أن مخاطرة حمل الجثة لرميها في الجبل مبالغ فيها، وأن ثمة شخصاً كان سيُتهم مباشرة لو عُثر عليها مقتولة. لكن يبدو أننا لم نستمر في هذه الطريق. لقد أضعنا بعض الوقت، لكن في النهاية، نحن نملك أكثر من دليل... لقد كان سمير.. لو ركزنا قليلاً لأمسكناه منذ البداية، فهو الذي

كانت ستدور حوله الشكوك إذا ما قُتلتْ مريم غزلان، وخاصة أنهما تشاجرا قبل أسبوع من ذلك.

ثم نهضتْ من كرسيها، وقالتْ بحماسة كبيرة:

ـ لقد كان الجواب في المسرحية. ففي المسرحية يقتلها خطيبها: شخص يكنّ مشاعر الحب لنسرين. أما في الواقع فنسرين (مريم الحقيقية) متزوجة، وزوجها لم يكن يشعر بأي شيء نحوها. هو أخبرنا أنه يشك في وجود معجب كان يراسلها سراً، واكتشفنا في ما بعد أنه سمير.

ـ لا تنفعلي كثيراً يا ليلية، فقد يكون لسمير ما يقول، وقد يدحض هذه الأدلة كلها.

أطفأت هذه الكلمات وهج الحماسة لديها، وبقيت تنظر إلى رياض وهي تفكر، ثم حملت معطفها، وقالت: سأتأكد بنفسي.

* * *

أغلقت ليندة الباب على سمير الذي نام كطفل صغير بعد أن ناولته الدواء، ثم نزلت إلى حجرة الجلوس في الطابق الأرضي، ودخلت بهدوء، وجلست قرب ليلى التي كانت تتظاهر بقراءة كتاب وهي جالسة على كرسي هزاز.

نزعت ليندة الكتاب من يديها، وقالت لها: ما الذي يحدث يا ليلى؟ ثم مشت نحو المكتبة الصغيرة، ورتبت الكتاب، وجلست بالقرب من ليلى، وقالت لها وهي تحاول أن تنظر في عينيها:

ـ ما الذي يحدث؟

انتفضت ليلى من مكانها. كان يبدو من «فركها» القوي لأصابعها أنها في قمة توترها: ماذا تريدين أن تعرفي يا ليندة؟ لقد انتهى كل شيء... الجميع كان على علم، وأنا كنتُ المغفلة والغبية طوال الوقت.

استدارت ونظرت إلى ليندة بحقد: كنتِ تعلمين أنتِ أيضاً.

قالت لها: ما الذي أعرفه؟

ـ أن سمير ومريم كانا على علاقة.

أشاحت ليندة بنظرها عنها، وقالت متلعثمة: أ... أنتِ... ليس الأمر...

ـ كفاكِ نكراناً... لقد عرفت بالأمر، وبعد هذا كله، تريدين أن أصعد وأرى كيف حال ذلك المخادع.

تشجعت ليندة وقالتْ: هل حقاً كنتِ تجهلين أن سمير كان يتراسل هو ومريم؟

ـ أجل، وكم أنا حمقاء يا ليندة... أشعر بأنني أؤدي دور الأحمق الذي يكون دائماً آخر من يعلم.

ـ لا أصدقكِ يا ليلى... لا أدري، لكن شيئاً في داخلي يقول لي إنك كنتِ تعرفين بعلاقة سمير ومريم غزلان من قبل... ومن أجل هذا قتلتِها، ألستُ محقة؟

جفلت ليلى، وقالت لها: وماذا أقول عنك... بعد أن رأيتُ صورة لتلاميذ قسمك في تلمسان... واحزري من كان يجلس خلفك... مريم غزلان!

انتفضت ليندة، وقد شحب وجهها شحوب الموت، وقالت وشفتاها ترتعدان: هذا ليس صحيحاً... إنها مجرد صدفة.

ـ إذاً، يا لها من صدفة عجيبة يا عزيزتي، أن تكون مريم غزلان زميلتك في المدرسة، وبعد سنوات عدة تأتين لقتلها... هنا.

ـ هذا غير صحيح... إنك تريدين إلصاق التهمة بي، لكن لن تنجحي.

فجأة، سمعتا صوت حركة خلف باب الحجرة التي كانتا تتحدثان فيها. أسرعت ليندة إلى الباب، وفتحته بقوة، لكن شخصاً ما كان قد فر بعيداً.

ـ هل تعتقدين أن أحداً كان يتجسس علينا؟

ابتسمت ليلى، وهي تتجه نحو الباب، وقالت بكل برودة: من جهتي، لن أقلق، فلا توجد لي صورة مع مريم غزلان...

ثم ضحكت ضحكة ساخرة، وغادرت، بينما بقيت ليندة تجتر الهم والقلق.

قبل أن تغادر ليندة الحجرة، سمعت صوت سيارة قادمة نحو المنزل، فاقتربت من النافذة، وأزاحت الستار ببطء، وقالتْ في سرها عندما رأت سيارة ليلية تمر في ممر الحديقة: ما الذي أحضر هذه المرأة المتطفلة من جديد؟!

نزلتْ إلى الطابق الأرضي، وعندما وصلت إلى الباب كانت ليلية قد طرقت طرقتين. أسرعت ليندة وفتحت وقالت: هل أتيت من أجل سمير، إنه نائم... ولا أظن أنه تعافى بالقدر الذي يتحمل فيه أسئلتك الفظة.

ـ سيكون الاستجواب لمدة قصيرة... لدي معلومات خطيرة، ويجب أن أتأكد منها.

ـ مزيد من الأسئلة؟ لقد أجبناك حتى الآن عن كل شيء يمكن تصوره.

ـ سأكون مسرورة إن صعدتِ تستأذنين من السيد سمير فارس، ثم تعودين وترشدينني إلى غرفته..

احمرَّ وجهها، وبدا عليه شيء من الغضب.

ـ حسناً... أنتم أهل القانون لا تعرفون الرحمة.

ـ أنا أعترف.

صاح سمير بصوت هستيري. كان أثر التعب بادياً على وجهه. الهالات السوداء تغطي منطقة ما تحت العين، ووجهه استنزف الإرهاق نضارته كلها. كان يتحدث وهو يقبض بشدة على يديه، كأنه يريد أن يشد أعصابه. نهض من سريره وأخذ يدور في الغرفة كالمجنون:

ـ لم أعد أحتمل... لقد بلغ بي الأمر منتهاي. أقسم إنني مفتَّت كحبة قمح، بل أسوأ... أجل... لا أحتمل. إن كل شيء يتعقد.

تمالكت ليلية أعصابها. كانت تعرف كيف يكون المرء عندما يصبح في حالة اعتراف:

ـ إذاً، أنت تعترف بأنك قد اختلست أموال خالتك ياسمين، وأن مريم غزلان الحقيقية قد اكتشفت أمرك ثم قتلتها، لكن أخطأت في الهدف، وقتلت شقيقتها.

جمد سمير في مكانه، ونظر بعينين جاحظتين إلى ليلية. كان يبدو مرعوباً، وصاح بشدة:

ـ لم أقتلها... لا، لم ألمس شعرة من جسدها.

ـ ألم تقل إنك تعترف؟

ـ بلى... أعترف بأنني مختلس ولص حقير، ولم أكن أميناً على أموال خالتي، وأن مريم اكتشفت ألعابي، لكني لم أقتلها... أقسم بذلك.

ـ ومن قتلها إذاً؟

صمت، وأشاح ببصره عنها.

ـ إذاً، أنت تعرف... وترفض إخباري؟

. لا أعرف شيئاً.

ـ بلى، تعرف أكثر مما تدعيه.

ثم أخرجت الرسالة التي أعطتها إياها العجوز ياسمين، وقالت له: هذه الرسالة أرسلتَها إلى نسرين غزلان (مريم الحقيقية)، طلبت فيها أن تنسى ما حدث لشقيقتها. ويبدو من الرسالة أنك أنتَ وهي كنتما تعرفان عن الجريمة الكثير.

دفعت بالرسالة إليه، فلمسها باستياء واضح كأنه لم يرفعها. احمر وجهه قليلاً وزم شفتيه:

ـ لا أعرف شيئاً... ولا أتذكر أني كتبت هذه الرسالة.

ـ عثرتْ الشرطة على سكين في قبو المنزل القديم في بئر خادم الذي اعتدت أن تخفي فيه الأوراق المالية. أخبرتني مريم غزلان الحقيقية أنه دليل يكشف لنا هوية القاتل، والمخبر أثبت لنا أن الدماء الموجودة على السكين هي دماؤك، ووجدنا على مقبضه بصمات نسرين غزلان.

ـ أجل، لقد طُعنتُ بالسكين، لكن ليس نسرين غزلان من طعنني.

ـ لكننا وجدنا على مقبض السكين بصماتها.

ـ أنا الذي أمسكت يدها وجعلتها تضغط على السكين، بعدما مسحته من البصمات الأصلية.

بقي فمها فاغراً، وقالت بصعوبة:

ـ من صاحب البصمات الأصلية؟

ـ حدث هذا كله بعد فوات الأوان. كان يوم العطلة، الجو مشمس، خرج الجميع ليتفسحوا ويستغلوا نضارة الجو. كانت نسرين ومريم في المنزل. نسرين تعاني الرشح... أجل، أتذكر كيف كانت عيناها حمراوين من كثرة «العطس»... عدت إلى المنزل مبكراً، ثم خرجت لشراء سيجارة. وعندما دخلت المنزل، وجدت نسرين ملقاة على الأرض، وإلى جانبها كوب متكسر... كان عليّ ألا أغادر... لقد عرفت أن الأمر سيتطور إلى القتل... كنت أدرك ذلك... لكن، لم أستطع فعل شيء. فقدت أعصابي، تشاجرت مع القاتل، وطعنني بالسكين قبل أن يتمكن من المغادرة. وعندما أتت مريم، ظننتُ أنها نسرين، فالشخص الذي كان مرمياً أمامي كان يرتدي معطف مريم. رأتني مجروحاً في بطني، وشقيقتها ممددة. بقيت جامدة، وأخذت تصرخ. أخبرتها أن الأمر، كله حادث، وأن لا دخل لي. طلبتُ منها ألا تخبر أحداً. نقلتُ الجثة إلى الجبل، وقدمنا بلاغاً

باختفاء مريم غزلان. كنت أعتقد أنها هي. كانتا متشابهتين، لكن، كان عليّ أن أكتشف الحقيقة. فلو كانت نسرين، لما سكتت عما رآته. فمريم كانت تحبني، وكنت أعرف أنها مستعدة لفعل أي شيء من أجلي.

ـ إذاً، بحسب ما فهمته من غمغمتك، أنك دخلت، ووجدت مريم (نسرين الحقيقة) مرمية على الأرض. تشاجرت حينها مع القاتل، فطعنك بالسكين، ثم هرب. وعندما أتت نسرين غزلان (مريم الحقيقية)، ورأت الدماء تغطي بطنك، وشقيقتها جثة ممددة على الأرض، ظنت أنك أنت القاتل. لنقل إن الظروف جعلتها تعتقد كذلك. لكن، ألم تخش أن تبلغ في ما بعد نسرين (مريم الحقيقية) الشرطة؟

ـ لا أدري، كنت في تشوش رهيب.

لاحظت ليلية في صدغه تلك العضلة التي تنتفض، والرعشة الخفيفة في يديه الطويلتين الناعمتين. نظرت إليه، ثم قالت بصوت هادئ بكل ثقة:

ـ لا، كنت تدري. كنت تستطيع أن تميز بينهما. فمنذ قدوم مريم إلى المنزل، سلبت قلبك. كانت تشبه نسرين، لكن بعقلية مختلفة. لم تستطع أن تنال نسرين بسبب عجرفتها، لكن الله بعث إليك نسخة أخرى بعقلية مختلفة.

كنتَ تدرك أن ذلك الشخص الذي كان واقفاً أمامك، لم يكن إلا مريم، لكنك لم ترد أن تكتشف الحقيقة، وكنت تدرك أنها لن تفعل شيئاً قد يضر بك، فهي برغم اكتشافها اختلاساتك، وبرغم تظاهرها بإخبار جدتها، إلا أنها لم تقم بأي خطوة مما قالته... بقي شيء آخر، هل الشخص ذاته قتل أيضاً نسرين (مريم الحقيقية)؟

اكفهر وجهه وهو يصيح:

ـ لا أدري، ولن أخبر أحداً.

لكن، لم يكن يبدو أن ليلية قد أتت لتخرج فارغة اليدين، فاندفعت تقول:

ـ من يكون هذا الشخص الذي خاطرت من أجله بحياتك، وصعدت إلى جبل يعج بالإرهابيين؟ من يكون هذا القاتل الذي تتستر عليه؟ ألا تدري أن التستر على مجرم جريمة يعاقب عليها القانون؟

قال سمير منفعلاً:

ـ لن أقول شيئاً. وإذا أردتم سجني فافعلوا ذلك.

ـ هل يهددك، هل تخشاه؟ نحن مستعدون لحمايتك.

ـ لا.

صرخ صرخة كأنها قادمة من الجحيم، فحاولت ليلية تغيير الموضوع، فسألته:

ـ أخبرني، هل كنت أنت من يضع مزيل طلاء الأظافر في قهوة نسرين (مريم الحقيقية) بعد مقتل شقيقتها؟

هدأت ثورته قليلاً، وقال:

ـ أجل، لقد أردت لها أن تنسى، وأن تعيش حياتها، بدون أن تفكر في ما حدث.

ـ هل أنت أيضاً من اخترع تلك الكذبة عن رسائل التهديد التي تلقتها مريم الحقيقية من الإرهابيين؟

ـ أجل.

ـ أخبرني ماذا كنت تفعل عندما دخلت غرف الكواليس.

ـ عندما حانت فترة الراحة، أسرعتُ إلى غرف الكواليس. كنتُ أريد أن أتحدث مع نسرين، فلقد أرسلت إلي رسالة، وطلبت مني ألا أقتلها. لم تكن لتصدق أنني لست قاتلها، لكني شعرت بمروان يتبعني، فدخلت إحدى الغرف، ثم سمعت امرأة تركض، ثم خطوات رجل يغادر

الرواق، وعدت سمعت من جديد صوت كعب عالٍ... وبعدها، سمعت صوت نسرين وهي تذهب إلى غرفة التزيين. كان الظلام حالكاً. أمسكتها، قالت لي أن أدعها وشأنها، ثم صفعتني، فخرجت ولم أستطع أن أتحدث معها...

فجأة، دخل رجل في الأربعين من عمره بسرعة، وصاح بفظاظة وغضب:

ـ من سمح لكِ باستجوابه. إنه في حالة انهيار عصبي... لا تستطيعون استجواب شخص مصاب بحالة نفسية منهارة.

نهضت ليلية من مكانها، ورأت ليندة من خلف الطبيب، وهي ترسل ابتسامة ماكرة.

* * *

اقتربت فريال من ليلية وهي متكئة على مكتبها، ووضعت أمامها فنجان الشاي:

ـ كيف كان يومك؟ أما زلت تحققين في قضية نسرين غزلان؟

ـ أجل، لقد استجوبت اليوم، أحد أكبر المشتبه فيهم.

كان في حالة نفسية سيئة جداً، وضغطت عليه كثيراً حتى يتحدث.

ـ ما كان عليك أن تضغطي عليه إن كان في حالة انهيار عصبي، وأخشى ألا يُعتمد على أقواله إذا تبين إنه لم يكن في كامل وعيه عندما أدلى بشهادته.

ـ أعلم بأنه يخفي شيئاً...

ـ لن تصبح المعلومات مهمة، إذا أُثبت أن قواه العقلية غير سليمة، وأخشى أن تكوني بذلك تخسرين طرف خيط مهماً.

تناولت فنجان الشاي، وجرعت منه جرعات متتالية، فخفت حدة القلق التي كانت تطبع وجهها.

ـ إنه يعرف القاتل. هل تريدين مني أن أبقى صامتة؟ أنت لم تري كيف كانت تلك المرأة ترتجف في الطائرة، وكيف كانت تبكي؟ بسبب أناس يقتلون من أجل المتعة... أو من أجل أغراض تافهة.

ـ إني أتفهم. من الصعب أن نكون في مهمة لإنقاذ شخص، ثم نفشل في هذه المهمة، لكني أرى أن تتركي طريق هذا المشتبه فيه، وتفتشي في طريق آخرى.

ـ إنه مستعد لأن يتستر على هذا الشخص بالقدر الذي خاطر فيه بنفسه، وصعد إلى الجبل كي يلقي بالجثة هناك، حتى تظهر هذه الجريمة بمنظر عمل إرهابي. كان علي أن أنصت إلى جملة قالتها الممرضة ليندة «شخص مستعد للتضحية بنفسه من أجل إنقاذ نفسه». يبدو الأمر غير منطقي.

ـ من هو الشخص الذي من أجله سيفعل المستحيل؟

ـ هذا هو مفتاح اللغز.

ـ إذاً، احتمال أن يكون هو القاتل غير ممكن.

ـ لا أدري، لكني شعرت بأنه صادق. لقد استجوبت في حياتي عشرات الأشخاص المتهمين في قضايا القتل، وأستطيع أن أخبرك من فيهم كان يكذب، ومن كان صادقاً. لقد كانت مريم (الحقيقية) متيقنة من أنه هو، لكن إدراكها المشاعر التي يكنها لها، كذّبت كل ما رآته في ذلك اليوم اللعين. لكنها أخطأت، فهو أيضاً كان يتستر على شخص آخر، لكنه هذه المرة يتستر على الفاعل الحقيقي، لأنه رآه.

ـ في هذه الحالة، عندما أخبرك بأنه لم يقتل، شعرت بأنه صادق؟

أومأت ليلية بدون أن تكون قادرة على إعطاء إجابة واضحة.

ـ إذاً، ستعيدين التحقيق من البداية..

ـ لا أدري، سأتمهل يومين من أجل سمير كي يفكر في الأمر بطريقة جدية، ثم أعاود استجوابه. وإن لم يعترف، سأسجنه بتهمة التستر على مجرم.

كان الغد يحمل أحداثاً جديدة. اتصل رياض بليلية، وطلب منها الحضور إلى مكتبه بسرعة. وعندما وصلت، وجدت رياض في أوج توتره وقلقه:

ـ ماذا فعلتِ له حتى ينتحر؟

ـ من تقصد؟

ـ سمير! لقد انتحر مساء البارحة. كان الجميع يتناولون عشاءهم، عندما سمعوا طلقاً نارياً في الأعلى، وهرول الجميع إلى فوق، وعثروا على سمير ممدداً على الأرض، وثقب في صدغه الأيمن.

ـ يا إلهي، لقد كان حقاً في حالة انهيار عصبي.

ـ هل ذهبت البارحة إليه؟

أومأت ليلية برأسها، وأضافت قائلة:

ـ كان يعرف القاتل، ولم يرد أن يخبرني...

ـ زوجته في حالة قصوى من الغضب والحقد. إنها تتهمنا بأننا تسببنا في انتحار زوجها.

ـ هل ترك سمير رسالة؟

ـ أجل.

قدمها إليها. أمسكتها بتردد، وقرأتها:

«لا أحد له الحق في أن يحكم على ما فعلتُ. لقد فعلتُ ما كان يجب أن أفعله منذ فترة طويلة. لست نادماً، ولن أندم يوماً على أنني أتستر على قاتل نسرين ومريم، لكن، ليعلم هذا القاتل ما لم أستطع أن أقوله له: إنه قتل الإنسانة التي كنت أعيش من أجلها».

أعادتْ ليلية الرسالة إلى رياض، وهي تبلع بصعوبة ريقها.

ـ لم أكن أدري حقاً أن سمير في حالة انهيار عصبي. لقد ظننت أنه يمثل حتى يُعفى من الاستجواب.

ـ حسناً، لقد ظهر أنه لم يكن يمثل. بل أكثر من ذلك، لقد انتحر ليثبت لكِ أنه لم يكن يمثل.

ـ هل سيطالبون بتعيين قاضي تحقيق غيري كي يتولى التحقيق في القضية؟

ـ حتى هذه الساعة، لم يقرروا شيئاً. لكن تأملي لدقيقة واحدة، هذه الرسالة. سمير يقول إنه ليس نادماً على التستر على قاتل مريم ونسرين. ألا ترين أنه يعترف بطريقة ما بأن الأمر يتعلق بقاتل واحد وليس شخصيين مختلفين؟

ـ أجل... وشيء آخر صريح في الرسالة، أن سمير تربطه بالقاتل علاقة ما. لا أدري ما يمكن أن تكون هذه العلاقة، لكنها تجعله عاجزاً عن إبلاغ الشرطة بما حدث فعلاً.

ـ أيمكن أن تكون علاقة عمل. أقصد أنه كان يخشى أن يخسر مصدر رزقه إن أبلغ الشرطة بما حدث... وأعني هنا خالتها..

ـ لا أعتقد أنها خالتها، فسمير أخبرنا أنه عندما دخل وجد مريم (نسرين الحقيقية) ملقاة على الأرض. تشاجر مع

القاتل، وطعنه هذا الأخير بالسكين، والعجوز ياسمين مشلولة.

عندما ذهبت ليلية إلى مكتبها، وجدت ظرف مغلف بدون أن يوجد فوقه عنوان أو طابع بريد... فقط جملة «إلى قاضي التحقيق ليلية إسعد». فتحته فوجدتْ فيه صورة التُقطت لتلاميذ المدرسة مع معلمتهم. أخذتْ تنظر إلى صور التلاميذ، فرأت صورة ليندة. وعندما رأت الشخص الذي كان جالساً أسفلها، جحظت عيناها، وصاحتْ: يا إلهي، أيعقل؟

نادت بسرعة كاتبتها، وسألتها: من أحضر الرسالة.

ـ لقد وجدتها في علبة الرسائل في الخارج. أعتقد أن أحدهم حضر إلى هنا، ووضعها مباشرة في العلبة. فلا يوجد عنوان عليها.

الفصل الثالث عشر

سر القبو

دخل مليك غرفة ليلية بخطوات صامتة وثابتة.

ـ كيف حالك يا عزيزتي؟

كان في الجدار مصباح مشتعل، ناثراً ضوءه على صور متناثرة فوق مكتبها. كانت ليلية ترتدي نظارات وتدقق في الصور التي حصلتْ عليها من ليلى مصباحي ومن المصورين الذين غطوا عرض المسرحية.

جلس مليك على الكرسي الذي كان أمام المكتب، وأبعد عنها الصور.

ـ أما زلت تبحثين عن القاتل؟ لقد كان سمير. الجميع فسر سبب انتحاره بتأنيب الضمير. لقد قتل شخصين. أتدرين ما معنى أن يقتل قريبتين له؟

ـ لا أدري، لا أريد تصديق ذلك. لم تره عندما واجهته

بكل تلك الحقائق. لم يبالِ. كان شخصاً واقعاً تحت تأثير ضغط قوي للاختيار بين شيئين، كلاهما لا يستطيع فعله. إنه الصراع ذاته الذي كانت تعيش فيه مريم الحقيقية، والذي لم تستطع أن تتحمله. فهي كانت تشعر، بل متأكدة من أن سمير كان قاتل شقيقتها. فهي لما دخلت، ورأت شقيقتها ممددة على الأرض جثة هامدة، وسمير مطعوناً في بطنه، لم يكن ثمة شك في الأمر بأن سمير هو القاتل. إلا أن شعوراً أقوى، كان ينبئها بأنه لا يمكن أن يكون هو الفاعل. كانت تعرف أنه يكنّ لها حباً كبيراً، ولا يستطيع أن يقتلها.

ـ لا يمكن أن نجعل من الأحاسيس أدلة في جرائم قتل خطيرة كهذه. فالنساء رقيقات جداً، ولا يمكن الاعتماد على أحاسيسهن. الأدلة قوية كثيراً، والدافع أقوى. وعندما يتعلق الأمر باحتمال دخول السجن، بسبب عملية اختلاس أموال، لا يبقى للمشاعر أي معنى.

ـ أنت مخطئ. أعتقد أنه من أجل مشاعر قوية، ضحى سمير بحياته حتى يبقى متستراً على القاتل الحقيقي. ومن أجله أيضاً، خاطر بحياته كي يخفي الجثة في الجبل.

ـ ألا يمكن أن يكون شخص ما هدده بقتله. . . بقتل زوجته؟

ـ هذا كله وارد، ومحتمل. لكن بقي لنا أن نعرف حقيقة ما حدث فعلاً في ليلة ١٠ آذار/مارس ٢٠٠٥؟

ـ أتقصدين ما حدث في الليلة التي عرضت فيها المسرحية؟

ـ أجل، القاتل كان حاضراً. كان يدري أن بيتزا ستحضر تلك الليلة، وستوضع في إحدى غرف الكواليس. خطط لجريمته بطريقة ذكية. الظروف ساعدته. ففي الوقت الذي ذهب فيه القاتل إلى غرفة الكواليس، أشخاص كثيرون ذهبوا إلى هناك في أوقات متفرقة بفاصل دقيق. مروان شوهد يدخل هناك، ادعى هو أنه ذهب لشرب الماء، برغم أنها حجة غير مقنعة، إلا أنها جائزة الحدوث.

ـ ألم تخبريني أن مريم الحقيقية أخبرتك أن القاتل رجل؟

ـ كانت تقصد سمير، لكن سمير خرج الآن من دائرة الاتهام. فالقائمة اتسعت الآن، لتشمل حتى النساء. لدينا، كما قلت، ليندة التي تظاهرت بأنها تتحدث مع رجل الأمن، حتى توهم الجميع أنها ستغرق مدة أطول في الحديث معه، ثم تسللت كفأرة صغيرة، ووضعت الفطر على البيتزا، ثم عادت وتحدثت معه.

ـ محتمل... ماذا تفعلين الآن؟

ـ أنا أراجع الصور التي حصلت عليها من ليلى فارس، وأرى ما يمكن أن تقدم إلينا... هل تريد أن تساعدني؟

أخذ مليك وليلية ينظران إلى الصور بتناوب، ثم قالت وهي تريه ثلاث صور التقطت لنسرين وهي تدخل المسرح وتحيي الجمهور:

ـ انظر إلى عيني مريم غزلان الحقيقية في هذه الصور الثلاث. . . انظر إلى اتجاه عينيها. إنها تنظر إلى شيء معين، في الصف الأول.

ـ دعيني أرَ... يبدو أنها تنظر إلى إحدى التنانير. إن النساء يعانين ضعفاً تجاه التنانير.

ـ لا... هذا مستحيل، كيف لسيدة تشعر بأنها ستموت بعد غد، أن تهتم بالنظر إلى إحدى تنانير الحضور. ألا ترى شعلة القلق الممزوجة بالرعب تغلّف عينيها؟

ثم أخذت الصورة، ووضعتها في جهاز نقل المستندات للحاسوب. وعندما ظهرت الصورة على الشاشة، أخذت تُكبر الجزء الذي أرادت رؤيته، وضاعفت حجمه، ثم

راحت توضح تقاطيع الصورة. وعندما اتضحت، قال مليك:

ـ أكانت تنظر إلى حذاء تلك السيدة؟

ـ أي سيدة؟ إنها ليلى فارس، زوجة سمير.

ـ لكن، هل ترين أي مبرر منطقي كي تنظر إلى حذائها إلا أن حذاء هذه السيدة أعجبها؟

ـ ربما لم تكن تنظر إليه. ربما كانت شاردة الذهن، واستقر ذهنها هناك، بدون أن تكون حقيقة تنظر إلى حذائها.

أطلقت ليلية زفرة قوية، وانتقلت إلى صورتين، إحداهما التُقطت عند الساعة الثامنة عشرة ودقيقتين، والأخرى عند الثامنة عشرة وأربع دقائق. وقد ظهرت فيهما ليلى وهي تتصور أمام خشبة المسرح.

ـ أترى هاتين الصورتين، إلى الجانب الأيمن. رجل أمن يتحدث مع ليندة، ثم في الصورة الثانية واقف وحده..

ـ أريني، أجل... أنتِ محقة.

ـ هذه فتاة مثيرة للريبة. إنها قادمة من تلمسان. أعتقد

أنه من الأفضل معرفة ماضي هذه الفتاة. فربما الأمر متعلق بشخص قدم من تلمسان لينتقم من مريم لسبب معين.

ـ هل تعتقدين أنها قد تكون كذلك؟

ـ لا أعتقد، بل أحدهم أرسل إلي صورة ليندة وهي في المدرسة مع تلاميذ قسمها. أتدري من كان يدرس معها في الصف ذاته؟

ـ من؟

ـ مريم غزلان.

ـ يا إلهي.

* * *

طلب مليك من ليلية في صباح يوم التالي، أن تأخذه إلى المنزل الذي كان مسرحاً للجريمة الأولى في بئر خادم. وعندما وصلا، طلب منها أن يدخلا القبو.

دخلا معاً. عندها قالت ليلية مستغربة:

ـ لا أفهم طلبك رؤية هذا القبو.

نظر إليها، ثم قال بدون أن يهتم كثيراً بإجابتها:

ـ أريد معرفة شيء مهم. هل حقاً مريم وضعت الثاليوم في هذا القبو لقتل الجرذان؟

مكتبة

ـ أجل.

تفحّص المكان لمدة معينة، ثم خرج وطلب من ليلية أن يتحدثا في مطعم قريب، لأن كلاماً كثيراً أراد أن يخبرها به.

عندما ذهبا إلى مطعم صغير ليس بعيداً عن بئر خادم، قال عندما وضع الساقي القهوة لهما وتراجع:

ـ أتدرين؟ كان يجب التفكير في هذا الأمر منذ البداية... كانت النتيجة الوحيدة التي تشير إلى الفاعل... لقد خطرت لي هذه الفكرة البارحة، عندما كنتُ ممدداً في السرير. إن الإنسان مهما كان حذراً في إخفاء تواجده في مكان ما، فهل يستطيع أن ينتزع الدقائق الموجودة في الأثير؟

ـ ماذا تقصد بدقائق الأثير؟

ـ الجو الذي كان موجوداً في القبو، من دون شك أنه ترك أثراً على الفاعل. إن القبو معالَج بالثاليوم، ونحن نعرف أن شخصاً ما، كان يتردد إلى هذا المكان، كي يضع الأموال المسروقة من شركة، وهو من المؤكد لم يكن

يستطيع أن يكون له حسابه البنكي، لأنه بوجود مثل هذا الأمر، ومع وجود المراقبة، سيُكتشف حتماً أمره. شخص اختار القبو كي لا يثير الشبهات.

صاحت ليلية بقوة:

ـ أتقصد سمير؟

ـ لكن سمير لاً يعاني اضطرابات في النظر... إنه الاحتمال البعيد. إن الشخص الذي أقصده: شخص يعاني ترسب الثاليوم في جسده. . . يعاني التعب، آلام الرأس، الإحباط، ونقصاً في الشهية، الآلام في الساقين، وتساقطاً في الشعر، وأخيراً اضطراب النظر.

ـ أتقصد؟

بقي فمها فاغراً غير مصدقة.

ـ مروان، أجل. نحن نعلم بأنه ذهب إلى الينابيع المعدنية ليعالج الآلام في ركبتيه. بالإضافة إلى ذلك، فإن زوجته أخبرتك ذات يوم، أنه يعاني آلام الرأس، والإحباط. أكان إحباطاً من جراء عدم تقبله من طرف العائلة التي تبنت مونية؟ أم بسبب الثاليوم؟ العجوز ياسمين، أخبرتك أيضاً أن مروان قد نقص وزنه، ولم يعد يُقبل على

الطعام، كما كان في السابق، بالإضافة إلى اضطراب في الرؤية. فهو يضع نظارات، ويعاني صلعاً جزئياً، وآخر شيء يختم هذه الأدلة، أن العجوز ياسمين أخبرت مونية أن زوجها سارق، وأنه قام بسرقة المال الموجود في الخزنة. نسرين (مريم الحقيقية)، كانت ذكية، حادة البصر، وأيضاً فطنة. كانت تمُيّز بين عمل طبيعي وعمل مشبوه. كمَا اكتشفتْ في السابق اختلاس سمير، اكتشفت اختلاس مروان. هددته بإخبار جدتها وأنها ستفضحه بين جميع أفراد العائلة، حتى زوجته، فأرسل إليها رسالة «حذار». ـ هذا ما توصل إليه خبير الخطوط. الخط كان لمروان. لكن الأمر، كان أكبر من أن يترك لنسرين (مريم الحقيقية) فرصة للتفكير. كان يجب التفكير في الخطوة التي تجعل صمتها أزلياً. فقام بوضع الفطر السام في البيتزا.

أنصتت نسرين إليه جيداً، ثم قالت:

ـ حسناً... لا أدري ما الذي يقال.

ـ أليس لك رأي في ما قلته للتو؟

ـ بلى... سأطلب غداً أمراً بالقبض عليه.

ثم نهضت من مكانها، وقالت: لنغادر.

ـ أنتِ لست مقتنعة؟

نظرت إليه، وقالت بعد وهلة: لنغادر.

* * *

في المساء، بقيت ليلية تفكر في النتيجة التي توصل إليها مليك. تمددت فوق السرير بدون أن تنزع عنه ثيابها. كان شيء يمنع عنها النوم. شيء تغلغل داخلها، ويُولد في أعماق سريرتها، إحساساً بأن شيئاً ينقصه المنطق. ملأ هذا الإحساس صدرها، كالسحابة القاتمة، الحبلى بالأمطار الطوفانية. كان سؤال يرن في أذنيها كطنين الذباب: لماذا أرسل مروان تلك الرسالة إن كان قد خطط لقتلها؟ كيف لمجرم دبر جريمته بإحكام متقن أن يرتكب هذا الخطأ اللامنطقي؟ هل كان يقصد بـ «حذار»: احذري الخطر القادم؟ لكن أي خطر؟ أي شر كان ينتظر تلك المرأة؟ أي شر كان ينتظر نسرين غزلان (مريم الحقيقية)؟

تقلبت على جانبها الآخر. أحستْ بأفكار جديدة تنبع فجأة: لكن، أيعقل أن يكون سمير يتستر على مروان؟ لماذا؟ ثم يخاطر بنفسه من أجل إخفاء الجثة؟

انتفضت من سريرها، وجلست وهي تشد رأسها بيديها، وتحدق في أرضية غرفتها: الرسائل! مروان قال إن مريم

الحقيقية في الصباح، كانت تتحدث عن حذاء ليلى... هل هذا مؤشر إلى رسالة سرية جديدة؟

* * *

نهضت وأخرجت الصور التي أعطتها إياها ليلى، ونظرت إلى الصورة التي تظهر فيها مريم الحقيقية تنظر إلى حذاء ليلى.

أدخلت الصورة في الحاسوب، وكبرتْ إلى حجم كبير المقطع الذي كان يظهر فيه الحذاء.

بقيتْ ذاهلة. بدا وجود كتابة على الصفيحة الحديدية للحذاء، لكنها لم تتمكن من قراءتها، لأن الحذاء كان يبدو مواربًا على الصورة؛ فأخذت تبحث في الصور عن تلك التي يكون فيها الحذاء مقابل عدسة التصوير. وجدت الصورة التي تحقق غرضها، وكانت تظهر فيها ليلى واقفة أمام بوابة المسرح.

كبّرتها. النتيجة التي توصلت إليها مذهلة. بقيتْ مدة تنظر إلى الصورة، وقالتْ في النهاية: مستحيل!!!

اتصلت بسرعة برياض. لم تنظر حتى إلى الساعة التي كانت تشير إلى الثانية والنصف... فجراً.

أجابها صوت خشن، كأنه يصدر من أعماق كهف:

ـ من يتصل؟

أدركت حينها فقط، أن الوقت متأخر جداً، فسارعت إلى القول:

ـ أوه!!! أنا آسفة، لكني أردتُ أن أخبرك بأنني وجدت القاتل.

الفصل الرابع عشر

الورقة الأخيرة

اجتمع جميع أفراد العائلة بناءً لطلب وكيل الجمهورية وليلية، كي يقرآ عليهم التقرير النهائي الذي توصل إليه التحقيق. الحقيقة أن هذا كان طلب العجوز ياسمين، فبيتها عاش فترة طويلة في جو مكهرب من الشك والتبادل المباشر للتهم. وألحت على رياض أن يكون كشف المتهم أمام الجميع، حتى لا يبقى بعد ذلك أدنى شك.

جلس الجميع في حجرة الاستقبال الكبيرة، ينتظرون ما ستقوله قاضية التحقيق التي دخلت في الموضوع بدون مقدمات:

ـ لا أدري، كيف سيكون وقع هذا الخبر على البعض، لكن الجريمة التي وقعت في ١٠ آذار/مارس ٢٠٠٥، لها علاقة مباشرة بالجريمة التي حدثت في ١٠ آذار/مارس ١٩٩٥. الأمر لا يتعلق بالمصير المشترك للتوأمين، كما كانت تعتقد نسرين غزلان (مريم الحقيقية)، قبل أن تموت،

بل أبعد من ذلك. الحقيقة أن القاتل اكتشف مؤخراً بسبب الحالة الهستيرية التي كانت تعيشها نسرين غزلان (مريم الحقيقة) أن أحدهم ينبش في حقيقة ما حدث في ١٠ آذار/ مارس ١٩٩٥، التي كان الجميع يظن أنها جريمة إرهابية استهدفت إعلامية من إعلاميات الجزائر. وكان هذا ما تعّود عليه الجميع في تلك الفترة الحرجة التي عاشتها الجزائر. الإرهابيون لم يعرفوا فريسة إلا الصحافيين والإعلاميين بصفة عامة. وحتى عندما تم اكتشاف الزرنيخ في جسدها، أكدت المحكمة أن الأمر لا يمكن أن يكون غير جريمة إرهابية، لأن المنطقة التي وُجدت فيها الجثة، تحتوي على الزرنيخ في الأرض. لكن السؤال الذي تبادر إلى ذهني، ماذا لو أراد شخص أن يكون الأمر هكذا، أي أن تكون جريمة في شكل عمل إرهابي، وقادني الجواب إلى سمير الذي اعترف بأنه قام بنقل الجثة إلى جبال الشريعة بعد أن تشاجر مع القاتل الذي طعنه، وتساءلتُ مجدداً لماذا لم يبلغ سمير الشرطة؟ وكانت ليندة في الاستجواب الأولي قادتني إلى مسألة غامضة في الموضوع. قالت إنه من الغريب أن يجازف المرء بنفسه من أجل إنقاذ نفسه. لقد قام سمير بصعود الجبل لرمي الجثة، وهذه تُعَد مخاطرة كبيرة. جبال الشريعة (في المكان الذي عثر فيه على جثة نسرين الحقيقية) كانت أكثر الجبال التي تعسكر فيها الجماعات الإرهابية،

واحتمال أن ينفجر فيه لغم مضاد للأشخاص، أو تمسكه جماعة إرهابية، كبير. هنا أدركت أنه إن كان حقاً أراد إنقاذ نفسه من حبل المنشقة، فلماذا يغامر بنفسه ويصعد إلى جبل معروف بتمركز الجماعات الإرهابية فيه. فاحتمال موته هناك تسعون في المئة؛ لكن برغم ذلك قام وغامر بنفسه من أجل أن يتخلص من الجثة، حتى تبدو الجريمة إرهابية من أجل إنقاذ القاتل الذي يبدو أنه ذو معزة غالية عليه...

لكن كما أخطأ القاتل أخطأ سمير. الجميع ظن أن الضحية هي مريم، لكنها في الحقيقة كانت نسرين. لكن من ارتكب الخطأ الأول، كان القاتل الذي بسبب ضعف في النظر، لم يستطع أن يميز بين الشقيقتين. قام بتقديم مشروب إلى نسرين ظاناً أنها مريم، والأرجح أن المشروب كان شراباً ساخناً يعالج من الرشح، وكان مسموماً بالزرنيخ. سقطت نسرين على الأرض، ودخل في تلك اللحظة سمير، وأصيب بالذهول عندما رأى القاتل قد نفذ مخططه... نعم، كان سمير يعلم بأن القاتل سيرتكب يوماً ما جريمته. تشاجر مع القاتل، وأخبره أنه قتل مريم لأنها كانت ستكشف أن سمير والقاتل كانا يختلسان شركة العجوز ياسمين. فمريم قامت بتطهير القبو من الجرذان التي ادعت أنها تأتي من القبو، فقامت بشراء الثاليوم. وقامت بتطهير

المكان، واكتشفت الأموال التي كان القاتل وسمير يخبئانها فيه. لكن دعوني أخبركم أن مريم كان تعرف أن القاتل وسمير كان يختلسان حتى قبل أن تنزل إلى القبو، لأنه لو كانت توجد حقاً جرذان في القبو، لما أبقت على النقود، ولكان القاتل وسمير غيرا مكان إخفاء الأموال.

لا تنسوا أن مريم كان صحافية محققة من الدرجة الأولى، وهذا ما ساعدها على اكتشاف الحقيقة. وما حجة تطهير القبو إلا كي تتأكد من نظريتها.

لنعد إلى نقطة لم أتطرق إليها، وهي أنه بعد أن تشاجر سمير والقاتل، احتد الشجار بينهما، فقام القاتل بطعن سمير، وهرب. في هذه الأثناء، دخلت مريم الحقيقية، وظن سمير أنها نسرين، لكن سرعان ما عرف أنها مريم، واكتشف خطأ القاتل، لأن سمير كان يحب مريم، وكانت هي تبادله المشاعر ذاتها. فأدرك أنه يستطيع إنقاذ جلد القاتل وجلده، فأقنع مريم الحقيقية (التي كان يتحدث معها على أنها نسرين)، بألا تخبر أحداً، وأن الأمر مجرد سوء فهم. قد لا تتفهم الشرطة الأمر، وطلب منها أن تلزم الصمت، بينما يتكفل هو بإخفاء الجثة.

قام بإخفاء الجثة بالطريقة التي ذكرتها قبل قليل، ثم قدم

بلاغاً باختفاء مريم. أما مريم الحقيقية فقد ظنت أن سمير قد قام بقتل شقيقتها معتقداً أنها هي ولم يفطن إلى أنه أخطأ في الشخص.

بعد اكتشاف الجثة المتعفنة في الجبل، عثروا على دليل يثبت هويتها: بطاقة الدعوة إلى حضور افتتاح المهرجان الثقافي للمسرحية العربية التي كانت في جيب نسرين، لكن نسرين (مريم الحقيقية) قامت بتصحيح الالتباس، وادعت أنها قدمت البطاقة إلى شقيقتها. وفي تلك الأثناء، قام سمير بوضع مزيل طلاء الأظافر الذي هو مادة مخدرة في القهوة، ليجعل نسرين (مريم غزلان الحقيقية) تنسى ما حدث، إلى أن تدهورت حالتها النفسية والعقلية. وكانت في تلك الفترة، تعاني صراعاً داخلياً. كانت لا تستطيع التصديق أن سمير، بكل تلك المشاعر التي يكنها لها، يقدم على قتلها. وفي الوقت ذاته، كان قدومها في تلك اللحظة، ورؤية جثة شقيقتها ملقاة على الأرض، والدماء من بطن سمير، والسكين الملقى، خير دليل. وبعد أن خرجت من المصح، بقي الإحساس بالصراع الداخلي يرافقها، في كل خطوة في حياتها، لكن العلاج كان قد محا أغلب ذكرياتها. وبعد سنوات عدة، قررت أن تستشير الطبيب النفسي الذي أخضعها للتنويم المغناطسي، ما أدى إلى إنعاش

ذاكرتها. . . يعني أنها تذكرت كل ما حدث في يوم مقتل شقيقتها.

والرقم عشرة الذي كانت تؤمن به، والذي يعني أن كل شيء يقع لإحدى التوأمين، يحدث للتوأم الأخرى بعد عشر سنوات، دفعها إلى البحث عن القاتل الحقيقي، فقامت بإرسال رسالة بالطريقة ذاتها إلى سمير تطلب منه أن يخبرها حقيقة ما حدث في يوم مقتل شقيقتها.

والرسالة التي أرسلها إليها عثرت عليها العجوز ياسمين. بحثت مع مريم الحقيقية عن القاتل أيضاً، بدون أن تخبرني عن حكاية سمير، لأنها هي بذاتها كانت ترفض الفكرة أن سمير هو قاتل شقيقتها. ومع اقتراب الذكرى العاشرة لوفاة شقيقتها، زادت هيستيرية مريم الحقيقية، وأصابتها نوبة رعب. أتفهّم الأمر. إن الحالة تشبه شخصاً ينتظر حكم موته. شيء مرعب أكيد.

والشيء المؤكد أنها أخبرت الكثير منكم، أو لمحت له إلى أنها تبحث عن الحقيقة. على الأقل تكون قد أخبرت عن بحثها عن الحقيقة، القاتل الذي أرعبه أن يوجد شخص ينبش في الماضي.

فقرر هذه المرة أن القتل مجدداً هو حل آخر، لكن في هذه المرة أحداث ظرفية كانت ضد ما خططه القاتل.

لدينا من الأشخاص الذين نملك دليلاً يجعلنا نشتبه فيهم، اثنان هما ليندة ومروان.

صاحت ليندة برعب:

ـ لقد كنت أتحدث مع رجل الأمن ما بين الساعة الثامنة عشرة والثامنة عشرة وعشر دقائق؟

ـ هذا ما قلته، ولم تقله الصور التي حصلنا عليها من ليلى ومن المصورين، التي أثبت أنك عند الساعة ١٨,٠٢ كنت تتحدثين مع رجل الأمن؛ ثم عند الساعة ١٨,٠٣ لم يكن أحد يتحدث مع رجل الأمن ذاك... ثمة صورة أثبتتْ ذلك.

اصفر وجهها كوجه الشبح، لكن قبل أن تضيف كلمة، قالت ليلية بسرعة:

ـ ليندة فتاة قادمة من تلمسان، تعمل في منزل كممرضة، ثم يُقتل في هذا المنزل شخصان، إحداهما كانت زميلتها في المدرسة، ألا يثير هذا الريبة... نعم، كانت ليندة زميلة مريم الحقيقية في المدرسة، بالإضافة إلى سجل

سوابقها العدلية الذي أثبت أنه حكم عليها مرتين بتهمة سرقة مع شريك... ثم، أليس غريباً أن تحدث أيضاً في المنزل الذي تعمل فيه سرقات؟ حسناً، قد يبدو الأمر رائعاً أن تكون ليندة سارقة، وأن يكون مروان شريكها. إن هذا سيكون نهاية لمأساة شخصين لا يمتان بصلة إلى العائلة. ستبدو جريمة منطقية. لصان تغلغلا داخل عائلة، واقترفا جرائم عدة بكل براعة، لكن كل تحرياتنا حول إن كان مروان يعرف ليندة قبل قدومهما إلى هذا المنزل فشلت. وأثبتت أن مروان لا يعرف ليندة، وليندة كذلك، إذاً، كل احتمالاتنا باءت بالفشل. بقي شيء واحد هو هل يمكن أن يكون سمير هو شريك ليندة؟

أطلقت ليلى صرخة مكتومة، لكن ليلية تابعت الحديث:

ـ التحقيق أيضاً لم يُثبت وجود علاقة بين ليندة وسمير. بقي لنا شخص آخر، هو مريم الحقيقية. . . هل كانت مريم شريكة سمير؟

لنراجع ما لدينا من أدلة. مريم تشاجرت مع سمير وهددته بإخبار جدتها باختلاسه أموالها. قد يكون سمير ومريم شريكين، واختلفا حول كيفية تقاسم النقود. وقد يكون سمير أخبرها أنه سيأخذ القسط الأكبر، لأنه هو من

قام بالسرقة، وأن اسمه في خطر أكثر منها، فقامت مريم بالادعاء أنها ستنزل لتطهير القبو من الجرذان، لتلفت الانتباه إلى القبو الذي كان يُخبَّأ فيه المال. لم تكن هناك جرذان أصلاً، فلو كانت موجودة لأكلت أوراق النقود. فأدرك سمير أنها تريد أن تفشي سرهما، فتخلص منها وأخطأ في هدفه، ثم قام بإعطاء أدوية للنسيان لمريم الحقيقية التي تقمصت شخصية شقيقتها، والبقية تعرفونها. لكن، عندما نطبق ما اكتشفه ابن خالتي مليك في القبو، فإنه يتنافى مع الحقائق.

شخص ما كان ينزل إلى القبو باستمرار لتخبئة النقود، التي يبدو أنها كانت تُحضَر بشكل حزم، حزم صغيرة، حتى لا تلفت الانتباه. وتواصل عمل السارق، أو أياً كان عددهم، في إحضار النقود حتى بعد مقتل مريم (نسرين الحقيقية). في تلك الأثناء، كان القبو معالَجاً بالثاليوم، ولم يكن معرضاً للهواء، ما يعني أن الشخص الذي كان ينزل كان معرضاً للثاليوم باستمرار، وأعراض التسمم غير الحاد بالثاليوم هي نقص في النظر، حالة الإحباط، آلام في الساقين، نقص في الوزن، السقوط الجزئي أو الكلي للشعر.

حوّل الجميع أنظارهم إلى مروان، وأمارات عدم التصديق تغلف عيونهم، لكن ليلية تابعت تقول:

ـ لكن، هل حقاً يعاني مروان هذه الأعراض نتيجة التسمم بالثاليوم، أم أننا أمام أعراض ظرفية؟ الإحباط بسبب الاتهامات المتوالية بالسرقة من طرف العجوز ياسمين، وعدم تقبل أهل زوجته له كفرد صالح في المجتمع، وما يترتب عليه من نقص في الوزن وفقدان الشهية... وآلام الساقين بسبب الروماتيزم مثلاً. وماذا لو كان مروان يعاني هذه الأعراض بسبب الثاليوم، ألن يكون هو القاتل؟ بقي علينا أن نُسقط عليه الأدلة التي نملكها: شخصية القاتل وطريقته في القتل.

الجريمة الوحيدة التي لم يتدخل فيها سمير ويغيرها هي الجريمة الثانية التي تظهر عمل القاتل وحده.

انظروا إلى طريقته في وضع السم. اختار شيئاً لا يلفت الانتباه، ولا يلفت الشبهة: فطراً فوق قطعة البيتزا. إن هذا شيء عادي ويحدث كل يوم. فمثلاً، لو حمل عامل المسرح قطعة البيتزا إلى خشبة المسرح، ورأى قطع الفطر، فلن يرتاب في الأمر حتى لو أخبرناه أن في البيتزا سماً. فلن يشك مطلقاً في قطع الفطر، لأنه شيء عادي، ومعتادون على رؤيته. إن القاتل شخص ليس ذكياً فقط، بل قبل أن يقوم بأي خطوة، يفكر كيف يستطيع تمرير أي شيء بدون لفت الانتباه، لأنه عادة ما تبحث الشرطة عن شيء

غريب أو شيء لافت للانتباه. لكننا لا نبحث عن شيء اعتدنا رؤيته يومياً، وأصبحت مشاهدته عادية. هكذا انطلق القاتل: أن يجعل جريمته ودليل براءته شيئاً عادياً حتى لا تحقق معه الشرطة. والآن بقي أن نسقط هذا على شخصية مروان؟ هل مروان شخص يمرر أفعاله بدون أن يلفت الانتباه؟ إنه أكثر المشتبه فيهم. ففي المنزل، عند أول حادثة سرقة في الخزنة، اتجه الجميع بأعينهم إلى مروان، برغم أنه لا أحد يملك دليلاً مادياً على أن مروان سارق. وفي الحقيقة أن السارق شخص اعتاد رؤية الخزنة تُفتَح أمامه، ووجوده أمام الخزنة شيء عادي، لكن السارق في هذه المرة ليس هو القاتل، بل إن الجريمتين لا علاقة لإحداهما بالأخرى.

السارق هنا هو شخص، كما قلت، وجوده أمام الخزنة لا يثير الريبة، لأن العجوز ياسمين اعتادت أن تطلب منه ذلك، ورفعت إصبعها وأشارت إلى ليندة التي اصفرّ وجهها:

ـ سرقت الخزنة، وأعطت المال لشريكها الذي اعتادت أن تسرق معه، وشريكها كان حاضراً وقت الجريمة في خارج المسرح، وقد رآه المتشرد قبل أن يموت. وأخبر عامل النظافة الذي قدم إليه البيتزا المتبقية، أنه رأى سيدة

ترتدي معطفاً أحمر ذا باطن أسود، في حين أن ليندة كانت ترتدي معطفاً أسود. لكنه أضاف شيئاً مهماً: أن باطن المعطف أحمر. ليندة قبل أن تخرج نزعت معطفها وقلبته، وارتدته من جديد، فأصبح الباطن هو الظاهر، أي أصبحت ترتدي معطفاً أحمر بباطن أسود، بعد أن كانت ترتدي معطفاً أسود ذا باطن أحمر. الصور التي قدمتها إلينا ليلى تثبت أنها عند الساعة ١٨,٠٣ لم تكن تتحدث مع رجل الأمن، لأنه كان يقف وحده.

أخذت ليندة تبكي بكاءً حاراً، لكن ليلية قاطعتها:

ـ لكن بقي شيء واحد، هو من يكون شريك ليندة؟ هو بالتأكيد شخص ليس من العائلة، لكنه من تلمسان، يتحدث بلهجة تلمسانية. هذا أكيد. وهو نفسه الذي أتى في ذلك اليوم يسأل عن بقايا الخبز، وكان يقصد أن تسلمه ليندة حزمة أخرى، لأن ليندة تأخرت ولم تسلمه إياها، لأنها لم تستطع أن تقوم بأي خطوة، بسبب أن مراون كان يراقبها. ولهذا، أرسل كلمة تحذير إلى نسرين بدون أن يقحم اسمه، لأنه لا أحد سيصدقه. فمروان سمع محادثة ليندة مع شريكها، وكانت كلماتها توحي بشر سيقع يوم عرض المسرحية، وظن أن أحداً سيتربص بنسرين. لم يكن يظن

أن ليندة ستسلم المبلغ من المال الذي سرقته من الخزنة إلى شريكها. أليس هذا صحيحاً؟

ابتسم مروان، وأومأ برأسه، وقال:

ـ لقد كانت تتحدث بعبارات غامضة «علينا أن ننهي المهمة... في الدقائق الفاصلة بين الفصل الأول والفصل الثاني... علينا أن نتخلص منها، لا يمكن، سيُكتشف أمري».

ـ كانت تقصد أن تتخلص من الأوراق النقدية التي سرقتها، لكن يبدو أن مروان فهم الأمر خطأً، وظن أن الأمر جريمة قتل مدبرة بقصد التخلص من نسرين. وفي يوم عرض المسرحية، هرول في تلك الدقائق المخصصة للاستراحة والفاصلة بين الفصل الأول من المسرحية والفصل الثاني، إلى غرفة تبديل نسرين، ولم يجدها هناك، فأخذ قطعة من أحد المناديل الورقية هناك، وكتب لها: «حذار»!

لكن، هل هذا يعني أنه بريء؟ هل يمكن أن نقول إنه بريء لأنه ترك أكثر من دليل لإدانته؟ أولاً، تواجده في مكان الجريمة وقت الجريمة، وتركه ورقة مكتوبة بخط يده في غرفة التزيين لنسرين (مريم الحقيقية). سيقول أحدكم لو كان القاتل، لفعل المستحيل حتى يمحو أثر تواجده هناك،

لا أن يترك أكثر من دليل. لكن لننظر كما قلت إلى شخصية القاتل. إنه يجعل الأمور شيئاً عادياً حتى لا تلفت الانتباه. هل هذا يتوافق مع مروان الذي لو قلنا إنه هو القاتل وترك أكثر من دليل على تواجده بحسن نية في مكان الجريمة وفي وقت الجريمة، وماذا لو أراد الأمر أن يكون «لا يمكن أن يكون القاتل لأنه يوجد أكثر من دليل على تواجده هناك، فلو كان القاتل لمحا كل أثر يثبت وجوده؟». هل مروان هو القاتل؟ أجيبوني؟ الجميع سيقول نعم، لأنه منذ البدء، كونتم فكرة سيئة عنه، كشخص ذي سوابق عدلية، ما يعني أن كل مصيبة تحدث في المنزل سيكون هو سببها. لكن قبل لحظات من الآن، أثبت لكم أنه ليس السارق، وأن الشخص الذي ظننتم أنه الأمين والذي أوكلتم إليه العناية بالعجوز ياسمين، هو السارق.

بقي ينظر كل واحد فيهم إلى الآخر، ثم رفعت إصبعها وأشارت إلى شخص كان جالساً بين مونية ومروان، وصاحت:

ـ أنتِ هي القاتلة التي أردَتْ الشقيقتين.

الفصل الخامس عشر

القناع يسقط

رفع الجميع أصوات الاستغراب والذهول، وصاح الجميع بأعلى حناجرهم: مستحيل، لا يمكن!!!

ـ ومن يكون غيرها. كان سمير ذا شخصية ضعيفة، لكنه تزوج بامرأة مستبدة، كانت تريد أن تحيا حياة رغيدة، فأجبرت سمير على الاختلاس. ومن كان سيكتشف ألاعيبها إذا كان هو محاسب الشركة. اتخذ احتياطاته، لم يضع أي دينار مسروق في حسابه البنكي، بل قامت زوجته بإخفاء النقود في القبو الذي كان لا يُستعمل إطلاقاً. لكن الحظ العاثر، جعل مريم تشتري بعض الثاليوم، لتقتل به الجرذان التي كانت تلف المنزل، ولم يكن إلا القبو المكان السفلي للمنزل، حتى تضع فيه الثاليوم. وعندما نزلت تأكدت من أن سمير يسرق جدتها. هرولت إليه، وهددته بإخبار العجوز ياسمين. لم يكن سمير ذا شخصية قوية حتى تسمح له باتخاذ قرار حازم، فقد كانت زوجته العقل المدبر، وقد خافت بالفعل أن تكشف مريم كل ما قاما به.

نهضت ليلى وضحكت بقوة:

ـ يبدو أنك أُصبت بالجنون. كيف أكون القاتلة، وأنا أملك دليلاً مادياً على عدم تواجدي وقت الجريمة في مكان حصولها؟ ألا تتذكرين الصور؟

ـ يا سيدتي أنا أحييك، بل إني أنزع قبعتي من على رأسي لأحيي عبقريتك. أتدرين كيف بدأت أكتشف الحقيقة من طريقتك في القتل. فأنت تعتمدين على جعل الأمور تمر بدون أن تثير أي ريبة. الفطر فوق البيتزا، لا أحد رآك، لكنك كنتِ هناك... كنتِ هناك لأنك أنت ارتكبت الجريمة. رأتك ليندة، الوحيدة التي رأتك، ولم يؤخذ بأقوالها، لوجود الصورة، فافترضنا أنها شبّهتك بشخص له شكلك ذاته. الصورة التي تظهرين فيها أمام بوابة المسرح، كم من وقت تحتاجين كي تغادري مقعدك، وتخرجي إلى الخارج، وتضعي آلة التصوير فوق عمودها، وتلتقطي لنفسك صورة: تسع دقائق، وأضف أنك التقطت لنفسك أربع لقطات من جهة الخشبة، أين كانت ليندة... واقفة تتحدث مع رجل الأمن، ثم عند الساعة ١٨,٠٤ غادرت إلى خارج المسرح. لو كان الأمر حدث كما قلت، لعدت عند الساعة ١٨,١٣.

لكن مونية أكدت أنك عدت عند الساعة ١٨,٠٨، لأنك بكل بساطة كنت قد ذهبت إلى غرف الكواليس، ومعك الفطر السام. انتظرت حتى دخل مروان الحمام وأسرعت لترتكبي جريمتك البشعة.

- إنها مجرد تخيلات محضة، لا وجود لدليل مادي لما تقولينه.

- هل أنت متأكدة؟ أنت التي خططت لتركيب دليل براءتك. كان عليّ من الأول أن أحقق في كل أدلة البراءة العادية. الجميع كان يعلم بأن مريم غزلان الحقيقية كانت تراسل مؤخراً سمير برسائل سرية. والرسالة الأخيرة، كتبتها على حذاء زوجته ليلى في الصفيحة الحديدية الموجودة إلى جانب الحذاء، كتبتها ثم محتها، ثم قام سمير باستعمال محلول حامض الكبريت بقوة ١٠٪ لإظهار الكتابة. وإلى طاولة الغداء، تحدثت بشكل مبالغ فيه عن الحذاء الذي سترتديه ليلى، وكانت تنظر في كل مرة تذكر فيها حذاء زوجته إلى سمير، في إشارة إلى أن الرسالة موجودة على حذاء زوجته. وفي الصور التي التقطها بعض المصورين، تظهر مريم الحقيقية تنظر إلى الحذاء بطريقة غريبة. لو لم أكن أعرف الحالة النفسية التي كانت تعيشها مريم الحقيقية

قبل أن تُقتل في ذلك اليوم، لقلت إن الحذاء أعجبها. لكن كيف لسيدة تعرف أنها قد تُقتل في اليوم التالي أن تنظر إلى الحذاء. قمتُ بتكبير الصورة، فظهرت الكتابة، لكن الصورة كانت تبين ليلى جالسة، والعارضة الحديدية لحذائها يظهر جزء منها، وبدت الكتابة غير واضحة، فقمت بالبحث عن الصورة التي يظهر فيها الحذاء مقابلاً للعدسة المصورة، ولم أجد إلا الصورة التي كانت فيها ليلى واقفة أمام بوابة المسرح الوطني. وهنا المفاجأة. لم يكن شي مكتوب على العارضة الحديدية للحذاء. استغربت في بادئ الأمر، لكن تذكرت في ما بعد أقوال ليندة بأن السيدة ليلى اعتادت أن تأخذ الصور في كل مرة كانت تحضر مسرحيات نسرين (مريم الحقيقية)، وأخبرتني من باب الثرثرة، أنها ارتدت الملابس ذاتها. بحثت في الأرشيف، واكتشفت أنه عند الساعة ذاتها التي عرضت فيها مسرحية «نسرين ستموت الليلة» (وهو وقت رسمي بالنسبة إلى المسرح لعرض أعمالها)، عرضت نسرين مسرحيتها «الثلوج الذائبة» في العام الماضي، أي ٩ آذار/مارس ٢٠٠٤. فالصورة التي أعطتها لنا ليلى، والتي أدخلتها مع الصور التي التقطتها، كانت في ٩ آذار/مارس ٢٠٠٤، وهي صورة تعود إلى العام الماضي. ففي هذا العام لم تلتقط ليلى صورة لها أمام باب

المسرح، بل كانت تضع الفطر السام فوق البيتزا. لهذا، لم تكن الكتابة ظاهرة على العارضة الحديدية لحذائها. أليس هذا ما حدث يا سيدتي؟

وقعت ليلى على الأرض، وأخذت تبكي بكاءً مريراً: لقد خسرت صحتي، وخسرت زوجي، وفي النهاية خسرت حتى حياتي.

ـ أنت لم تخسري يوماً زوجك. الجميع كان يظن أن سمير يهتم بأمر مريم، لكن في الحقيقة أنك كنت الوحيدة التي كان يهتم بأمرها، والدليل على ذلك أنه خاطر بحياته من أجل إنقاذ رقبتك من الإعدام. لم تدركي ذلك يا سيدتي. اعتقدت أنك لو حصلت على المال فستتمكنين بعدها من الحصول على الطلاق، والسفر إلى بلاد بعيدة وليتزوج بعدها سمير بمريم. لم يكن هذا الموضوع يثير حنقك، لكن مريم عرقلت مشاريعك، وبدأت فكرة التخلص منها تتبلور في رأسك. إلا أن تعقيدات أخرى أيضا وقفت في طريقك، ومرة أخرى وقف سمير إلى جانبك، وخاطر بحياته لإنقاذ روحك من الإعدام. ظننت أنه بغلق ملف مريم على كونها جريمة من فعل جماعات إرهابية، ستنتهي المشاكل، لكن الثاليوم كان له تأثير سلبي على صحتك، وبدأ الإحباط يلف حياتك، وبدأت أحلامك في السابق

يخفت بريقها، وتفقد التأثير الذي كانت تُوقعه عليك. ولم يعد يهمك الأمر. في الجريمة الثانية، كان سمير يعرف أنك ارتكبت هذه الجريمة، وأصيب بانهيار عصبي ليس بسبب وفاة مريم الحقيقية، لكنه كان يدرك أن هذه المرة لن تنجي منها، لكنك يا سيدتي كان الطمع يغشي عينيك. كنت تفكرينَ إن كنت قد خسرت سمير، فإنك على الأقل تستطيعين كسب المال، ثم بدء حياة جديدة، لكنك في النهاية خسرت كل شيء... حتى حياتك.

وقبل أن ترتكب ليلى أي حماقة، كان رجال الشرطة قد دخلوا وقيدوها. وعندما همتْ ليلية بالمغادرة، اقتربت منها العجوز ياسمين، وقالت لها وقد شعرت بأن شيئاً من المحبة قد ولُد بينهما: هل عرفت الآن لماذا فضلت السكوت على قول الحقيقة؟

ـ لقد كنتِ تعرفين منذ البداية أن ليلى هي التي قتلتْ حفيدتيك؟

أومأت العجوز ياسمين، وقالت: كنتُ أعرف منذ بداية الأمر، أن نسرين لم يقتلها الإرهابيون، وأن ليلى لم تذهب ذلك اليوم إلى طبيب العيون كما ادعت.

ـ لكنك حاولت أن ترميني في طريق خاطئ عندما أعطيتني تلك الرسالة.

ـ لا، بل كنتُ أريد أن أوجه أنظاركِ إلى سمير، وأجعلك تشكين فيه. كنتُ أدرك أنك لو حققتِ مع سمير لبرهة، لاكتشفت أن شخصيته ضعيفة، وأنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً خطيراً كالقتل، ولكنتِ أدركت أن خلف ابن أختي عقلاً مجرماً ومتعطشاً لارتكاب الجريمة.

ـ حتى أنتِ لم تستطيعي أن تواجهيها؟

ـ أجل، لم أكن أستطيع عمل شيء.

* * *

جلس مروان إلى جانب زوجته، وبقي ينظر إلى أشجار الصنوبر التي كانت تعلو، مشكلة حاجزاً أخضر، يغطي المنزل. ابتسم، وقال لها:

ـ كدت أورط نفسي في جريمة قتل.

ـ ماذا؟!!!

ـ لا تقلقي يا عزيزتي. لقد شعرت منذ يوم قدومي إلى

هذا المنزل بالشر الذي يحوم فيه، وحوله، ولم أكن أعرف من أين ينبثق.

ـ أتقصد أنك كنتُ تشعر بأن جريمة ستقع.

ـ ليس الأمر كما تتصورينه، لكني كنتُ أشعر بأن ثمة كرهاً بين الجميع. لم يكن كرهاً فطرياً، بل نتيجة لمعرفة شيء قد يورطك: ليندة ومحادثتها عبر الهاتف، وذلك المقطع من المحادثة الذي سمعته. ثم اكتشفت بعد ذلك في ألبوم لصورها، أنها كانت زميلة لمريم الحقيقية في المدرسة، وجعلني الأمر أتخيل أن تكون ليندة حاقدة على مريم الحقيقية لسبب ما، وأنها جاءت لانتقام، فأرسلت الصورة إلى قاضية التحقيق.

ـ إذاً، أنت من أرسل الصورة.

ـ أجل، إن الشخص الوحيد الذي أشعر تجاهه بالشفقة هو سمير. لقد كان يحبُ زوجته حباً جماً. وإن كان أصدر في السابق ميلاً إلى مريم، فلم يكن ذلك إلا نزوة عابرة، لكن ليلى لم تدرك ذلك.

ـ أعتقد أنها ستدرك ذلك وهي تتعفن في السجن.

ـ لا أعتقد ذلك. إن العجوز ياسمين قد أوكلت لها محامياً كبيراً وجديراً بأخذ القضية على محمل الجد.

ـ لا أرى ما يمكن أن يفعل لها؟

ـ أعتقد أنه سيحاول تخفيف الحكم.

ـ لكن، بقي شيء غامض في هذه الأحداث كلها. ألا ترى معي أن صمت العجوز ياسمين طوال عشر سنوات أمر غريب؟

ـ أتقصدين صمتها عن البوح بحقيقة مريم التي كانت تتقمص شخصية نسرين؟

ـ أجل، إن في الأمر غموضاً كبيراً. ألا ترى معي ذلك؟

ـ أجل، لكن العجوز ياسمين كانت تدرك منذ الوهلة الأولى، أن ليلى هي القاتلة. كانت تدرك أن سمير ذو شخصية ضعيفة. فهي التي ربتها، وإن كانت قد أعطت الرسالة التي أرسلها سمير إلى مريم الحقيقية إلى قاضية التحقيق، ليس حتى تورطه، بل كي تدفع القاضية إلى اعتقاد بوجود علاقة غرامية بين سمير ومريم، وأن ليلى اكتشفت هذه العلاقة فقامت بقتل سمير.

ـ لا أدري، كم من سر بقي لم يُكتشف؟

ـ أجل، لا أدري كم بقي من سر لم يُكتشف حتى هذه الساعة؟ عصفور أخبرني أنه رآك في سيارة تلك الممثلة الغبية التي تدعى ندى عبد السلام.

ـ أوه يا عزيزتي، ثمة دائماً عصفور يخبرك... لكن يبدو أنني هذه المرة حزرت من هو عصفورك، أليست ليندة ؟

شعرت مونية بالتوتر، وأدارت رأسها كي تخفي احمرار وجهها. عندها ضحك مروان:

ـ أجل، لقد حدث بالفعل هذا...

ـ مروان !!!

ـ مونية يا عزيزتي، ما لا تعرفينه، أنني التقيت بعد الاستجواب في مكتب قاضية التحقيق، بندى. كانت ترتدي نظارات سوداء، وتضع فوق رأسها وشاحاً أسود، طلبت أن تحدثني على انفراد، وكان لها ذلك. ولما التقينا في مكان بعيد عن أنظار الصحافة أو رجال الشرطة، سألتني إن كنتُ قد رأيتها عندما دخلتُ رواق الكواليس. أجبتها بنعم، وأخبرتها أنني قمت بإخبار الشرطة. حينها أخذت تبكي بشدة. قالت لي إن الشرطة تشك فيها، وإن شهادتي

ستجعلها تقتنع بأنها من ارتكب الجرم. لا أدري كيف سأشرح لك ذلك، لقد شعرت بأنها بريئة! أرجوك دعيني أكمل... لم أعش مطلقاً مثل هذا الحدث، ولا أعرف كيف يكون تصرف الشخص البريء موضع الشبهة، ولا كلامه، لكنني شعرت بأن هذه السيدة كانت بريئة. كانت أشبه بحاسة سادسة أو شيء من هذا القبيل. كان شعوراً لم أستطع أن أتجاهله، وهذا ما دفعني إلى تغيير شهادتي الأولى.

* * *

أخذت ليلية تبحث في أدراج غرفتها، عن قارورة مزيل طلاء الأظافر. فهي ستخرج الليلة برفقة شقيقها وابن خالتها. اختارت فستاناً بني اللون لهذه السهرة. كان عليها أن تحضّر نفسها قبل الموعد بساعة، حتى لا تضطر إلى وضع أي شيء، وقررت أن تغير لون أظافرها الذي كان بنفسجياً مائلاً إلى الأحمر. وبينما هي تبحث بفوضى في أدراج خزانتها، إذ بخالتها تدخل، فبادرتها بالسؤال بدون أن تنظر إليها:

ـ خالتي، أين مزيل طلاء الأظافر، أريد أن أنزع هذا الطلاء البنفسجي اللون، وأضع اللون البني؟

ـ عن أي مزيل طلاء تتحدثين. لن أسمح أبدا بأن يكون في منزلي مادة مخدرة. لقد تخلصت من جميع هذه المواد في القمامة.

انتفضت ليلية، وصاحت بهستيرية:

ـ خالتي، لا... ماذا سأفعل الآن؟

مكتبة

telegram @ktabpdf

telegram @ktabrwaya

جديد الكتب والروايات

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

نسرين ستموت الليلة

من الروايات العربية القليلة التي تمزج الجانب البوليسي بالجانب النفسي بالجانب الاجتماعي وتنجح، دون أن تفقد عنصر الإثارة أو عنصر الترابط المكاني ـ الزماني أو تنامي الحدث مع الشخصية. نسرين ممثلة المسرح، تلغي عرضها المسرحي إثر رسالة تصلها تطير إلى مدينة أخرى لتقابل طبيبها النفسي متحدثة عن حالتها النفسية وبكائها المستمر بغير سبب وانهيارها.

تخضع لجلسات عديدة وتنوَم مغنطيسيًا لتسترجع مقتل مريم شقيقتها التوأم، وتتذكر نبوءة الرقم 10 الذي يربطها بمريم ارتباطا مصيريًا مرعبا. ثمة امرأة تراقبها تصغي إلى اعترافاتها. تطاردها لتفاجئها بمعلومات عنها وعن شقيقتها لم تكن لتعرفها من قبل.

سرد آسر ووصف متقن تتخلله الشاعرية والعمق وقفزات شعورية تدفع إلى المتابعة.

تقدَم خديجة نمري تجربة روائية مميَزة وهدية لائقة بعشاق الفن الروائي.

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ١ ٩٦١ +
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧، ٣٤٢٠٠٥، ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+
tradebooks@all-prints.cor
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر